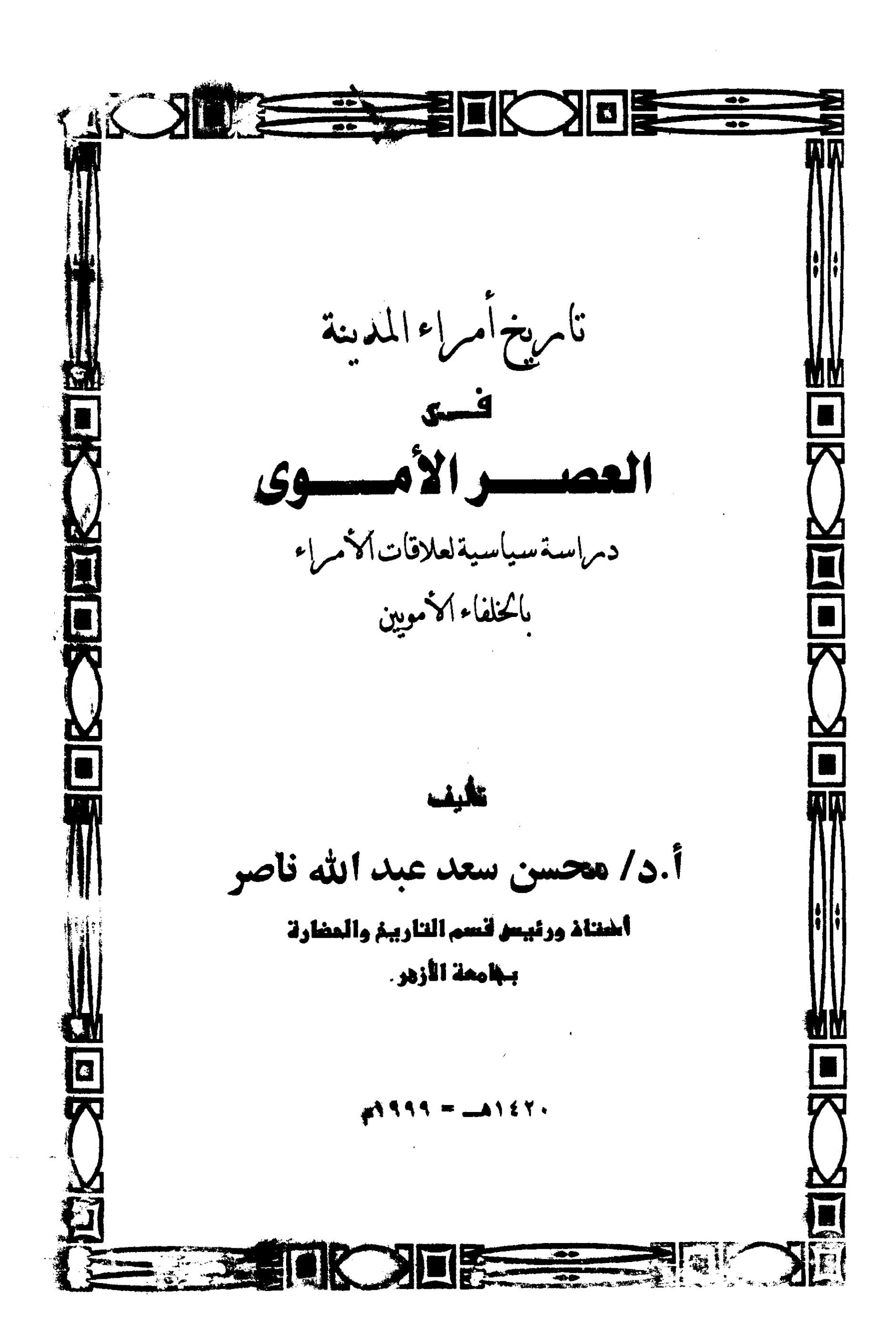


تاريخ أمراء المدينة في العصر الأموي

دراسة سياسية لعلاقات الأمراء بالخلفاء الأمويين

تأليف

أ.د/ محسن سعد عبد الله ناصر

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر

١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

إهــداء

إلى الذى تعهدنى برعايته وأفاض على حنان أبوته .

إلى الذى جعلنى أعيش فى نور العلم منذ كنت فى مرحلة الإجازة العالية ذلك الذى فتح لى بيته ووسعنى صدره حين أشرف علىَّ فى رسالة الماچستير

الوالد الأستاذ الدكتور/ **عبد العزيز غنيم**

أهدى هذا العمل بدافع الوفاء لجميل أسداه إلىَّ

مبتهلاً إلى الله جل علاه أن يلبسه ثياب الصحة وأن يطيل لنا فى عمره وعمر الأساتذة الذين تعهدونى بالرعاية معه ؛ فما نحن إلا غرث غرثه هؤلاء الأعلام ليثمر ثمرة ترضيهم .

فنسأل الله أن نكون ممن يرضى عنهم المولى ثم أساتذتهم .

محسن سعد عبد الله

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى الكريم .

وبعد

فهذه صفحات من تاريخ المدينة المشرفة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فى فترة دقيقة من فترات تاريخ الدولة الإسلامية ، قامت خلالها «المدينة المنورة» بدور عظيم ، حين كانت العاصمة الأولى !!

منها تسير جيوش المجاهدين حاملة راية الإسلام ، ومن أرضها يخرج العمال على الأقاليم ، ومن بين رجالها من خرجوا إلى الأمصار الإسلامية لنشر العلم بين أهل البلاد المفتوحة !!

ولما أصبحت ولاية فى العهد الأموى كانت موضع عناية أولى الأمر فى هذه الدولة وكانت أرضها مسرحا لبعض مراحل الصراع بين هذه الدولة وبين القوى المناوئة بها !!

وكثيرا ما وجدنا «مكة» تشاطرها هذا الأمر : فإن ولاة كثيرين جعلتهم الدولة الأموية يحكمون الحرمين الشريفين معا .

فكان ذلك مؤذناً بتأثر كلتيهما بالأخرى، ناهيك عن الأواصر التى تربط سكان الحرمين والتى لا تخفى على ذوى الألباب من دارسى التاريخ : فإنها هى الأخرى كانت تجعل سكانها يعيشون آمال وآلام بعضهم بعضا .

ولأن المدينتين تهفو إليهما أفئدة المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها!! فإن الدولة الأموية كانت مشغولة بأمرهما أكثر من غيرهما من الولايات

فكانت تختار لهما ولاة تربط معظمهم وشائج القربى بخلفائها حتى يضمنوا ديمومة ولاء الحرمين لهم مما كلف الدولة الإسلامية أموالا باهظة .

وآية ذلك ما كان من أمر ثورة "ابن الزبير" ، تلك الثورة التى استطاعت حرمان هذه الدولة من الحرمين الشريفين مدة جاوزت سبع السنوات ؛ فلما أرادت الدولة استرداد الحرمين سيرت إليهما الجيوش تلو بعضها ؛ من أجل انتزاعهما من « ابن الزبير ».

ومن الطبعى أن يتأثر المدنيون بهذا الصراع الذى تعددت جوانبه ،فكان منها الحربى،ومنها السياسى ، والعقدى ؛ فأزهقت أرواحهم وقلت أرزاقهم فى كثير من الأحايين .

بل كان من الولاة من جاء إليهم وهو يحمل السيف والنار ، ينزل بأعلام بلادهم صنوف العذاب ؛ فكانوا يجأرون بالشكوى من ظلمه حتى يكشف الله عنهم تلك الغمة بعزل هذا الوالى عنهم !! فيأتيهم آخر ناشر الرخاء والأمن والأمان فى ربوع بلادهم !!

... هكذا كانت أحوالهم فى تلك الدولة بين شدة ورخاء !!

وما ذلك إلا بسبب سياسة الولاة،وإن شئت فقل بسبب سياسة الخلفاء .

والوقوف على أخبار ولاة المدينة فى تلك الحقبة،والضوابط التى تحكم علاقتهم بخلفاء الدولة لم يكن بالأمر الهين ؛ فإن أخبار هؤلاء الولاة جاءت مبعثرة فى مصادر التاريخ الإسلامى،والإلمام بها يحتاج إلى الوقوف على ما فى تلك المصادر من أخبار الدولة الأموية، ويزداد الأمر صعوبة حين يعمد

بعض الخلفاء الأمويين إلى تولية «المدينة» لرجال غير أكفاء لم يحفظ لهم المؤرخون أخبارا ؛ لكونهم من المغمورين فى هذا الوقت ؛ وكل ما أهلهم لتولى هذا العمل هو قرابتهم له من جهة، أو المصاهرة من جهة أخرى !!

ومن الصعوبات التى واجهتها فى إعداد هذا الكتاب ،أننا ونحن نسطر صفحاته نجد أخبار «المدينة» متصلة بثورة أو حركة كبرى،مثل «ثورة ابن الزبير» ؛ فكان لزاما علينا أن نمر عليها فى عجالة ؛ قصد إبراز دور ولاة المدينة فيها، إن سلباً وإن إيجاباً ، وموقف المدنيين منها .

ولقد ألزمنا أنفسنا بمنهج فى دراستنا هذه،قام على استقاء المعلومات من مصادرها الأصيلة،ولم نلجأ إلى مرجع إلا فى ذكر سبب برر به صاحبه أمراً من الأمور، أو ذكر رأى فى حدث من الأحداث التي تمر بك في صفحات الكتاب مستخدمين الحواشى فى بيان مبهمات الألفاظ، وإلقاء الضوء على الأعلام، وتخريج البلدان وتوثيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

ولسوف يراعى الكتاب الترتيب الزمنى فى ذكر الولاة مقدما لهم بترجمة موجزة للخلفاء الذين ولوهم،ولن نعمد إلى مخالفة هذا الأمر إلا فى أضيق النطاق ؛ حين نجد والياً من الولاة يعهد إليه بأمر ولاية المدينة أكثر من مرة خلال حكم الخليفة؛ فكان بين عزل وتولية ؛ مما جعلنا نجمع بينه وبين غيره من الولاة فى عهد أمير المؤمنين .ونحن نتحدث عن علاقة الولاة بالخليفة الأموى الجالس على دست الخلافة خلال هذا الوقت

وتحرص صفحات الكتاب على إبراز الدور المعمارى للولاة إن وجد ؛ لما له من أثر بين فى الحكم على الوالى والخليفة أولهما.

وعلى الجملة ؛ فإننا لم نضمن هذه الصفحات أخباراً عن ولاية إسلامية غير ولاية «المدينة» إلا إذا كان لها «بالمدينة» اتصال ؛ جاعلين ذلك فى أضيق نطاق ؛ مما جعلنا نغض الطرف عن كثير من التفصيلات المتعلقة ببعض الموضوعات كما نراها ونحن نتحدث عن ثورة الخوارج «بالمدينة ».

أما عن المصادر التى أقامت الكتاب ؛ فكان منها ما تخصص فى تاريخ المدينة مثل «أبى زيد عمر بن شبة» [١٧٣هـ-٢٦٢هـ]، والوفاء بأحوال دار المصطفى-«لنور الدين على بن أحمد السمهودى» والمدينة النبوية "لمحمد حسن شراب".

ومنها ما تناول التاريخ الإسلامى عامة مثل : تاريخ الأمم والملوك «لابن جرير والطبرى» (٢٢٤-٣١٠هـ) والكامل فى التاريخ «لابن الأثير» والبداية والنهاية " للحافظ بن كثير "(ت:٧٧٤هـ).

وغيرها كثير من المصادر والمراجع التى يأتى ثبت المصادر والمراجع على ذكرها.

هذا ويقوم الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول .

ويأتى الفصل الأول بعنوان : (قيادات المدينة قبل العصر الأموى).

فيه نذكر أخبار من حكموا «المدينة» منذ تأسيس الدولة الإسلامية إلى قيام الدولة الأموية موجزة ؛ لجعل القارىء يعيش تسلسل الأحداث التاريخية من أجل ربط السابق باللاحق منها .

وأما الفصل الثانى ؛ فعنوانه : (ولاية المدينة فى العهد السفيانى).

وفيه نذكر ولاة الحرم النبوى فى عهد «معاوية بن أبى سفيان» ثم ولده

«يزيد» وما كان من أمر ولاية العهد له،وموقف المدنيين وولاتهم من هذه القضية ، وولاة الزبيرين الذين تعاقبوا عليها حتى كان ما كان من أمر الحكم المروانى لهذه الدولة .

أما الفصل الثالث؛ فهو : (ولاة المدينة فى العهد المروانى).

وتضمن ولاة الحرم النبوى فى عهود خلفاء هذا الفرع الأموى،وما تخلل ذلك من أحداث عظيمة الأثر! كحكم «الحجاج» لها ، وسيطرة «أبى حمزة المختار الأسدى» عليها .

وأما الخاتمة ؛ فتضمنت أبرز النتائج التى توصل إليها الكتاب من خلال عرضه لعلاقات ولاة « المدينة » بالخلافة الأموية .

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم فإنه تعالى نعم المولى وعلى الإجابة قدير.

د / محسن سعد عبد الله
أ . التاريخ الإسلامي المساعد
كلية اللغة العربية
المنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

قيادات المدينة قبل العصر الأموى

يحسن بنا قبل أن نعرض لما كان من أمر العلاقة بين خلفاء الدولة الأموية وولاتهم على « المدينة »،أن نقدم لهذه الدراسة بكلمة نلمع فيها إلى ما ذكرته المصادر الأصيلة من أسماء لتلك البقعة المشرفة بسكنى الرسول – ﷺ –،ومسجده المقام بها،وهو الذى تشد إليه الرحال[1]" فنقول : إن المصادر والمراجع التى أتت على ذكر تاريخ الدولة الإسلامية وما كان من أمر تأسيس الرسول – ﷺ – لها بتلك البقعة المشرفة،ذكرت لنا أكثر من اسم[2] لهذه المنطقة ،إلى حد أن بعض أصحاب المراجع قال : إن لها (خمسة وتسعين) اسما"[3].

ولسنا هنا بصدد إحصاء تلك الأسماء والتعليل لإطلاقها على هذا المكان الذى تهفو إليه أفئدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها !! لأن ذلك سيخرجنا عن دراستنا التى أنشأنا هذا الكتاب من أجلها، وهى التأريخ لولاة الأمويين على «المدينة» .

بيد أننا نذكر ثلاثة من أشهر أسمائها التى أطلقت عليها فى عصرى ما قبل البعثة والإسلام،لنبين منها كيف أن هذه المنطقة التى ميزها الله عن

(١) نور الدين السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى/جـ٢/ ٤١٥.

(٢) للوقوف على أسمائها ودلالتها وسند إطلاقها عليها

انظر : كتاب نور الدين السمهودى – وفاء الوفا – جـ١ / ١١:٢٦ .

(٣) على حافظ : فصول من تاريخ المدينة / ٩٧ .

المناطق المجاورة لها قد عرفها العرب واليهود قديماً؛ فقطنوها!! وكان لهم ما لهم من تاريخ أثر على مجريات الأحداث فى المناطق المجاورة تأثيراً جعلها تربة ممهدة لاستقبال أعظم حدث عرفه الوجود ،وهو هجرة الرسول المختار من أم القرى إليها ؛ليسكنها ،ويعيش بين قاطنيها من العرب وهم الأنصار

ومن أشهر أسمائها فى عصر ما قبل الإسلام «يثرب» ، ولقد اختلف أصحاب المصادر فيما بينهم حول سبب إطلاق هذا الاسم على تلك المنطقة التى هاجر إليها المسلمون ؛ فذكر بعضهم أنه نسبة إلى «يثرب بن هذيل بن إرم» لما نزل أول مرة وقومه موضع « المدينة » بعد تفرق قوم عاد »، وقيل: إن «يثرب» نسبة إلى «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح » وبه سميت «يثرب» ؛وهو من «العماليق» و «بنوعبيل»، هم الذين سكنوا مكان «الجحفة» ؛ فلما أجحفت بهم السيول[1]؛ أطلق على المكان هذا الاسم [2].

ومن الباحثين المحدثين من قال : إن هذا الاسم الذى أطلقه العرب على

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ١ / ٦، ٧.
نور الدين السمهودى : الوفاء بالوفا جـ١/(١٥٦) .
محمد حسن شراب : المدينة النبوية جـ١/ ٢٥.

(٢) بالضم والسكون والفاء : كانت قرية كبيرة ذات منبر، على طريق «مكة» على أربع مراحل هى ميقات أهل « مصر» «والشام» إن لم يمروا على «المدينة»، وكان اسمها «مهيعة» بينها وبين البحر ستة أميال وبينها وبين «غدير خم» ميلان وليس للجحفة وجود فى الوقت الحاضر .
صفى الدين : مراصد الاطلاع جـ١/ ٣١٥.
أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى جـ١ / ٥٨٤.

هذا المكان ،لم يكن نسبة إلى شخص بعينه كما ذهب أصحاب الرأى الأول،وإنما يعزى إلى مدلول لغوى، واستدل على ذلك بوجود اشتقاقات واستعمالات للفظة «يثرب» فى معاجم اللغة وأحاديث «سيد المرسلين» والقرآن الكريم،والشعر العربى، من ذلك : ماذكره «ابن منظور» من أن الثارب: الموبخ، والتثريب: الإفساد والتخليط، [1]وقد جاء فى القرآن الكريم لفظ « يثرب » وبعض مشتقاته ذلك فى قوله تعالى: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}[2].

وقوله :{وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً}[3].

وفى السنة الشريفة قول رسول الله - ﷺ -: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليحد الحد ولا يثرب» [4].

وقد جاء لفظة يثرب فى الشعر العربى فى قول الأشجعى :

وعدت وكان الخلف منك سجية

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب [5].

ولقد عثر على بعض الكتابات الأثرية القديمة على حجر بوادى العقيق

(١) ابن منظور : لسان العرب - مادة - ثرب ..

(٢) سورة : يوسف /آية(٩١).

(٣) سورة الأحزاب : آية (١٣).

(٤) رواه أحمد : ٢/٢٤٩.

(٥) ورد فى لسان العرب مادة :«عرقب» روايتان للبيت هذه إحداهما .

ضمن نص أورده «ابن زبالة» جاء فيه «أنا عبد الله »رسول الله «سليمان ابن داوود » إلى أهل «يثرب» [1].

فهذا إن دل على شيء ؛ فإنه يدل على أن العرب بالجزيرة العربية قد عرفوا اسم «يثرب» منذ آماد بعيدة،وأن هذا الاسم من أصل عربي .

ولقد حاول أحد الباحثين المحدثين التوفيق بين الرأيين السابقين ؛ فذكر أنه لا تعارض بينهما؛ فلا مانع عنده من أن يكون الاسم أطلق على المكان لدفع الحسد عنه ،كما قضت به عادة العرب حين يذكرون الاسم مسبوقا بصفات غير محمودة حتى تدفع عنه أعين الحساد ، مثل قولهم : (قاتله الله ما أشجعه)[2]على أن إطلاق اسم «يثرب» لم يكن يستعمل عند العرب علماً لذلك المكان الذى صار يعرف عند المسلمين باسم آخر - كما سنبينه - وهو «المدينة المنورة» ، بل كان يطلق على المكان الواقع (غربى مشهد أبى عمارة «حمزة بن عبد المطلب» عم رسول الله - ﷺ - وشرقى الموضع المعروف بالبركة - مصرف عين الأزرق ينزل بها الراكب الشامى فى وروده ويسميها «الحجاج» «عيون حمزة» - ومما قيل أيضاً فى تحديد موضع «يثرب» : أنها ما بين طرف « قناة » إلى طرف «الجرف»، وما بين المكان الذى يقال له : «البرنى»[3]إلى «زبالة»[4].

(١) نور الدين السمهودى: وفاء الوفا بأحوال دار المصطفى / جـ١ /١٥٨/١٥٩ .

(٢) محمد حسن شراب : المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى/ جـ١/٢٧ .

(٣) لفظ يطلق على نوع من التمر كان مشهوراً بالمدينة ولعلها تطلق على بساتين العيون فى الشمال الغربى للمدينة.

الإدريسى : مجتمع المدينة فى عهد الرسول/ صـ٢٤/حاشية رقم(١).

(٤) تقع بين شمالى جبل سلع إلى قرب وادى قناة .

الإدريسى :مجتمع المدينة فى عهد الرسول - ﷺ- /٢٤/حاشية(٢).

أما اسم «المدينة» ؛ فإن النبى «محمد» - ﷺ - أطلقه عليها حين سكنها المهاجرون ؛ يدلنا على ذلك ،ما رواه غير واحد من أصحاب كتب السنة عن النبى - ﷺ -؛ فقد قال فيما رواه البخارى عنه : (أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب،وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد) (١).

ولقد غلب هذا الاسم على غيره من الأسماء فصارت دار هجرة الرسول تعرف به بين السواد الأعظم من المسلمين ؛ فإذا ما أطلق لفظ «المدينة» ،لا ينصرف الذهن إلا إلى دار هجرة الرسول - ﷺ -، فإن لفظة أل فى الكلمة للعهد الذهنى .

ولقد جاء ذكر الاسم فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى :

{لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً} (٢).

ولما كان الرسول - ﷺ - يكره الأسماء التى لا تحمل المعانى الحسنة كما نراه فى بعض معانى كلمة يثرب ؛ فإنه نهى عن إطلاق هذا الاسم(٣) عليها بعد ما صارت للإسلام دولة وغدت له شوكة .

وآية ذلك ما رواه أئمة الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «من

(١) عمر بن شبة : تاريخ المدينة المنورة : جـ١ / ١٦٢.
محمد حسن شراب : المدينة النبوية جـ١/ ٣٠ .
(٢) سورة الأحزاب : آية رقم (٦٠) .
(٣) الصالحى : سبل الهدى والرشاد/ جـ٣/٢٩٦ .

قال للمدينة يثرب فليقل : استغفر الله ثلاثاً هى طابه، هى طابه، هى طابه» (١).

وثالث الأسماء التى أطلقت على دار هجرة الرسول، «طيبة» وهذا الاسم ينطبق عليها تمام الانطباق ؛فقد صارت طيبة المقام عبقة الهواء حين هاجر إليها الرسول - ﷺ - وراح المسلمون الأول يعبدون الله فيها بأمن وأمان !!ولقد ورد هذا الاسم فى أكثر من حديث لرسول الله - ﷺ -من ذلك مارواه سماك (٢)عن «جابر بن سمرة» عن النبى - ﷺ - «إن الله تعالى سمى المدينة طيبة»(٣)

ومهما يكن من أمر؛ فإن مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما لها من موقع فريد،قد كانت المكان الذى انطلق منه المسلمون يفتحون البلاد ناشرين دين الإسلام مستفيدين أعظم استفادة من جغرافية الموقع .

موقع المدينة وأهميته

من الأمور المسلم بها عند دارسى التاريخ أن المرء إذا أراد كتابة تاريخ منطقة ما ،لابد له من الإلماع إلى طبيعة الأرض التى وقعت عليها الأحداث التاريخية ، لأن أرض الحدث لا مراء تؤثر فيه إن سلباً وإن إيجاباً .

---

(١) روى هذا الحديث عن رسول الله :حدثنا خلف بن الوليد عن عبد الرحمن وهو مذكور فى كتاب منتخب كنز العمال / جـ٥/٣٥٣.

(٢) ابن حرب بن أوس بن خالد بن نزار بن معاوية بن حارثة الذهلى البكرى أبو المغيرة الكوفى روى عنه عدد كبير من رواة الحديث توفى عام (١٢٣).
ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب/ جـ٤/ ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٣) عمر بن شبة : تاريخ المدينة المنورة / جـ١/١٦٤.

ومن ثم.فإننا رأينا إلقاء الضوء على أبرز المعالم الجغرافية «للمدينة المنورة » على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

تقع «المدينة» بالنسبة لخطوط الطول والعرض عند (٣٩) درجة،و(٣٦) دقيقة وثانية واحدة و(٦١) من المائة من خطوط الطول وعلى (٢٤) درجة و(٢٨) دقيقة و(٥) ثوان،و(٣٥) فى المائة من خطوط العرض ،فهى إذاً تقع من جزيرة العرب ، على الحافة الغربية المنحدرة منها وأرضها واحة خصبة يحدها من الشمال ، جبل «أحد»، ومن الجنوب الغربى جبل «عير»،و يحدها شرقاً وغرباً ، تكوينات بركانية تشكلت نتيجة للنشاط البركانى الذى تعاقب على « المدينة » خلال العهود القديمة،وعرفت تلك التكوينات عند المدنيين باسم لاباتى « المدينة » أو حرتيها وهما ،«واقم» فى الشرق و «حره الوبرة..» فى الغرب [1] .

ومن المؤرخين من يذكر أن اللابتين داخلتان فى «المدينة المنورة» لما روى عن النبى - ﷺ - أنه كان فى الحرة الشرقية جهة العريض فى منازل بنى حارثة وأنه قال لهم :«أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم عن الحرم» ثم التفت فقال :«لا على أنتم فيه »

وذكر بعض الرواة أن حدود«المدينة» بريد فى بريد ، والبريد: أربعة فراسخ،والفرسخ أربعة كيلو مترات،وترتفع «المدينة» عن سطح البحر بنحو (٥٩٧) متر إلى (٦٣٩) متراً.

---

(١) الإدريسى : مجتمع المدينة/١٩، ٢٠ .
نور الدين السمهودى : وفاء الوفا/ جـ١/ ٩٢، ٩٣.

أما عن أوديتها؛ فإنها تبدو جافة مجدبة عند انعدام المطر، فإذا هطل غزيراً بدت كالأنهار يجرى فيها الماء جرياناً، واشهر تلك الأودية «وادى العقيق» فى جهة الغرب منها ويأتى من تحت جنوبها، «ووادى بطحان» الذى يمر «بالمدينة» وسط بيوتها فى جهة الغرب متجهاً شمالاً بعد التقائه بأودية « مذينب» و«رانوناء» و «أورانون»، ويشق وادى «مهروز»- وهو شرقى العوالى- الحرة الشرقية إلى العريض ملقياً أيضاً، «ببطحان» فى طريقه غربى «المدينة» إلى الشمال، وفى شمال«المدينة» وادى قناة ويأتى ماؤه من شرقيها ثم تجتمع مياهه مع الأودية المذكورة بموضع يقال له« بزغابه» [1].

ويعم الفرح المدنيين حين يجدون الماء يجرى فى «وادى العقيق»!! فهذا هو أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» كان يقول حين يخبر بجريان الماء فيه : (اذهبوا بنا إلى هذا الوادى المبارك وإلى الماء الذى لو جاءنا، جاء من حيث جاء ، لتمسحنا به) [2].

ولما كانت طبيعة أرض«المدينة» بركانية ؛ فإن مياه الأمطار التى تسقط على أرضها وتسيل بها أوديتها لا تذهب هباءاً إنما يحتفظ باطن الأرض بها فيعمد السكان إلى الانتفاع بهذه المياه من الآبار التى قامت عليها حياة السكان وزراعتهم ، ومن أشهر أبارهم : «بئر أريس» غربى «مسجد قباء» و «بئر حاء» شمال «المسجد النبوى» [3]، «وبئررومة» وسط «العقيق» من أسفله، وكانت ليهودى يبيع المسلمين ماءها؛ فاشتراها

(١) عمر بن شبة : تاريخ المدينة المنورة / جـ١/١٦٧ .
السمهودى : وفاء الوفا: جـ٣/١٠٨٠ .
محمد حسن شراب : المدينة المنورة / جـ١/٤٠، ٤١.
(٢) عمر بن شبة : المدينة المنورة / جـ١/١٦٧.
(٣) عبد الله بن عبد العزيز إدريس /مجتمع المدينة فى عهد الرسول/صـ٢١ .

«عثمان بن عفان» على مرحلتين وجعلها للمسلمين عامة، و«بئر عروة»، وهو من الآبار المشهورة فى «المدينة المنورة» بعذوبة مائها ووفرته [1].

أما مناخها؛ فإنه مناخ صحراوى حار شديد الحرارة والسموم فى الصيف ومعتدل لطيف منعش فى الخريف والربيع وبارد محتمل فى الشتاء [2]

ولم يكن لنزول المطر على المدينة مواسم معينة أو أوقات متقاربة، ولذلك كانت «المدينة» عرضة لسنوات الجفاف والقحط وأحياناً تتعرض لسيول جارفة تكتسح ما يقابلها من «مواش، وزروع، وطرق» [3].

ومن أشهرها «سيل مهروز»؛ فإنه فاض غير مرة فى الإسلام فيضاناً هدد المسجد النبوى والمنازل القريبة منه [4].

ولقد عرف المدنيون الزراعة؛ فاعتمدوا عليها فى حياتهم اعتمادا كبيراً؛ فميزت منطقتهم عن «مكة المكرمة»، وآية ذلك؛ ما ذكرته لنا المصادر التاريخية من أن بعض «المهاجرين» عملوا لدى «الأنصار» بالزراعة؛ فكانوا يقسمون المحصول بينهم مقاسمة المزارعة ومنهم من كانت له مزارع مستقلة مثل «عبد الرحمن بن عوف» [5] و«سعيد بن زيد» و«الزبير بن العوام» [6].

---

(١) عمر بن شبة: تاريخ المدينة المنورة/ جـ١/صـ٦٩ نور الدين السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى/ جـ٣/صـ١٠٤٣.

(٢) على حافظ: فصول من تاريخ المدينة المنورة / صـ١٧.

(٣) عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس: مجتمع المدينة فى عهد الرسول /صـ٢١.

(٤) نور الدين السمهودى: وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى / جـ١٠٧٨/٣.

(٥) ولد بعد الفيل بعشر سنوات وهو من العشرة المبشرين بالجنة ومن رجال الشورى الذين عينهم عمر.

توفى سنة إحدى وثلاثين بالمدينة عن عمر بلغ خمسا وسبعين سنة.

ابن الأثير: أسد الغابة / جـ ٣ / ٣٧٥ - ٣٨٠.

ابن حجر: الإصابة / جـ٢ / ٤١٦.

(٦) محمد حسن شراب: المدينة النبوية فجر الإسلام / جـ٤١/١، ٤٢، ٤٣.

والذى يدلنا على أن المحصول الزراعى كان وفيراً «بالمدينة» فى أغلب الأحايين ، أن أهلها حينما آوى إليهم المهاجرون وقاسموهم أقواتهم لم يؤثر ذلك فيهم تأثيرا يؤدى إلى قحط أو إحداث مجاعة ، ولم يعانوا من ضيق فى العيش إلا عندما يقل المطر فى بعض الأعوام .

ومن أشهر المحاصيل الزراعية ، «التمر» الذى كان يعتمد عليه «المدنيون» فى غذائهم بشكل رئيسى .

ومن الطبعى أن الزراعة تستلزم الاستقرار، وهذا يؤدى بدوره إلى ازدهار التجارة، حيث إن «المدينة» بما لها من موقع متوسط على طريق القوافل التجارية بين بلاد «اليمن» وبلاد «الشام» قد كانت مستراحا لتلك القوافل عند ذهابها وإيابها ، وهذا بلا ريب يشجع المدنيين على الانخراط فيها قصد الاتجار وجنى الأرباح هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فإنه يؤدى إلى رواج تجارى داخلى يدل على ذلك، الأسواق العديدة التى كانت منتشرة «بالمدينة المنورة» .

ولأن هذه البلاد كانت تجاور بلاداً غنية بثرواتها الزراعية ومعروفة بنشاطها التجارى مثل «خيبر»[1] و «تيماء»[2] «ووادى القرى»،

(١) الموضع المشهور الذى غزاه النبى- ﷺ - على ثمانية برد من «المدينة» من جهة «الشام»،وتقع على خط طول ٤٠ شرقا وهى باللغة العبرية الحصن.
ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع / جـ١/٤٩٤.
أحمد عطيه الله : القاموس الإسلامى/ جـ٢/٣٠٨ .

(٢) بلدة تاريخية تقع بالقرب من «تبوك» فى واد كثير المياه والزرع بين «الأردن» وشمال الجزيرة العربية ، كانت «تيماء» مدينة عامرة فى العصور القديمة ومركزاً تجارياً على طريق القوافل إلى«الشام» وقد ورد ذكر اسمها فى معلقة «امرىء القيس» سكنها اليهود فى الجاهلية حتى جلوا عنها فى خلافة «عمر بن الخطاب»- رضى الله عنه - .
ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع / جـ١/٢٨٦.
أحمد عطيه الله : القاموس الإسلامى / جـ١/٥٢٢.

بالإضافة إلى «مكة» «والطائف»[1]؛ فإن المدنيين كانوا ينقلون منها وإليها البضائع مما جعلهم فى بحبوحة من العيش ؛

ولأن هذا يستتبع انتقال جم غفير من الجماعات إليها قصد الاتجار أو التسوق؛ فقد جعلها موطناً صالحاً لانطلاق الدعوة الإسلامية إلى مواطن تلك الجماعات ؛ ومن ثم كان ذلك سبباً من الأسباب التى أدت إلى نجاح الدعوة الإسلامية بها أكثر من نجاحها فى «مكة» .

ويفصل «المدينة»عن مكة ٤٩٧ كيلو متراً وعن ينبع نحو (٢٧٥) كيلو مترا، ومنها إلى«جدة»نحو(٤٢٥) كيلو متراً ومنها إلى«دمشق» نحو(١٣٠٣) كيلو متراً ، وإلى حدود«الأردن» نحو(٨٤٤)[2] وطرق مواصلاتها مع تلك المدن مألوفة للناس ؛ لما لها من أهمية تجارية قبل الإسلام، مضافاً إليها الناحية الدينية بعد أن أشرقت عليها شمس الدين الحنيف منذ هاجر إليها المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه وأنشأ بعض الأسس القوية لبناء الدولة الإسلامية .

قيادة النبى للدولة الإسلامية فى المدينة

بادىء ذى بدء نقول: إننا لا نستطيع تتبع المراحل التى سبقت قيام الدولة الإسلامية فى «المدينة المنورة»،وتلك التى صاحبت هذا القيام بالتفصيل الدقيق،حيث إن ذلك يحتاج إلى مجلدات تعد صفحاتها بالآلاف! فإن ما كان من أمر قيام هذه الدولة والأحكام التى أسستها

---

(١) محمد حسن شراب : المدينة النبوية / جـ١/٤٦.

الإدريسى : مجتمع المدينة فى عهد الرسول صـ٢٥.

(٢) على حافظ : فصول من تاريخ المدينة المنورة/٩٧ .

والتأثرات التى تركتها على سكانها فى الداخل ، وعلى أولئك الذين قطنوا المناطق المجاورة لها فى بلاد العرب أو مواطن الدول المجاورة ،لهي من المواضيع التى جذبت وما تزال تجذب إليها أقلام الباحثين لاستنطاق الأحداث ، واستنباط العبر من المواقف التاريخية والاجتماعية التى علم بها الرسول الإنسانية !!

وغاية ما نود تحقيقه فى هذا المقام ، هو ذكر إلماعة عن أبرز الأحداث التى مرت على هذه الدولة فى عصرى النبى«محمد» - ﷺ - ثم خلفائه ؛ الراشدين ؛ لتكون سبيلاً يوصلنا إلى التأريخ لفترة ولاة «المدينة» خلال العصر الأموى .

الرسول يهاجر إلى المدينة

تضافرت عدة أسباب جعلت النبى محمد - ﷺ - يهاجر من «مكة» إلى «المدينة»، تتلخص فى ذلك الإيذاء الذى صبه المكيون على النبى «محمد» والمسلمين فى «مكة»، بالإضافة إلى أن قبيلتى «الأوس» و «الخزرج» قد سئمتا الحروب الضروس التى كانت تنشب بينهما بين الفينة والفينة فهدى الله ستة رجال من عقلاء قومهم إلى «رسول الله» حين كان يدعو الناس بالأسواق إلى نبذ عبادة الأوثان واعتناق الدين الحنيف؛ فأقبلوا عليه وبايعوه البيعة الأولى عند العقبة سنة(١١)من البعثة، ثم كان العام التالى متضاعف العدد! وبايعوه بيعة العقبة الثانية، وأشخص معهم «مصعباً بن عمير»؛ليعلمهم القرآن؛ فإذا بالإسلام يسرى مسرى النسيم فى دور«المدينة»!! فكان العام التالى عام بيعة العقبة الثالثة ؛ فأمر رسول الله بعد تلك البيعة المسلمين (١)بالهجرة من «مكة» إلى «المدينة» .

يضاف إلى ما تقدم، هذه المؤامرة الكبرى التى تآمرت فيها قريش على رسول الله قصد قتله والمعروفة عند كتاب السير والتاريخ بالمؤامرة الكبرى فى دار الندوة (٢).

وعلى كل حال؛ فإن النبى محمداً - ﷺ - ما كاد يصل إلى «المدينة»، حتى وضع الأساس لمسجده فى ذلك المكان الذى غدا مقراً لأول حكومة إسلامية رأسها الرسول - ﷺ -، وقد كانت أرض المسجد مملوكة لغلامين يتيمين ؛ فاشتراها منهما النبى - ﷺ- وجعل بجواره حجرات أزواجه (٣) .

---

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد/ جـ٣/٤٤، ٥٠ .

أكرم ضياء العمرى : السيرة النبوية الصحيحة / جـ٢/١٩٧، ١٩٨.

(٢) محمد يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد/ جـ٣/٣٣١ .

(٣) ابن قيم الجوزية : سبق ذكره / جـ٣/٦٢.

وبفضل من الله تمكن الحبيب محمد - صلى الله عليه وسلم - من الاستعلاء بعصبية «الأوس» و«الخزرج» وجعلهما فى خدمة الإسلام وألف بينهم وبين المهاجرين[1] ونظم العلائق بين المسلمين واليهود فى معاهدة فاضت نصوصها بالسماحة والمروءة معهم[2] .

بيد أنهم خالفوا بنودها غير مرة ؛ فاستحقوا قتل الرجال وسبى النساء أو الإجلاء ، ولقد حمل المهاجرون والأنصار راية الكفاح لما شرع الله القتال للمسلمين قصد رد الإعتداء وتأمين الدولة ؛ فلقنوا قريشاً ومن دار فى فلكها الدرس تلو الآخر فى «بدر» [3] ،ثم كانت «غزوة أحد»، وفيها وضعت الحرب أوزارها عن نتيجة غير حاسمة لكلا الفريقين المسلم والمشرك؛ فقد فاز المسلمون فى جولتها الأولى، وكانت الثانية للمشركين واختبر الله المسلمين اختباراً عظيماً حين جاء الأحزاب ،فتحلقوا « المدينة » وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ؛ ولعب المنافقون دوراً بارزاً فى تخذيل المؤمنين المدافعين عن الدعوة الإسلامية،ولقد انتهت تلك الحملة بنصر الله للمؤمنين على الكافرين ؛ بريح قلبت القدور ، واقتلعت الخيام[4] ولفَّ الظلام المكان فحلَّ الخوف والفزع،محل الأمن والأمان والكبرياء لدى المشركين؛ فلاذوا بالفرارمن «المدينة»مذعورين ورد الله كيد المنافقين إلى نحورهم !!

---

(١) : محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد / جـ ٣ / ٣٦٣

(٢) : ابن قيم الجوزية/ زاد المعاد/جـ٣/ ٦٥ ، الصالحى /سبل الرشاد/ جـ٣ /٣٨٢

(٣) : ابن سيد الناس : عيون الأثر: / جـ ١ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ . الصالحى : سبل الهدى والرشاد / جـ ٤ / ١٨ : ٦٠

(٤) : ابن سيد الناس : عيون الأثر جـ ٢ / ٨٤ :١٠١، ابن قيم الجوزية / زاد المعاد جـ ٣ / ٢٦٩ : ٢٧٠

ومن المعالم التاريخية البارزة لكفاح الدولة الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ أعدائها ما نراه فى صلح « الحديبية » ، ذلك الصلح الذى جعل قوة «المؤمنين» وهم قلة بالنسبة للمشركين على قدم المساواة مع «قريش » بما لها من سلطان على «العرب » قاطبةً، وكان هذا الصلح فاتحة خير على المسلمين؛ فقد ترتب عليه سببٌ أدى إلى فتح «مكة »[1] ذلك الفتح المبين الذى أزال الله به عقبة كؤود كانت تقف فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية فى أرجاء الجزيرة العربية ! فبه عز «المسلمون » بين العرب وصاروا يؤدون الحج بحريةٍوأمن، وآمان، وبعده أمت الوفود «المدينة المنورة» حاضرة الدولة الإسلامية آنذاك ؛ لتعلن بين يدى النبى محمد إسلامها ، ثم حج النبى حجة الوداع التى أدى الناس فيها مناسكهم ، وألقى فيهم خطبة علمهم فيها مبادىء سامية، تجعل الأمة المحمدية كما قال الله عنها :

«خير أمة أخرجت للناس» ثم لحق النبى بالرفيق الأعلى!! لتستقبل الدولة الإسلامية مرحلة جديدة من مراحل تاريخها شهدت فيها أحداثا عظيمة أظهرت قوة الإيمان الذى غرسه النبى محمد فى أفئدة أصحابه المؤمنين .

الدولة الإسلامية فى عهد الراشدين

جعلت وفاة النبى الأمة الإسلامية فى موقف صعب، حيث إن رسول الله لم يبين لها أثناء حياته نظام الحكم من بعده، ولعل ذلك راجع إلى أنه - صلوات ربي وسلامه عليه - وهو الذى جاء العالمين بالدين الخاتم - ، لم

(١) ابن سيد الناس / عيون الأثر / جـ ٢ / ١٦٠ : ١٧٢ ، أكرم العمرى /السيرة النبوية الصحيحة / جـ٢ / ٤٣٤ : ٤٥٣

يرد أن يقيد الناس بنظام حكم معين ، تاركاً لهم اختيار الطريقة الملائمة فى الحكم حسب الظروف التى يعيشونها.

ومن ثم، فإن الأنصار حين علموا بوفاة النبى محمد تنادوا؛ فأموا سقيفة بنى ساعده، ليتشاوروا فى أمر اختيار رجل يخلف رسول الله فى حكم الأمة،ولما علم«عمر»«وأبو بكر»- رضى الله عنهما- باجتماع الأنصار سارا إليهم واصطحبا معهما فى الطريق «أبا عبيدة بن الجراح».

ولقد اختلفت الروايات التى حوتها المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى فى تصوير مادار بين ممثلى المهاجرين وجماعات الأنصار فى السقيفة، وصورتها بعض الروايات حرباً باللسان كادت تفضى إلى إشهار الحسام، بينما أخرى صورتها بصورة قامت فى لحمتها وسداها على التسامح بين الفريقين ، حيث إن الأنصار عرفوا ما للمهاجرين من حق وسابقة للإسلام مما يجعلهم مؤهلين لخلافة رسول الله .

ولسنا هنا بصدد عرض روايات كلا الفريقين وترجيح البعض على الآخر [1]؛ فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة لعصر الراشدين.

وعلى الجملة فإن المجتمعين بالسقيفة ، أجمعوا على اختيار أبى بكر الصديق خليفة لرسول الله على أمته.

---

(١) عرض المؤلف بالتفصيل الدقيق لتلك الروايات فى كتابه / نور اليقين فى تاريخ الراشدين - الجزء الأول - الخلافة والبيعة : من ص ٤١ إلى ٥٥

الصديق يقود الدولة الإسلامية

لما أستوى«أبو بكر»على أريكة الخلافة، وأسلمت له الأمة المقادة، أنشأ يُسيّر الأمور على غرارِ ما كانت عليه فى حياة النبى محمد؛ فأشخص «أسامة بن زيد» إلى بلاد الروم[1] كما كان يريد الرسول -ﷺ- ، وانبرى بهمةٍ ونشاطٍ عظيمين إلى مناهضة المرتدين؛ فسيَّر الجيوش الإسلامية إليهم، وطفق يلاحقهم حتى استأصل شأفة حركاتهم واحدة بعد أخرى؛ فكان ذلك النصر الذى أحرزه المسلمون على قادة المرتدين من أمثال «طليحة الأسدى» «ومسيلمة الكذاب»«ومالك بن نويرة»؛..وغيرهم أمراً أفزع الأعداء وجعل الدولة الإسلامية مهابة الجانب فى أعين حكامهم.

وعلى الرغم من عظم الأعباء الداخلية التى حملها «أبو بكر» الصديق على كاهله؛ فإنه لم يغفل أمر نشر الدعوة الإسلامية فى البلاد المجاورة؛

فأشخص الجيوش إلى بلاد«العراق»«وفارس»؛فخاضت غمارحروب فى هذا الميدان سالت فيها ألوف الأرواح على ظبا السيوف وفتحت أبرز مدنهم أبوابها للإسلام؛فكان دخولهم إلى المدائن وغيرهامن حواضر دولة فارس،

ومثل ذلك كانت الحال فى«بلاد الشام» ؛ فقد سيره«أبو بكر» الجيوش إليها ،وإن كان المسلمون فى عهده لم يحققوا نجاحاً بها مثل الذى حققوه فى «بلاد العراق» «وفارس»، حيث إن الفتوح فى الميدان الأول بدءت قبل «بلاد الشام».

---

(١) الذهبى / تاريخ الإسلام / جـ ٣ / ١٤. يوسف على يوسف / الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدون : صـ ٣١

- أحمد الشامي : الخلفاء الراشدون / صـ ٤٢ .

وعلى كل حال؛ فإن الصديق ظـل ينتقل بالأمة من نجاح إلى نجاح، حتى وافته منيته فى ليلة الثلاثاء لثمان ليالٍ بقين من جمادى الآخر لسنة ثلاث عشرة من الهجرة [1]؛ فآل أمر الأمة «لعمر بن الخطاب» - رضى الله عنه -.

عمر يقود الدولة الإسلامية

لما أحس «أبو بكر» بدنو أجله، استدنى إليه بعض أصحاب النبى-صلي الله عليه وسلم- من أمثال «عبد الرحمن بن عوف» «وعثمان ابن عفان» وغيرهما؛ليشاورهم فى أمر من يخلفه على الأمة من بعده وعرض عليهم ما قر رأيه عليه من استخلاف«عمر»واستنصحهم الرأى فيما فعل، فكلهم أثنى على «الفاروق» خيراً؛ فلما استيقن «أبو بكر» من صواب ما فعله، كتب كتاباً عهد فيه بالخلافة من بعده إلى «عمر»- رضوان الله عليه -؛[2] فلما ووري «الصديق» القبر رقى «عمر» مراقى المنبر؛ ليلقى فى المجتمعين خطبة البيعة التى بيَّن فيها منهج حكمه .

والدارس لتاريخ الدولة الإسلامية فى عهد الفاروق، يقف على كثير من الإنجازات فى مختلف المجالات؛ ففى المجال الداخلى نراه ينظم إدارات الدولة الإسلامية تنظيماً دقيقاً، ينم عن عقلية فذة سبق بها «عمر» زمانه،

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك /جـ ٣ /٤١٩، ٤٢٠.
ابن كثير: البداية والنهاية /جـ ٧ /١٨ .
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٣ / ٤٢٨
محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية : صـ ١٨
محمد حلمى محمد / الخلافة والدولة فى العصر الأموى / ٢٣

ومكنه هذا التنظيم من محاسبة عماله حساباً دقيقاً على سياستهم فى وعهة أقاليمهم، وما حصلوه من أموال خلال مدة ولاياتهم، ولقد دقق «عمر» أيما تدقيق فى اختيار قضاته !! فكتابه فى هذا الباب إلى «أبي موسى الأشعرى» مازال موضع عناية أولئك الذين يدرسون نظام الإدارة والحكم فى الإسلام ليستلهموا منه العبرة ويستخلصوا منه النتائج.

على أن أمره للصحابة الذين قطنوا «المدينة المنورة» بعدم مغادرتها كان موضع تذمر من بعضهم، وإن حاولوا جهدهم ألا يظهروا هذا للفاروق، ولقد كشفت الأحداث التى ترتبت على مخالفة «عثمان» «لعمر» فى هذا الأمر، أن الفاروق كان على درجة كبيرة فى فهم الواقع النفسى والحياتى لسكان الأقاليم المفتوحة، حين يهاجر إليها من «المدينة» كبار الصحابة ؛ فإن عصبيات ستحدث هنا وهناك، كل منها يتعصب لشخص بعينه من صحابة رسول الله - ﷺ - (1).

وفى المجال الخارجى نرى فتوح «بلاد العراق» «وفارس» قد تمت، وحواضر «الروم» فى «بلاد الشام» قد سقطت واحدة تلو الأخرى فى أيدى المسلمين الذين ضموا «بيت المقدس» إلى دولتهم.

ولقد سر «عمر» أيما سرور عندما زار «بلاد الشام» بعد فتحها ،وتفقد أحوالها ومن ثمَّ فقد استجاب إلى «عمرو بن العاص» حين رغّبه فى فتح «مصر».

(1) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ٣٩٧

ولا نُجافى الحقيقة إذا ما قلنا: إن هذه الفتوح المترامية الأطراف ما كانت تتم للمسلمين إلا بسبب قوة إيمانهم بالله ثُمَّ القيادة الحكيمة للفاروق الذى كان يقضى معظم أيامه فى ترقب !! يتشوف أخباراً تأتيه من هذا الميدان أو ذاك ، تحمل إليه بشارة بفتح يسره، أو طلب مدد؛ فيبادر إلى تجهيزه وإعداده !!

استمر أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» يدير أمر الأمة، حتى كان ما كان من أمر «أبى لؤلؤة المجوسى » الذى طعن «الفاروق» وهو يصلى الفجر عدة طعنات بخنجر مسموم له نصلان [1].

وسواء أكان ما فعله «أبو لؤلؤة» بدافع شخصى نتيجة غضبه من أمير المؤمنين الذى لم ينصفه من سيده «المغيرة بن شعبة»[2] أم كان نتيجة مؤامرة شعوبية شارك فيها «اليهود » «والنصارى»«الفرس» .

فإن الذى لا مراء فيه، أن ما حدث «لعمر» قد هز «المدينة المنورة» حاضرة الدولة الإسلامية خاصة والدولة الإسلامية بعامة؛ لأن هذه كانت أول محاولة اغتيال حاكم فى الإسلام يتم تنفيذها .

---

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام / حـ ٣ /١٥٩ . ١٦٠ ،وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٣٣

(٢) هو ابن أبى عامر بن مسعود الثقفى أبو عبد الله من كبار الصحابة أولى الشجاعة والمكيدة والدهاء أسلم عام الخندق وقدم مهاجراً وشهد «الحديبية» وبيعة الرضوان شهد حرب «اليمامة» وفتح «الشام» ووقعة «اليرموك» ولاه عمر «البصرة» بعد وفاة «عتبة بن غزوان» ثم عزله وولاه «الكوفة» .
شهد «القادسية» «وهمذان» «وأذربيجان» وكان ممن اعتزل النزاع بين «على» «ومعاوية» ولاه «معاوية» «الكوفة» وظل فيها إلى أن مات .
- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ / ١٣١ .
ابن الأثير : أسد الغابة / جـ ٤ / ٤٠٦

ولما حُمل أمير المؤمنين لمنزله وجراحه تشخب دماً [1]؛فإنه لم ينس للحظة واحدة التفكير فيما يصلح أمر الأمة من بعده، وحتى ينأى بنفسه عن تحمل تبعة اختيار شخص بعينه يخلفه على أمة محمد فإنه ؛ جعل ذلك محصوراً فى جماعة بشرهم الله بالجنة على لسان حبيبه محمد - ﷺ - ؛ فَميزُوا بذلك عن الصحابة الآخرين ؛ ليختاروا من بينهم رجلاً يلى أمر الأمة واستبعد منهم «سعيد بن زيد»[2] لقرابته به، وأبى إشراك «عبد الله بن عمر» فى الأمر، قائلاً لمن عرض عليه ذلك:«قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته..؟».

لا أرب لنا فى أموركم، فما حمدناها؛فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فقد صرف عنا، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد، لقد جهدت نفسى، وحرمت أهلى، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إنى لسعيد، وانظر فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى وإن أترك فقد ترك من هو خير منى، ولن يضيع الله دينه [3] .

وعلى كل حال، فإن تلك الجراحات، أدت إلى وفاة «عمر بن الخطاب» يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقيل: طعن يوم

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ١٩٠ /١٦١

(٢) ابن عمرو بن نفيل العدوى أبو الأعور أرسله الرسول للتجسس على قوم فى غزوة «بدر» قبل نشوبها فلم يشهد قتالها بسبب ذلك وأسلم قبل «عمر بن الخطاب» وتزوج بأخته وتوفى «بالعقيق» سنة (٥٠) ودفن «بالمدينة» وكان عمره بضعاً وسبعين سنة .
ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ٤ /٣٤

(٣) الطبرى تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ٢٢٨

الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة ودفن يوم الأحد هلال محرم سنة أربع وعشرين [1]؛ لتستقبل الأمة الخليفة الثالث لرسول الله «عثمان بن عفان» .

« عثمان بن عفان يقود الدولة الإسلامية »

بعد أن ووري «عمر بن الخطاب» - رضوان الله عليه - في قبره، اجتمع أصحاب الشورى في بيت المال، وقيل: عند «المسور بن مخرمة»[2]، وبعد حوار دار بينهم ، فوض المجتمعون «عبد الرحمن بن عوف» بعد ما خلع نفسه منها ليختار خليفة من بينهم على أمة النبي محمد - ﷺ - فأنشأ يشاور كبار الصحابة «بالمدينة»، حتى وجدوا السواد الأعظم منهم يميل إلى استخلاف «عثمان»؛ فتوجه إلى مسجد الرسول؛ فأعلن المجتمعين اختيار «عثمان» خليفة على المسلمين؛ فأقبل الناس أفواجاً على «ذى النورين » يبايعونه فى المسجد .

ولقد كانت خلافة «عثمان» خلافة رخاء، فتحت فيها بلاد وسيرت فيها جيوش، وجمع فيها القرآن فى مصحف واحد، ووزعه على الأمصار ليقضى به على اختلافات أهلها فى قراءتهم له، حيث كان منهم من يقرؤه على حرف من الأحرف السبعة دون غيره ؛ مما كان سيؤدى إلى نشوب فتن بين أهل الأمصار ؛ بل بين أهل المصر الواحد!!

---

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ١٩٣
- ابن الأثير / الكامل / جـ ٣ / ٥٢

(٢) ولد بعد الهجرة بسنتين، وصل «المدينة» بعد فتح «مكة» وهو يبلغ من العمر ست سنين، روى عن الصحابة أحاديث عن رسول الله توفى سنة أربع وستين على الراجح فى حصار «الحصين بن نمير» «لابن الزبير» عند الكعبة بعد إصابته بحجر منجنيق.
العسقلانى : الإصابة / جـ ٣ /٤١٩

ومن ثم كان أمر «عثمان» بجمع القرآن .

ولأن الخليفة كان ليّن الجانب، يفيض عطاؤه على الدانى والقاصى، يستوى عنده من تربطه به وشائج قرابة وغيرهم ! فإن تلك السياسة أطمعت فيه المغرضين الذين دخلوا الإسلام فى الظاهر وأضمروا له الحقد فى الباطن من أمثال «ابن سبأ» ومن دار فى فلكه؛ فراحوا يقلبون الأمصار على الخليفة متهمين إياه بمحاباة الأقارب والإتيان بأعمال تخالف تلك التى عملها رسول الله - ﷺ -، مثل تركه القصر فى الصلاة عند السفر، وأمره بحماية الحمى[1]، وقد كان مباحاً قبله للناس كافة واتهموه بأنه استعمل غلماناً أحداثاً مع وجود أصحابه، وهم أسن منه، وعلى درجة عالية من الكفاءة فى الحكم والإدارة ، ... وغيرها من التهم؛ فرأى «عثمان» أن يجمع وفود المصريين والكوفين الذين أمّوا «المدينة المنورة»؛ ليردوا على تلك الاتهامات التى اتهموه بها، فجاء رده مفحماً لهم، وكاشفاً زيف الادعاءات التى روج لها المعارضون ضد حكم الخليفة - رضوان الله عليه - [2] .

وعلى الرغم من ذلك، فإن دعاة الثورة قد استطاعوا حشد الناس من الأمصار والذهاب إلى«المدينة» والتحلق بيت «عثمان» وحالوا بينه وبين

---

(١) اليعقوبى / تاريخه /جـ ٢ /١٦٤/ المقريزى / النزاع والتخاصم / ٤٤، ٤٦
ابن البر / الاستيعاب / جـ ٣ / ١٣٦

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ٣٤٦ ـ ٣٤٨
د / محسن سعد عبد الله ، نور اليقين فى تاريخ الراشدين - الجزء الأول - الخلافة والبيعة : ص ١٦٦ ، ٢١٧

الطعام والشراب[1] ومنعوا «أم حبيبة بنت أبى سفيان»[2] من الدخول عليه وظلوا به حتى قتلوه وهو يقرأ القرآن !! فكان ثانى خليفة مسلم يقتل على أيدى أعداء الإسلام، ولقد ارتجت «المدينة المنورة» لمقتل الخليفة !! فراح أهلها يجلسون فى مجالسهم، وقد تملكهم الخوف من الثوار الذين نبذوا حميد الفعال ؛ وبحثوا عن كل مذموم يسئ إلى الصحابة - رضوان الله عليهم - ليفعلوه ؛ فراحوا يلاحقون «عليا» و «طلحة» و «الزبير» حتى يُكرهوا أحدهم على قبول الخلافة .

وتقول بعض الروايات : إن الثوار حالوا بين «عثمان» ومواراته القبر أياماً على حد قول بعض الروايات إلى أن تمكن بعض الصحابة من دفنه [3] - رضوان الله عليه - .

ولا مراء فى أن حادثة قتل «عثمان» تعد حداً فاصلاً فى تاريخ «المدينة» خاصة، والدولة الإسلامية عامة، يتبين لنا ذلك جلياً حين نُلمِع إلى خلافة «علي» - رضوان الله عليه- .

(١) ابن الأثير/الكامل / جـ ٣/ ١٦٢- محمود شاكر/الخلفاء الراشدون/جـ ٣/ ١٦٢

(٢) رملة بنت أبى سفيان بن حرب بن أمية الأموى زوج النبى - ﷺ - أسلمت قديماً وهاجرت إلى «الحبشة» مع زوجها «عبد الله بن جحش» ومات فتزوجها رسول الله واختلف فى تاريخ وفاتها؛فقيل:سنة اثنتين وأربعين، أو أربع وأربعين أو تسع وخمسين.

ابن حجر : تهذيب التهذيب : جـ ٢ / ٤١٩

(٣) ابن الأثير : الكامل/ جـ ٣ / ١٨٠ .. الذهبى/ تاريخ الإسلام / جـ ٣/ ٢٧٠

من الطبعى أن تكون الظروف التى لابست بيعة الإمام كرم الله وجهه مختلفة عن تلك التى تمت فيها بيعة أسلافه من الخلفاء، ذلك أن البيعة بالخلافة لهم قد تمت والمدينون ليسوا مجبرين على الإسراع فى عقدها.

أمام البيعة «لعلي»، فإنه وجد نفسه مجبراً على قبولها؛ حقناً لدماء المسلمين ؛ لأنه إن لم يقبلها، سوف يطيل أمد مكث الثوار فى مدينة رسول الله، وهذا فيه ما فيه من التضييق على سكانها، فضلاً عن ترويعهم، فلقد شغل الحدث الجلل الذى وقع على أرضهم، والذى قتل فيه خليفة المسلمين المدنيين عن القيام بأشغالهم، وممارسة حياتهم اليومية؛ لذلك فإنه لم يكن أمامهم ولا أمام «علىّ» متسعٌ من الوقت لإتمام البيعة بالشكل الذى تمت فيه للخلفاء الثلاثة السابقين عليه [1] .

ولقد حوت المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامى روايات متباينة حول ما كان من أمر الثوار فى «المدينة» بعد قتلهم «عثمان» ، وما كان من أمر مَوْقف بعض كبار الصحابة المدنيين من هذه الأحداث.

ولما كان المقام لا يتسع[2] لعرض جميع الروايات التى تحت أيدينا فإننا نكتفى منها بروايتين اثنتين، تصوران لنا مدى الاضطراب والفزع الذى

---

(١) الطبرى تاريخ الرسل والملوك /جـ٤ / ٤٢٧.:

الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة / جـ ٣ / ٥٢٧

(٢) تناول المؤلف بالتفصيل الظروف التى لابثت بيعة «علي»، والروايات التى جاءت فى المصادر بشأنها، وبين الراجع والمرجوح منها فى كتابه نور اليقين فى تاريخ الراشدين . الجزء الأول - الخلافة والبيعة : من صـ ١٩٠ :٢٠٢

ألمَّ بالمدنيين بعد قتل الثوار «عثمان بن عفان»، ومدى الحاجة الماسة للإسراع في البيعة لخليفة يلي أمر المسلمين.

فيذكر «طلحة بن الأعلم » و «أبو حارثة » و «أبو عثمان» قالوا:

«بقيت المدينة بعد قتل «عثمان» - رضى الله عنه - خمسة أيام، وأميرها «الغافقى بن حرب» يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه؛ يأتى المصريون «علياً» فيختبئ منهم، ويلوذ بحيطان المدينة، فإذا لقوه باعدهم، وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة، ويطلب الكوفيون «الزبير» فلا يجدونه، فأرسلوا إليه حيث هو رسلاً؛ فباعدهم وتبرأ من مقالتهم، ويطلب البصريون «طلحة»؛فإذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة، وكانوا مجتمعين على قتل «عثمان» مختلفين فيمن يولون؛ فلماً لم يجدوا ممالئاً ولا مجيباً جمعهم الشر على أول من أجابهم وقالوا : ـ

« إنّك من أهل الشورى؛ فرأينا فيك مجتمع؛ فاقدم نبايعك فبعث إليهم يقول :إنى «وابن عمر» خرجنا منها، فلا حاجة لى فيها على حال، ثم لما أتو «عبد الله» قالوا : ـ أ أنت «ابن عمر»؟ فقم بهذا الأمر، فقال : إن لهذا الأمر انتقاماً ، والله لا أتعرض له؛ فالتمسوا غيرى؛ فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم[1].

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ٤٣٢ .
ابن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى أسلم قديماً وهو صغير، هاجر فى العاشرة من عمره قيل شهد بدر ثم الخندق ثم بيعة الرضوان شهد له النبى بالصلاح واثنى على علمه وحياته أهل العلم من الصحابة والتابعين، اختلف فى تاريخ وفاته فقيل : سنة ثلاث وسبعين للهجرة ، أوالتى بعدها ، والله أعلم.
ابن حجر ـ تهذيب التهذيب جـ ٥ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ١ / ٨١

أما الرواية الثانية منسوبة إلى «محمد بن الحنفية» وفيها أنه قال :-

«كنت مع أبى حين قتل «عثمان» - رضى الله عنه -، فقام فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : إن هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله ﷺ ؛ فقال : لا تفعلوا فأن أكون وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففى المسجد، فإن بيعتى لا تكون خفياً ولا إلا عن رضا المسلمين(١)

وعلى كل حال فإن البيعة التى تمت «لعلي» لم تكن بالإجماع مثل بيعة الراشدين السابقين عليه،وأن الصحابة الذين لم يبايعوه مثل «طلحة» و«الزبير» وغيرهما لم يكونوا من الكثرة بحيث نقول إن البيعة تمت «لعلي» بأغلبية ضئيلة؛ فعدد الذين امتنعوا عن بيعته لم يجاوز أصابع اليدين إلا بقليل.

لم تصف سماء الدولة الإسلامية «لعلى »منذ جلس فى دست الخلافة؛ فإن «معاوية» - رضوان الله تعالى عليه -ومن معه من أهل الشام والصحابة الذين خرجوا إلى«البصرة» ومعهم «عائشة» فى معركة الجمل، حملوا راية المعارضة فى وجه أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» مما حال بين الإمام وبين النهوض بالدولة لإظهار براعته الإدارية والقيام بمزيد من الفتوحات الإسلامية؛فى البلاد المجاورة ، وحتى العمال الذين اختارهم، وأشخصهم لأقاليم الدولة الإسلامية ؛ ليديروا أمورها، منهم من استطاع الوصول إلى مصره، ومنهم من حال أصحاب المعارضة بينه وبين الوصول إلى

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ /٤٢٧

حاضرة الإقليم لحكمه[1]، وظل «علي» منذ بويع أربعة أشهر يحاول تدبير الأمور وجمع الشمل دون إراقة دماء ؛ فأرسل إلى «معاوية» ثلاث رسائل يدعوه فيها إلى الطاعة والانضمام إلى الجماعة، فما تلقى الإمام منه جواباً يرضيه وبدا له أنه لا مناص من مجابهة «معاوية» وأهل «الشام» المطالبين بوتر «عثمان» ليحكم فيهم الحسام حيث إنهم لم يمهلوه كما طلب لبعض الوقت ليتثبت من قتلة «عثمان» ؛ فيقتص[2] منهم، ولكن لم يكن من المتصور أن يقبل «على» بقاء «الشام» خارج حكمه، وأن تفتت الدولة الإسلامية الموحدة فى عهده.

ومن ثَمّ فقد عقد الخناصر على الخروج بقواته من «المدينة المنورة» لقتال الشاميين، وإعادتهم للطاعة ؛فأمر مؤذنه أن يؤذن فى المدنيين بالاستعداد للخروج إلى «بلادالشام» لحرب «معاوية» ومن دار فى فلكه؛ فكان منهم من خف إليه ومنهم من تثاقل عن الخروج معه،

ولما كان هذا الأمر من الأهمية بمكان بالنسبة لبحثنا، لأنه يكشف لنا النقاب عن موقف المدنيين من الدولة الأموية، ولو فى بواكير أيام خليفتها الأول «معاوية» ؛ فلسوف نلمع بشئ من التفصيل إلى موقف المدنين من الخروج مع «على» من حاضرة الدولة الإسلامية لقتال الخارجين على الطاعة.

حرص أمير المؤمنين أن يضم جيشه أكبر عدد من أعلام الصحابة «المقيمين» «بالمدينة» ممن يتمتعون بحب الناس لهم؛ فأرسل إلى «عبد الله

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ٥٣٥ : ٥٣٨

(٢) الإمامة والسياسة المنسوبة لأبن قتيبه/ جـ١ /٥٣

ابن الأثير: الكامل / جـ ٣ / ٢٠٥

بن عمر» ؛ فلما جاءه طلب منه الخروج معه لقتال من نبذوا الطاعة، وخرجوا عن الجماعة، فقال«عبد الله»: إنما أنا من أهل«المدينة» وقد دخلوا في هذا الأمر، فدخلت معهم؛ فإن يخرجوا أخرج معهم، وإن يقعدوا أقعد، قال : فاعطني كفيلاً. قال: لا أفعل. فقال «علي»: لولاما أعرف من سوء خلقك صغيراً وكبيراً لأنكرتني ، دعوه ؛ فأنا كفيلة .

فرجع «ابن عمر»، وأهل «المدينة» يقولون: والله ما ندرى كيف نصنع؟! إن الأمر لمشتبهٌ علينا، ونحن مقيمون حتى يضئ لنا.

فخرج من تحت ليلته وأخبر «أم كلثوم» ابنة «علي» وهى زوجة «عمر ابن الخطاب» بالذى سمع وأنه يخرج معتمراً مقيماً على طاعة«علي»ما خلا النهوض فأصبح «علي»؛ فقيل له : حدث الليلة حدث هو أشد من «طلحة» و«الزبير» و «عائشة» «ومعاوية»!! قال : ماذاك؟ قالوا: خرج «ابن عمر» إلى «الشام »!! فأتى«على» السوق، وأعد الظهر والرجال وأخذ كل طريق طلاباً وماج الناس فسمعت «أم كلثوم » فأتت «علياً » فأخبرته الخبر فطابت نفسه،وقال: انصرفوا ،والله ما كذب،والله إنه عندى ثقة فانصرفوا[1]

أما «الحسن بن علي»؛ فإنه أتى أباه وهو يتجهز للخروج ، فقال له: يا أبت ، دع هذا ؛ فإنه فيه سفك دماء المسلمين ، ووقوع الاختلاف بينهم ، فلم يقبل ذلك)[2]

---

(١) ابن الأثير : الكامل / جـ٣ / ٢٠٥-٢٠٦ - إبراهيم الإبيارى : معاوية الرجل الذى أنشأ دولة /١٧٩ :١٨٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية / جـ ٧ / ٢٢٩

وإذا كان «عبد الله بن عمر» و «الحسين بن علي» قد وقفا هذا الموقف من خروج الإمام؛ فإن غيرهما من المدنيين قد شدوا من أزره وراحوا يعملون معه فى همة ونشاط لجعل الناس فى «المدينة» ينخرطون فى جيشه.

فهذا هو «زياد بن حنظلة »[1] يقول «لعلي» : « من تثاقل معك فإنا نخف معك فنقاتل دونك » .

وها هوذا «أبو قتاده الأنصارى»[2] يلقى أمير المؤمنين فيقول له: (إن رسول الله - ﷺ - قلدنى هذا السيف وقد أغمدته زمانا، وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشاً وقد أحببت أن تقدمنى، نقدمنى)[3].

وعلى كل حال؛ فإن «علياً» تمكن من حشد ما بين سبعمائة إلى تسعمائة رجل[4] من رجالات «المدينة» ليقاتل بهم أهل الشام، غير أنه حين علم بخروج أصحاب الجمل إلى «البصرة» ولى وجهه شطرهم، وفضل إرجاء حسم أمر بلاد الشام ريثما ينتهى من أصحاب الجمل.

(١) التميمي : أرسله النبى محمد إلى الزبرقان بدر وكان أميراً فى وقعة «اليرموك» أنشد الشعر وشهد المعارك مع علي ضد الخارجين عليه.
العسقلانى : الإصابة / جـ ١ / ٥٥٧

(٢) الحارث بن ربعى فارس رسول الله - ﷺ - شهد«أحد» والمشاهد توفى سنة أربع وخمسين،/ ابن العماد الحنبلى/ شذرات الذهب/ جـ١/٥٩/ الذهبى:العبر/ جـ ١ /٤٣

(٣) النويرى : نهاية الأرب / جـ ٢٠ /٤١، ٤٢

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ٤ /٤٥٥
الإمامه والسياسة : المنسوب لابن قتيبه / جـ١ /٥٣

ولسنا هنا بصدد استقصاء موقف «على» من الفريقين «بالعراق» و«الشام» بشكل تفصيلى؛ لأن الذى يعيننا هنا إنما هو بيان دقائق العلاقات بين ولاة المدينة والخلافة الأموية، غير أن خروج «على» منها لم يكن بالأمر العارض الذى نمر عليه مروراً عابراً دون الوقوف أمامه وقفة متأنية؛ فقد كان خروجه منها خروجاً بلا عودة إليها؛ لأنه قد نقل «المدينة» من كونها حاضرة للدولة الإسلامية لتصبح مصراً من أمصارها تحكم من منطقة أخرى فى الدولة الإسلامية وغدت محكومة بعدما كانت حاكمة.

صحيح أن مكانتها الدينية كانت وما تزال وستبقى راقية لدى المسلمين تهفوا إليها أفئدتهم لوجود القبر الشريف بها.

إلا أن دورها السياسى قد تغير وتبدل، كما ستكشف عنه النقاب الصفحات التالية من كتابنا.

ولقد أدرك الصحابى الجليل «عبد الله بن سلام»(١) تلك الحقيقة، فلما علم بخروج أمير المؤمنين - كرم الله وجهه - بجيشه من «المدينة» يريد أصحاب الجمل، أمسك بعنان دابته وقال «لعلي»:يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها؛ فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها،ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً؛ فسبوه ؛ فقال:دعوا الرجل؛فنعم الرجل من أصحاب محمد-ﷺ- (٢)

---

(١)ابن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف حليف بنو عوف بن الخزرج أسلم عند قدوم النبى ﷺ «المدينة» وكان اسمه الحصين قبل الإسلام ولكن سماه النبى«عبد الله» وشهد له بالجنة وشهد مع «عمر» فتح «بيت المقدس»، والجاليه، وشهد «الخندق» - والله أعلم - توفى «بالمدينة» سنة ثلاث وأربعين من الهجرة .

- الذهبى : العبر / جـ ١ / ٣٧ - ابن حجر : تهذيب التهذيب / جـ ٥ / ٢٤٩

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٤ / ٤٥٥ - النويرى :نهاية الأرب /جـ٢٠/صـ٤٢

وهذا ما وقع ؛ فقد راح «علي» يحاول رأب الصدع تلو الآخر، متمنياً العودة إلى مقر خلافته ؛ ليدبر أمرها، وقد صفت سماء الدولة له !! غير أنه ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ؛ فظل بعيداً عنها حتى وافته المنية.ليلقى ربه راضياً مرضياً!!

وتودع «المدينة» دور العاصمة للخلافة وتصبح ولاية أو إمارة يرسل إليها من دار الخلافة من يتولى أمرها.

ولقد بدأت المرحلة الأولى لهذا التغير فى عهد الإمام«علي»حين تركها وولى عليها من يدبر أمرها فى غيابه عنها.

ولناأن نتسائل قبل المضى قدماً فى التأريخ لولاة «علي»«بالمدينة»، هل أدت«المدينة» دورها كعاصمة للدولة الإسلامية كاملاً مثلما أدته وتؤديه عواصم الدول؟

وللجواب عن ذلك نقول: إن هذه القضية موضع خلاف بين الباحثين فمنهم من قال: إنها عجزت عن الوفاء بهذا الدور بعد اتساع الفتوحات فى عهد الراشدين نظراً لأنها لم تحتل موقعاً وسطاً بين أمصار الدولة الإسلامية، فهى تجعل مهمة من يدبر أمر الدولة جد عسيرة، إذا ما أراد إشخاص الرسائل أو أراد ولاته مشاورته فى العاجل من الأمور، أو إرسال الإمدادات العسكرية إلى الميادين الحربية لدرء خطر يتهدد البلاد المفتوحة[1].

وقد انبرى أحد المؤرخين المحدثين للرد على تلك المقولة، فذكر أسباباً

(١) عمر فاروق السيد رجب ـ المدينة المنورة / ٣٦ ، ٣٧

فند بها تلك المقولة ؛ فبين أن «المدينة» لم تكن في يوم عاجزة عن النهوض بوظيفة العاصمة وهذه الأسباب نوضحها فيما يلي :

أولاً - (إن انتقال الخلافة من«المدينة»في عهد الإمام «علي» ، وفي عهد «معاوية» ليس له علاقة بمركز«المدينة» السياسي العسكري من حيث الأهداف العامة للأمة الإسلامية ؛ فقد ذهب الإمام «عليّ» إلى «الكوفة»،وليس هدفه اتخاذها عاصمة مفضلة على «المدينة»، وإنما ذهب إلى «الكوفة» لمحاورة الصحابة الذين قادتهم السيدة «عائشة» بهدف ملاحقة قتلة «عثمان بن عفان» ثم كانت معركة الجمل واضطر الإمام «علي» إلى البقاء في «العراق»؛ ليكون قريباً من حدود «بلاد الشام» التي يتولى أمرها «معاوية بن أبي سفيان»، ثم كانت «معركة صفين»،وتبعها ظهور حركة الخوارج التي شغلت الإمام «علي» السنوات التالية.

وأما «معاوية بن أبي سفيان» ؛ فقد اختار«دمشق» عاصمة ؛ لأنه كان «أمير الشام» وكانت «دمشق» عاصمته، ومركزه، وفي «الشام» رجال «معاوية»، وأتباع بني أمية. أما «الحجاز»: ففيه خصوم «معاوية» ومنافسوه على الخلافة؛ فاختار «دمشق» عاصمة، لذلك وبهذا نعرف أن الانتقال إلى «الكوفة» أولاً، واتخاذ «دمشق» عاصمة ثانياً، لم يكن يخص الدولة الإسلامية.

ثانياً - في العهد النبوي، كانت «المدينة» منطلق الغزوات والسرايات إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف،وفي عهد «أبي بكر»، انطلقت منها الجيوش التي قضت على المرتدين ، ثم تابعته

سيرها نحو «العراق» و «الشام»، وفى العهد العمرى كان فتح «الشام» و«بلاد العجم» و «مصر» وكان البريد متصلاً بين العاصمة وجيوش الفتح ،

ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن العهدين النبوى والراشدى، شهدا عصر الدولة الإسلامية الذهبى ! فكيف تؤدى عاصمة هذه الوظائف وتكون غير مناسبة لأن تكون عاصمة دائمة ؟

ثالثاً ـ للمدينة مركز اقتصادى جيد؛ لأنها أرض زراعية، وتمر بها طرق التجارة، والبحر الأحمر ليس بعيداً عنها.

رابعاً ـ لا يشترط فى العاصمة أن تكون متوسطة بين أقاليم البلاد؛ لأن النظام الإسلامى لا يقوم على المركزية المطلقة ؛ فتعاليم الإسلام فى القرآن والحديث النبوى واضحة، ويستطيع أهل كل إقليم استنباط هذه الأحكام، والعمل بها، وجيوش الفتح تقوم على مبدأ الجهاد الذى أقره القرآن والحديث، ومهمة الخليفة أن يقدم النصائح المستوحاة من القرآن والحديث، والرجوع إلى الخليفة إنما يكون فى المهمات العظمى، وكانت تنطلق جيوش الفتح من الأقاليم البعيدة، وتؤدى مهمتها بنجاح؛ وإذا نظرنا إلى عواصم الدول المترامية الأطراف فى القديم والحديث؛ فإننا نجد كثيراً منها فى طرف من هذه الدول، وانظر مثالاً لذلك: «واشنطن»، ومثلها الكثير من عواصم الدول الجديدة التى وضعت حدودها فى العصر الحديث.

خامساً ـ إن الدول الإسلامية لم تكن أكثر قوة، عندما انتقلت عاصمتها إلى «الكوفة» أو«دمشق»، أو«بغداد»، وهيبتها أخذت فى التناقص

بعد أن ترك الخلفاء العاصمة النبوية التى دعا لها الرسول الأمين أن يبارك الله فى صاعها ومدها ويشمل ذلك كل عدة دنيوية؛ فالتحول من مكان بارك الله فيه ... يعد من أسباب الضعف .

سادساً ـ ومن خصائص المدينة النبوية، باعتبارها عاصمة للدولة، أن الخليفة تهيأ له التقاء وفود المسلمين من كل بقاع الدولة، فيتعرف على أحوالهم، ويعرف منهم أخبار الدولة، وذلك فى موسم الحج السنوى، لما جرت عليه العادة أو السنة، أن يزور «الحجاج» المسجد النبوى، للصلاة فيه، والسلام على رسول الله - ﷺ -(1).

وتطمئن النفس إلى الأخذ بهذه الأسباب التى دفع بها الباحث قول من تشكك فى قيام المدينة بدور العاصمة أكمل قيام.

بيد أننا لا نوافقه فيما ذهب إليه من أن ولاة الأمصار لا يحتاجون إلى الخليفة فى حكم أقاليمهم فى حل ما يشجر من خلاف بين رعيتهم، وما يواجههم من أمور اعتماداً على ما جاء فى كتاب الله وسنة حبيبه الذى اصطفاه؛لأن هذا وإن صح فى أحايين كثيرة؛ فإنه لا يصح التعويل عليه فى إطلاق يد الولاة فى الاقاليم من نواحى أخرى، فإن مستجدات عاجل الأحداث قد تتطلب قراراً حاسماً لم يأتِ القرآن على ذكره ولم يبينه الحديث النبوى ومن ثم يحتاج إلى الاجتهاد، وهو كما نعلم مصدر شرعى فى مالا نص فيه، وعليه فإن الوالى يحتاج إلى اللجوء لخليفة، حتى يعمل برأيه، فى معضلات الأمور، التى لا نص فيها، ولو كان ذلك كذلك كما ذكر الكاتب، ما كان «عمر بن الخطاب» يتابع ولاته فى أمصارهم المتابعة

(1) محمد حسن شراب / المدينة النبوية / جـ1 /96 : 98.

الدقيقة؛ فبعث فى استدعائهم إلى«المدينة المنورة»، إذا ما بلغه عن أحدهم ما يشين ولايته، ويغضب رعيته، هذا من جانب،

ومن جانب آخر، فإن تمكن الرسول والخلفاء الراشدين من بعده من إدارة دفة الأمور، وسرعة الإتصال بولاتهم، وإرسال جيوشهم، لهو خير دليل على قيام«المدينة»بدورها الإدارى مع نظامى المركزية واللامركزية. ونضيف إلى ما ذكره الباحث الكبير، أن الرسول حين اختار«المدينة» عاصمة لدولته، كان اختياره بأمر من الله، فإنه ما ينطق عن الهوى، ولا يقال إنه لم يكن أمام الرسول بعد الهجرة سوى «المدينة»، لينطلق منها فى إنشاء الدولة الإسلامية، وأنه أبقى على دورها هذا بعد انتشار الإسلام، ودخول القبائل فيه حتى لا يترك الأنصار وهم الذين ضحوا بالنفيس والرخيص فى سبيل إنشاء الدولة، وبفضل الله ثم جهودهم وجهادهم كان ما كان من نشر الإسلام.

لأن هذا القول لا يستقيم مع الحرص الشديد من رسول الله - ﷺ - على صالح أمته.

ولعليّ أصيب كبد الحقيقة إذا ما قلت : إن «المدينة» فاقت غيرها من الحواضر المجاورة لها بأمور منها : .

(١) إن العاصمة مقر حكم تؤمها وفود إسلامية وغير إسلامية،وهذا ما كان ليتأتى لحاضرة مثل«مكة»فقد حرم الله دخولها على المشركين.

(٢) إن «المدينة» تستطيع الاعتماد على ذاتها وقتاً ليس بالقليل، لأن منها الأقوات، والمياه التى تجعل سكانها لا يحنون الرؤوس أمام

المتربصين لهم، فلا يجدى نفعاً منع الإمدادات الغذائية وغيرها عنهم من متطلبات الحياة اليومية للجماعات أو الأفراد، وآية ذلك أن جماعات «الأوس» و «الخزرج» حين أقبلت على النبى محمد مبايعة إياه بيعات العقبة الثلاث لم يبالوا «بقريش» وقوة سلطانها، ولم يقيموا وزناً لليهود بمالهم من مال وجاه مع مجاورتهم لهم.

ولا سبب نعزوا إليه هذا الإقدام سوى أنّ هؤلاء يملكون أسباب معيشتهم.

ومن ثمّ فكروا دون ضغط عليهم، فرأوا أن الخير فيما دعاهم إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

(٣) أننا لو قارنا بين «المدينة» من ناحية و«مكة» و«الطائف» من ناحية أخرى، وهما مدينتان قريبتان منها ،لوجدنا أن الأولى أكثر من الأخيرتين مناعة إذا ما داهمها مداهم ؛ فإن طرائق الدفاع عن المدينة معلومة ومحددة لساكنيها.

وأحداث التاريخ ناطقة بصحة ما ذهبنا إليه؛ فما يوم الأحزاب باليوم الذى ينسى، وما رد«أبى بكر» للمرتدين على أعقابهم حين هاجموا«المدينة»،ولم يكن معه سوى عدد يسير من جيشه، لوجود الجيش مع «أسامة بن زيد» بالأمر الذى يغيب عن ذهننا.

ومهمايكن من أمر؛ فإن الواقع الجديد «للمدينة المنورة» بعدما تركها، على ترتب عليه أن أصبحت إمارة أو ولاية يحكمها من يسيرهم الخلفاء إليها.

ولاة عليّ على المدينة

بادئ ذي بدء نقول: إن «علياً بن أبى طالب» لم يكن أول من استخلف على «المدينة» من يتولى أمرها خلال فترة غيابه عنها؛ فإن النبى محمد - ﷺ - كان قد استخلف على «المدينة» كلما خرج منها لجهاد أو لأمر آخر.. «فعليّ» فى ذلك متّبع لسنة سنها رسول الله - ﷺ - ومن الرجال الذين ولاهم النبى محمد على «المدينة»: «عبد الله بن أم مكتوم »[1]؛ فقد استخلفه رسول الله على «المدينة» ثلاث عشرة مرة، وأمره الصلاة بالناس، ومنهم: «محمد بن مسلمة الأنصارى»[2] فى «غزوة تبوك»، «وسباع بن عرفطة الغفارى» عندما توجه النبى إلى «خيبر» و «جعال بن سراقة الضمرى» فى «غزوة بنى المصطلق» .

والجدير بالذكر هنا أن هؤلاء- فيما يبدو لنا-لم يكونوا ولاة بالمعنى

---

(١) عبد الله بن قيس بن زائدة بن اللاحمة بن رواحة القرشي العامري، أطلق أهل العراق عليه اسم «عمرو» وكان من بين مؤذني رسول الله -ﷺ - ، هاجر بعد واقعة «بدر» .

نزلت فيه وبسببه أكثر من آية في كتاب الله ، توفي شهيداً في «موقعة القادسية» في شوال ١٥ هـ .

- الذهبي / سير أعلام النبلاء / جـ ١/ ٣٦٠ / ٣٦٥ .

(٢) ابن سلمة بن حريش بن خالد بن عدي من فخافة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الحارثي أبو عبد الله .

روي ستة أحاديث عن رسول الله ، اعتزل الفتنة بين «علي» ومناوئيه في «الجمل» ثم «صفين»، اختلف في تاريخ وفاته ما بين ٤٢ : ٤٧هـ، ومات مقتولاً عن عمر يبلغ سبعاً وسبعين سنة .

ابن حجر : تهذيب التهذيب / جـ ٥ / ٤٠٤ / ٤٥٥ .

المتعارف عليه لدى المشتغلين بالدراسات التاريخية، ونظم الحكم؛ ففرق بينهم وبين الولاة الذين جاءوا بعدهم فى حكم الأقاليم؛ لأن النبى حين ولاهم حدد لهم المهمة التى يقومون بها من ناحية،

ومن ناحية أخرى؛ فإن صلاحيات ولايتهم وزمانها كانت تنتهى بقدوم الرسول -ﷺ- إلى«المدينة»، وكذلك كانت حالة الولاة الذين ولاهم «عليّ بن أبى طالب» على «المدينة»، لأنه لم يصرح عند مغادرته لها أنه استبدل منطقة أخرى بها، بل كان لسان حاله يُنبئ عن اعتزامه العودة إليها كما أسلفنا الحديث.

ولم يكن اختيار«علي»لولاته فى هذا الظرف الدقيق الذى تمر به الدولة الإسلامية اختياراً خالياً من أسس قام عليها ؛ فإن من يستقرئ تاريخ الولاة الذين ولاهم الإمام «عليّ» على«المدينة»يجد أن منهم من كان يحظي بحب الناس له مثل «أبي أيوب الأنصاري» من كانت تربطه به وشائج قربى مثل «قثم بن العباس» ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أن «علياً» يريد ضبط الأمور«بالمدينة»خلال فترة غيابه عنها بشكل يرضى المدنيين من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يكون الرجل الذى ولاه عينا له لا في«المدينة» وحدها بل فى المناطق التى تجاورها، فيبادر إلى إعلامه بسكنات وحركات المتربصين به،حتى يحسب لكل أمر حسابه،ويستعد له بالإستعداد الذى يستحقه.

يتبين لنا هذا جلياً، إذا ما ألقينا الضوء على أبرز معالم حياة هؤلاء الولاة، الذين قلدهم «علي» أمر «المدينة المنورة»، والمتتبع للمصادر التاريخية يجد أنها قد اختلفت حول أول من ولاه «علي» على «المدينة»

عندما أراد الخروج منها؛ فمن قائل: إنه ولاها، «لسهل بن حنيف» (١) ومنهم من قال: إنه ولاها، «قثم بن العباس» (٢).

وإذا أمعنا النظر فى الروايتين السابقتين، وجدنا القول الأخير أقرب إلى القبول من غيره؛ حيث إن جل مصادر التاريخ الإسلامى قد قالت به باستثناء القليل منها، وهو الذى قال بالرأى الأول.

ومما يدعم رأينا، أن الرواة الذين ذكروا ولاية «قثم» على «المدينة» لأول مرة فى عهد «علي» اعتمدوا على رجال عاصروا الحدث أو سمعوه ممن عاصروه.

ومن ثم فإننا نأخذ بالرأى الثانى ؛ فنقول: إن الوالي هو ابن عم النبى، وأخو «الفضل بن العباس» وإن أمه «لبابة بنت الحارث الهلالية» ثانى امرأة دخلت الإسلام بعد «خديجة بنت خويلد» - رضوان الله عليهما-، ولقد شارك «قثم» « الحسين بن علي» فى الرضاعة .

ويقول الرواة : إن «قثم» أقرب الرجال شبهاً بالنبى محمد الذى كان يحبه ويردفه خلفه، ويذكرون عنه كذلك أنه شهد تجهيز رسول الله ؛ فكان آخر رجل يخرج من لحد النبى محمد - ﷺ - (٣) .

ويلوح لنا أن «قثم» أظهر كفاءة فى إدارته للأمور «بالمدينة»، وإن

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط/ ١٨٠، ١٨١

النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٠/ ٤٢

(٢) ابن الجوزى / المنتظم / جـ ٥ / ٧٨، ٧٩

(٣) الذهبي سير أعلام النبلاء / جـ٣ / ٤٤٠ / ٤٤٢ .

كان أصحاب المصادر لم يأتوا على ذكر أخبار فى مصادرهم تتعلق بأحوال «المدينة» فى عهده لانشغالهم بتدوين أخبار الفتن التى نشبت فى «البصرة» «والشام» وغيرها.

إلا أن الذى جعلنا نجزم بهذا الرأى، ما ذكرته بعض المصادر من أن «علياً» ولاه «مكة» بعد «المدينة»، وأنه استطاع أن يحقن دماء المسلمين فى موسم الحج «بمكة» سنة تسع وثلاثين للهجرة «٣٩هـ» حيث أرسل «معاوية» «يزيد بن شجرة»[1] على رأس ثلاثة آلاف من الشاميين إليها؛ ليحج بهم حتى يظهر سيادته، ويؤكد حقه فى منازعة على أمره.

فلما وصل (يزيد بن شجرة) إلى «مكة» قال «لأبى سعيد الخدرى»: إنى أريد الإلحاد فى الحرم، ولو شئت لفعلت، لما فيه أميركم من الضعف، فقل له: يعتزل الصلاة وأعتزلها أنا، ويختار الناس رجلاً يصلى بهم.

فاستجاب «قثم» لسعى الساعين بالخير ووافق على جعل الحج تحت إمرة «شيبة بن عثمان» [2]؛ فحج بالناس هذا العام [3] ويلوح لنا أن «قثم

---

(١) الرهاوى : واستعمله «معاوية» غير مرة واستشهد سنة ثمان وخمسين فى البحر
الذهبى : سير أعلام النبلاء / جـ٩ / ١٠٦ .

(٢) ابن أبى طلحة، عبد الله بن عبد العزى القرشى العبدرى المكى الحجبى حاجب الكعبة، شارك ابن عمه فيها أسلم بعد الفتح والنبى فى «غزوة حنين»، له حديث فى البخارى روى عنه عدد من أصحاب الصحاح، اختلف فى تاريخ وفاته فقيل: سنة ثمانى وخمسين هجرية أو التى بعدها، ودفن «بمكة» .
ـ الذهبى: سير أعلام النبلاء /جـ٣/ ١٢ ، ١٣ .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط / ١٩٨
ابن الأثير : الكامل/ ٣٧٨/٣

بن العباس» قبل الحل الذى سوى بين أمير المؤمنين «ومعاوية بن أبى سفيان» - رضوان الله عليهما- نتيجة الضعف والانقسامات اللذين انتشرا فى معسكر «علي» وبعد التحكيم سنة سبع وثلاثين للهجرة وما كان من أمر نتيجته المعلنة على الناس - هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الوالى راعى حرمة البلد الحرام ؛ فكره أن ينعت بإراقة الدماء على أرضه فيبوء بالإثم وينقضى زمن فريضة الحج دون تمكن الناس من أداء مناسكهم.

ومن ثم جنح للمسالمة ورضى أن يحج بالناس رجل له مكانة بين المسلمين ، إذ هو من حجاب الكعبة.

ولقد استمر «قثم بن العباس» بعد وفاة أمير المؤمنين «علي بن أبى طالب» يشارك المسلمين فى الجهاد؛ فنال نعمة الشهادة (١) فى سمرقند(٢) سنة ثمان وخمسين أو السنة التى تليها.

وتذكر المصادر أن «علياً بن أبى طالب» ولى على «المدينة» بعد «قثم بن العباس» «سهل بن حنيف» وهو أنصارى أوسى ، كان من فقراء

---

(١) اليعقوبى / التاريخ/ جـ٢/ ٢٣٧، ـ النويرى / نهاية الأرب جـ ٢/ ٢٠٢ ـ ابن كثير / البداية والنهاية :جـ ٨/ ٧٩

(٢) مدينة بجمهورية أوزبكستان فتحها «سعيد بن عثمان» والى «خراسان» سنة(٥٥)هـ وهى قريبة من الضفة الغربية لنهر زرافستان يفصلها من العاصمة «طشقند» (١٨٠)ميلاً وعن «بخارى» (١٣٠)ميلاً.
. أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي/جـ ٣ / ٤٩٢ . عبد السلام الترمانيني/ أزمنة التاريخ الإسلامى/جـ ٢/ ١٠٥٤

«المدينة» آخى الرسول ﷺ بينه وبين «علي بن أبي طالب» وشهد «بدراً»، ثم «أحداً»، مع النبي محمد ﷺ[1] ولما كان من أمر الخلاف بين «علي» و«معاوية» - رضوان الله عليهما -، وقف«سهل»إلى جوار«علي»، فشد من أزره، ومن ثمّ ولاه«المدينة» في سنة ست وثلاثين للهجرة [2] .

ويبدواْ لنا أن ولايته عليها لا تتجاوز بضعة أشهر فإن «علياً» استدعاه إلى «الكوفة» ليوليه مهام حربية بجيشه[3] الذى أعده لمواجهة «معاوية» فى«صفين» سنة سبع وثلاثين للهجرة، فظل بها حتى توفى سنة ثمانٍ وثلاثين[4] من الهجرة مما تقدم يتبين لنا أن اختيار «علي» «لسهل» قد بنى على أسس قوية، فإن مخالطته له بعد أن آخى النبى بينهما، وثناء رسول الله - ﷺ - ثم «عمر» على «سهل» وتولية أمير المؤمنين «علي بن أبى طالب» أخيه «عثمان بن حنيف» على «البصرة» .

كل هذا يدل على الثقة التى أولاها «علي» لتلك الأسرة وأن استدعاء «سهل» من «المدينة» «للكوفة» لم يكن إلا لرغبة علي الإسراع فى حسم الأمر بينه وبين «معاوية» فى أقصر وقت، ولن يتأتى له هذا إلا إذا ولى قيادة جيشه لأكفأ الرجال.

وثالث الولاة الذين ولاهم «علي» على«المدينة»بعد «سهل بن حنيف»

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى / جـ٣ /٣٥٨ : ٣٦٠

(٢) ابن الجوزى / المنتظم / جـ ٥ / ١٣٧

- ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٧ /٣١٧

(٣) خليفة بن خياط / التاريخ / ٢٠١

(٤) الذهبى وسير أعلام النبلاء / جـ ٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ - ابن حجر /تهذيب التهذيب جـ ٢٥١/٤

هو أبو «أيوب الأنصاري»[1] «خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف» ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية، وشرف بنزول رسول الله - ﷺ - بداره شهراً حتى فرغ المسلمون من بناء المسجد، وحجرتين لزوجي النبي محمد - ﷺ - ... وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، وقد حرص كل الصحابة على أن يُكرمُوا نزله حيث كان.

فهذا هو «ابن عباس» الذى كان يلى «البصرة» نيابة عن «علي» يلقى «أبا أيوب» حين مرّ به؛ فيستقبله استقبالاً حافلاً ثم أعطاه عند انصرافه كل شيء بالمنزل الذى أقام فيه طيلة وجوده «بالبصرة» [2] فكان أربعين ألف دينار، وأربعين عبداً بالإضافة إلى تحف وهدايا أخرى ثمينة[3].

ولقد كانت فترة ولايته على «المدينة» غاية فى الصعوبة والدقة بالنسبة «لعلي بن أبي طالب» ذلك أن التحكيم الذي كان من المأمول منه رأب الصدع ،وجمع الشمل؛ فإذا به يفتح أبواب الفتنة على مصاريعها ،لتشب أقوى مما كانت وتقذف بحممها «علياً» فيصطلى بنارها بينما ازداد «معاوية» ورجاله قوة على قوة .

ولسنا هنا بصدد بيان الأسباب التى أدت إلى إضعاف هذا المعسكر

(١) اختلف فى تاريخ وفاته ، فقيل سنة (٥٠، ٥٢ ، ٥٣ ودفن «بالقسطنطينية» .
- ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ٣ / ٩١
(٢) هى مدينة عراقية تقع على شط العرب بعد التقاء دجلة بالفرات.
- أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى /جـ ٣٢٢ عبد السلام الترمانينى/ جـ ٢ /١٠٢٦ - أزمنة التاريخ / جـ٢ / ١٠٢٦ .
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية / جـ٨ / ٥٢
- الذهبى / سير أعلام النبلاء / جـ ٢ / ٤٠٢، ٤٠٣

وتقوية ، ذاك ؛ لأن ذلك يخرجنا عن الغاية التي توخينا تحقيقها من دراستنا هذه.

والذى يدلك على قوة «معاوية» أنه راح يشخص الحملات الحربية من «الشام» إلى البلاد التى دانت بالطاعة «لعلي» ومنها «المدينة المنورة» فقد سير إليها أكثر من حملة حربية، منها هذه الحملة التى قادها «عبد الله بن مسعدة بن حكمه بن مالك بن بدر الفزازى» فى ألف وسبعمائة رجل إلى «تيماء»،وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادى ويقتل من أمتنع؛ ففعل ذلك، وبلغ«مكة»و«المدينة» واجتمع إليه بشير كثير من قومه، وبلغ ذلك«علياً»؛فأرسل«المسيب بن نجيه الفزازى»[1] فى ألفى رجل؛فلحق «عبد الله»«بتيماء»؛فاقتتلوا حتى زالت الشمس قتالاً شديداً، وحمل «المسيب» علي «ابن مسعدة» فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله، ويقول له:النجاء النجاء فدخل«ابن مسعدة»وجماعة معه الحصن وهرب الباقون نحو«الشام»، ونهبت الأعراب إبل الصدقة التى كانت مع «ابن مسعدة» وحاصره ومن معه ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب فى الباب لإحراقه، فلما رأو الهلاك أشرف عليه وقالوا: يا«مسيب»، قومك، فرق لهم وأمر بالنار فأطفئت وقال لأصحابه: قد جاءتنى عيونى فأخبرونى أن جنداً قد أتاكم من «الشام»[2] .

لم يتطرق اليأس إلى « معاوية » ورجاله بعد الإخفاق الذى

(١) كوفى هو من المخضرمين شهد«القادسية» توفى سنة خمس وستين للهجرة فى موقعة «عين الوردة» وهو يطالب بوتر «الحسين» .
تهذيب التهذيب / جـ ١٠ / صـ ١٥٤

(٢) ابن الأثير : الكامل / جـ٣/ صـ ٣٧٦/٣٧٧

ألم بحملتهم السابقة على « المدينة » و« مكة » ؛ فأزمع على إرسال حملة أخرى بقيادة « بسر بن أرطاة » [١] سنة أربعين فى ثلاثة آلاف ؛ فوصلت إلى «المدينة المنورة» وكان عليها «أبو أيوب الأنصارى» الذى ما أن سمع بقدومها حتى لاذ بالفرار منها، وتوجه إلى «الكوفة»[٢]، حيث انضم إلى « عليّ بن أبى طالب » كرم الله وجهة[٣] .

على أننا لا نرى فرار «أبى أيوب » من «المدينة» بعد تخلياً عن مسئوليته وتفريطاً فى ولايته، وإنما نراه تصرفاً حسناً من الوالى ؛ إذ ليس عنده من القوات ما يستطع بها الدفاع عن « المدينة المنورة » ،ذلك أن «علياً» سير منها كل من اتصف بالوفاء له، وأظهر استعداده للحرب معه، ولم يبق بين جنباتها إلا متثاقل لا يريد الزج بنفسه فى أتون فتنة، لا أحد يعرف مداها ،أو غير قادر على الحرب.

---

(١) ابن عمرو عويمر بن الحليس بن يسار بن بزار ولد فى حياة النبى وقيل: ـ
ـ قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بعامين أو ثمانى سنوات استعان به عمر «بن الخطاب» فى فتح «مصر»، زمه غير واحد من أهل العلم والصلاح شهد «صفين» إلى جانب «معاوية» روى حديثاً واحد عن النبى مرض بالجنون فى آخريات عمره إلى حد أنه كان يضرب بالسيف كل من يراه . فأعطوه حسام من خشب حتى لا يلحق بمن يلقاه ضرراً وقد وافته المنية فى سنة ٧٠ سبعين للهجرة.
ابن الأثير/ أسد الغابه /جـ ١ /صـ ١٧٩/ ١٨٠
اللهبى : وسير أعلام النبلاء / جـ ٣ / صـ ٤٠٩ : ٤١١

(٢) بالضم مدينة بناها العرب سنة ١٧ هـ (٦٣٨) على الشاطئ الغربى للفرات قريباً من «الحيرة» وقد حلت محل «المدائن» التى هجرها العرب لسوء مناخها.
ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع /جـ ٣ /صـ ١١٨٧٧.
عبد السلام الترمانينى /جـ ٢ / صـ ١٠٧٨

(٣) البلخى : البدء والتاريخ /جـ ٥ / صـ ٢٢٩: ٢٣٠
ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٧ / صـ ٣٢١ : ٣٢٢

فماذا عسى الوالى أن يفعل إزاء وضع كهذا ؟

إنه لم يجد مناصاً من اللجؤ إلى إمامه ليطلعه على الأمر واضعاً المسئولية على عاتقه فى اتخاذ ما يراه من قرارات فى الذى حل «بالمدينة» بعد ما داهمها جيش «معاوية» .

على كل حال فإن «بسرا » دخل «المدينة » دون قتال ، ورقى منبر مسجد الرسول وألقى فى المدنيين خطبة جاء فيها: (يا دينار، يا نجار ، يا زريق) -وهذه بطون من الأنصار- شيخى ، شيخى ، عهدته ههنا بالأمس! فأين هو؟- يريد «عثمان»- ثم قال: والله لولا ما عهد «معاوية » ما تركت بها محتلماً إلا قتلته [1]

وتذكر المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى أن «بسرا » أرغم المدنيين على البيعة «لمعاوية» بالخلافة، وأنه عاث فيها فساداً وإفساداً ؛ فقتل من الرجال والنساء من قتل وفتش عن «جابر بن عبد الله»[2] حتى يبايع «معاوية» على ملأ من الناس، وقد كان «جابر بن عبد الله» يرى فى البيعة مخالفة للدين ؛ فإنه لما علم بملاحقة «بسر» له توجه إلى «أم سلمة» - رضوان الله عليها- فقال لها :(ماذا ترينى ؟ ، فإنى خشيت أن أقتل، وهذه

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / صـ ١٣٩ .

(٢) ابن عمرو بن حزام بن كعب بن سليمه ، الخزرجى الأنصارى آخر من مات من رجالات العقبه الثانية كان مفتى «المدينة» فى زمنه شهد مع رسول الله المشاهد بعد «غزوة أحد» روى عن النبى محمد ألفاً وخمسمائة وأربعين حديثا توفى سنة ثمانى وسبعين عن عمر بلغ أربعاً وتسعين سنة. (ابن قتيبه - المعارف / ٣٠٧ - الذهبى / سير أعلام النبلاء / جـ٣ / صـ ١٨٩ : ١٩٣) .

بيعة ضلالة! فقالت : أرى أن تبايع، وقد أمرت ابنى «عمر بن أبى سلمة» وختنى «عبد الله بن زمعة »[1] (أن يبايعا). فذهب وبايع ، ليس هذا فحسب بل إنه عمد إلى دور «فى المدينة»فهدمها وأرعب أهلها وفزعهم !! ثم سار منها إلى «مكة»[2] قاصداً «اليمن» التى هرب واليها من قبل «علي» وهو «عبيد الله بن عباس» وقتل«بسرا» من أهلها الجم الغفير، منهم طفلان صغيران «لابن عباس» ذبحهما في حجر أمهما التى زعم الرواة أنها قالت فى ذلك شعراً وسبى النسوة المسلمات؛ فكان أول من سبى مسلمة فى التاريخ الإسلامى!! [3] ولما علم «عليّ بن ابى طالب» بما فعله «بسرا» ببلاد«الحجاز» غضب غضباً شديداً وجهز جيشاً بلغ أربعة آلاف وجعل على رأسه «جارية بن قدامه»[4] و«وهب بن مسعود» ولم يكن اختيار «عليّ» «لجارية بن قدامه» لهذه المهمة اختياراً عشوائياً ؛ فإن الرجل كانت له مواقف عظيمة فى قتاله «معاوية» فقد أجهض محاولاته لأخذ «البصرة» من بين يدى «عليّ»، فسار «جارية» حتى أتى

(١) ابن الأسود بن المطلب مات أبوه يوم بدر مشركاً وكان من المستهزئين برسول الله، وعبد الله هو ممن كان يأذن على النبى محمد ، توفى سنة ثلاث وستين على أحد الأقوال والله أعلم .

ابن الأثير / أسد الغابة / جـ ٣ / صـ ١٤٠،١٤١ .

ابن حجر / تهذيب التهذيب / جـ ٥ / صـ ٢١٨ : ٢١٩

(٢) المسعودى : مروج الذهب / جـ ٣ / صـ ٢٩ : ٣٠.

ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٧ / صـ ٣٢١ : ٣٢٢

(٣) الطبرى / تاريخ الرسول والملوك / جـ ٥/ صـ ١٤٠. ابن كثير / البداية والنهاية/ جـ ٧ / صـ ٣٢١ : ٣٢٢

(٤) ابن زهير بن الحصين بن رزاح روى حديثا عن الرسول وشهد معه «صفين» .

- ابن حجر : الإصابة / جـ ١ /٢١٨ .

«نجران»[1]، فقاتل بها ؛ ففروا أمامه صوب «مكة» فقال: بايعوا أمير المؤمنين. فقالوا: قد هلك؛ فلمن نُبايع؟ قال: لمن بايع له أصحاب «عليّ» فبايعوه خوفاً منه، ثم سار حتى أتى «المدينة»، «وأبو هريرة» يصلى بالناس، فهرب منه، فقال «جاريه»: لو وجدت أبا «سنور» لقتلته؛ ثم قال لأهل «المدينة» : بايعوا «الحسن بن علي» ، فبايعوا، وأقام يومه، ثم عاد إلى «الكوفة» ورجع «أبو هريرة» يصلى بهم [2] .

إن من يمعن النظر فيما حوته مصادر التاريخ الإسلامى من أخبار تتعلق بحملة «بسر بن أرطاة» على «المدينة» يجدها تشتمل على أمور تجعل المؤرخ المنصف يبادر إلى التشكك فى صحة وقوع بعضها.

وذلك لما يلى : -

(١) إن المؤرخين ذكروا إرسال «معاوية» لتلك الحملة حتى يحصل على بيعة المدنيين له بالخلافة .

ولا مراء فى أن رجلاً مثل «معاوية» في دهائه، وحلمه، يأبى أن يتم ذلك بالإكراه والقتل؛ لأن هذا سيجعل أهل «المدينة» ينفضون من حوله ومجابهته «لعليّ» تقوم فيما تقوم على الدعاية الإعلامية التى أراد منها معاوية إثبات أحقيته لأمر دون «عليّ» أو على الأقل إسباغ خروجه على خليفة المسلمين بصبغة شرعية .

---

(١) بالفتح ثم السكون، وآخره نون بلدة في «اليمن» من ناحية «مكة» .
صفي بن عبد الحق / مراصد الاطلاع / ج ٣/ صـ ١٣٥٩
(٢) الطبري / تاريخ الرسل والملوك / ج ٥ / صـ ١٤٠.
المسعودي ، مروج الذهب / جـ ٣ / صـ ٣١.
البلخي - البدء والتاريخ / جـ ٥ / صـ ٢٣٠.

(٢) إن ما زعمته الروايات من إقدام «بسر» على سبى النساء المسلمات واسترقاقهن أمر يأباه العقل!! فعلى فرض أنه حدث منه ذلك حين كان «باليمن»؛ فإن «معاوية» لم يكن ليقبله وهو ببلاد «الشام»، وعنده من الصحابة الأعلام من لا يحوز التشكيك فى شجاعتهم وإبداء رأيهم فى أمر كهذا .

ولا سيما أنه يتعلق بالدين، أما وأن المصادر لم تأتِ على ذكر موقف «معاوية» ولا الصحابة فيما نسب الرواة فعله إلى «بسر» من سبى النساء وهتك الحرمات؛ فإن النفس تكاد تجزم بعدم وقوعه.

ومما يدعم رأينا هذا ، ما ذكره «ابن الأثير» فى «كامله» من حرص «معاوية» على مراعاة شعور الصحابة وأبنائهم ممن كان بينه وبينهم خلاف؛ فإن «بسر بن أرطاة» حين كان بمجلس «معاوية»، نال من «عليٍ» «وزيد بن عمر بن الخطاب» حاضر ،وأمه «أم كلثوم بنت علي» ؛ فعلاه بالعصاة ؛ فشجه، فقال «معاوية» «لزيد» : عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته! وأقبل على «بسر» فقال: تشتم «علياً» وهو جده وابن «الفاروق» على رؤوس الناس! أترى أن يصبر على ذلك؟ فأرضاهما جميعاً[1].

فهذا الموقف الذى أوردناه يبين لنا مدى حرص «معاوية» على شعور أعدائه ومبادأتهم بالحسنى وإن أساءوا؛ ذلك من أجل جمع الصف حتى تكون الأمة فى خلافته على قلب رجل واحد!! فرجل هذه سياسته، وتلك طبيعته، وهو فى الخلافة لا يمكن أن يطلق يد قائد له حتى يفعل ما يفعل وهو لم يتولها بعد.

---

(١) ابن الأثير : الكامل / جـ ٤ / ١٢ .

(٣) إن «ابن كثير» وهو الحافظ المدقق الذى عنده من علم الرجال والأخبار الكثير والكثير قال بعد أن أورد أقوال المؤرخين عن حملة «بسر بن أرطأة» على «المدينة»: (هذا الخبر مشهور عند أصحاب المغازى والسير، وفى صحته عندى نظر والله تعالى أعلم)(١)

فهذا القول يؤكد لنا أن الخبر سالف الذكر ، فيه من المبالغات مالا يجوز للمؤرخين المنصفين أن يمروا عليها مروراً عابراً دون إخضاعها للتحليل والمناقشة، ولا سيما أنه منسوب إلى رجل له جهاد فى «بلاد الروم» من أجل نشر الدين الإسلامى.

وعلى كل حال ؛ فإن «المدينة» بعد مقتل الإمام «عليّ»- كرم الله وجهه- بدأت تستقبل عهداً جديداً من عهودها التاريخية ؛ ذلك الذى بدأ بقيام الدولة الأموية.

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية / جـ ٧ / صـ ٣٢٢

الفصل الثانى

ولاة المدينة فى العهد السفيانى

إن المؤرخ الذى يتوفر على دراسته هذه الدولة يجدها قد مرت بمراحل ثلاث : ـ

أولهمـــا : حكم فيها السفيانيون .

وثانيهما : تولى مقاليد الأمر فيها المروانيون الأول .

وثالثهما : حكم فيها المروانيون المتأخرون ولقد كان منظور الخلفاء الأمويين لولاة «المدينة» يختلف من مرحلة إلى أخرى بل من خليفة إلى آخر.

ولسوف نبدأ أولاً بذكر الملابسات التى واكبت وصول السفيانيين إلى سدة الخلافة.

فنقول :إنه لما نجح الخوارج فى قتل الإمام «علي» نظر أتباعه إلى ولده «الحسن» رضوان الله عليهما -، فبايعته جماعات من الناس بالخلافة فى مناطق عدة من الدولة الإسلامية وعلى رأسها «الكوفة» (١).

ويبدوا لنا أن «الحسن بن على» استوعب الدرس من سيرة العراقيين وغيرهم مع أبيه ؛ فوجدهم متقلبى الأهواء؛ فمنهم من يراه اليوم غاية فى الطاعة، فإذا به غداً يقلب ظهر المجن لجماعتها وليس ذلك كذلك بالنسبة لمعسكر «معاوية»؛ فما أتباعه إلا رجال أقاموا أنفسهم على الطاعة فى

---

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ١٥٨ ، ١٦٠، السيوطى: تاريخ الخلفاء / ١٩١

كل الأحوال ينفذون له العظيم من المهام مستعذبين الصعاب في سبيل إرضاء أميرهم !!

ومن ثم فإن «الحسن» لم يمكث في الخلافة إلا ستة أشهر وأياماً صالح بعدها «معاوية بن أبي سفيان»، على أن يكون «للحسن» الخلافة من بعده، ولا يطالب أحدا من أهل «المدينة» و «الحجاز» و «العراق» بشيء مما كان أيام أبيه، وعلى أن يقضي عنه ديونه ؛ فأجابه «معاوية» إلى مطالبه؛ فظهرت المعجزة النبوية في قوله - ﷺ - :« يصلح الله به فئتين من المسلمين» وكان التنازل عن الخلافة في سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الأول، وقيل: في الآخر، وقيل: في جمادى الأولى .

وكان لهذا التنازل صداه عند أهل «المدينة»؛ فقد أحسوا بزيادة تضاؤل دورهم في التأثير على مجريات الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية يوماً بعد الآخر؛ منذ ترك «علي» بلدهم؛ فلم يأخذ «الحسن» أو «معاوية» رأيهم في الصلح، بل لم يعتد «معاوية» ومن جاء بعده برأيهم، وكان ذلك الأمر موضع اعتبار الخلافة عندما يعينون ولاتهم على «المدينة» و«مكة»(١).

ومن ثمّ فإن «المدينة» و«مكة» صارتا ملجأ آمناً للساخطين على الدولة الأموية حتى إذا ما واتتهم فرصة رفعوا راية المعارضة والعصيان؛ فكان ذلك يؤرق مضاجع الخلفاء الأمويين (٢).

(١) خليفة بن خياط / التاريخ /٢٠٣، السيوطي / تاريخ الخلفاء / ١٩٢ ، محمد حلمي / الخلافة والدولة في العصر الأموي /٨٨

(٢) فاطمة مصطفى / تاريخ الأسرة الطالبية في المدينة / ٩٩

وعلى كل حال ،فقد أصبحت الأمة موحدة تحت راية «معاوية» بعد الفتن التى مزقتها بسبب الخلاف الذى وقع بينه وبين «علي بن أبى طالب» بعد تنازل «الحسن» عن الخلافة «لمعاوية»- رضوان الله عليهما- فى هذا العام الذى يعرف عند المؤرخين بعام الجماعة، وغدت «المدينة» إقليماً خاضعاً للخلافة الأموية التى كان «معاوية بن أبى سفيان» أول خلفائها!

وقبل أن نمضى قدماً فى التاريخ لولاة المدينة فى العهد السفيانى ومن جاء بعدهم من خلفاء تلك الدولة، يحسن بنا ذكر إلماعة تتضمن الدلالة اللغوية للفظة الوالى ، وما قاله الفقهاء من شروط يجب مراعاتها فى الرجل الذى يعهد إليه بالمنصب والمهام الموكلة إليه، حتى نستطيع الحكم على الخلفاء الأمويين، أولهم بالنسبة لاختيار ولاتهم على «المدينة»« موضوع بحثنا »

مفهوم لفظة والى فى اللغة والاصطلاح

إن هذه اللفظة لها عدة دلالات فى معاجم اللغة تجعل معانيها مختلفة حسب الجمل التى تدخل الكلمة فى تركيبها «فابن منظور» يقول: الولى : الصديق والنصير،.. التابع والمحب .. أما الولاية ؛ فإنها تنطق بفتح الواو وكسرها ، فمن فتح جعلها من النصرة، والنسب «والولاية التى بمنزلة الإمارة مكسورة ليفصل بين المعنين.

وقد يجوز كسر الولاية، لأن فى تولى بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة ، والعمل، وكل ما كان من جنس الصناعة، نحو، القصارة والخياطة فهى مكسورة [1].

---

(١)ابن منظور: لسان العرب مادة «ولى» .

وهى فى الاصطلاح.. ضربان، عامة، وخاصة.

فأما الولاية العامة، فصاحبها مفوض من قبل الخليفة بولاية بلد أو إقليم فينظر فى المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً فى عمله[1].

وأما الخاصة ؛ فهى غير ذلك .

ولقد ذكر علماء النظم، أن الوالى يجب عليه القيام بكل ما من شأنه صلاح الرعية فى إمارته أو ولايته، ويتمثل هذا فيما يلى:-

(١) النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

(٢) النظر فى تدبير الجيش وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها.

(٣) جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال، وتفريق ما يستحق منها.

(٤) إقامة الحدود فى حق الله تعالى، وحقوق الآدمين.

(٥) الإمامة فى الجمع والجماعات، حتى يقوم بها أو يستخلف عليها.

(٦) تسيير الحجيج من عمله، ومن غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه[2] لأنه من جملة المعونات التى ندب إليها[3] ولا يتم ذلك الأمر إلا

---

(١) أبو يعلى / الأحكام السلطانية /٣٤/ ، محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية(٨٠)

(٢) الماوردى / الأحكام السلطانية / ٧٢. ابو يعلى الأحكام السلطانية / ٣٤ .

(٣) أبو يعلى / الأحكام السلطانية / ٣٦ .

بتدخل من الوالى فى كل إقليم ؛ فينَصّب على الحجيج من يدير أمرهم إن لم يكن ينوى الحج معهم ، فيكون أمير الحج والحالة هذه نائباً عن والى إقليمه فى رعاية مصالح الرعية الذين انخرطوا فى قافلة الإقليم.

ومن المناسب هنا القول بأن « المدينة المنورة » أول حاضرة إسلامية خرجت منها قوافل الحج، بقيادة أمير يعينه النبى محمد - ﷺ - بهذه الغاية وهو «أبو بكر الصديق» الذى خرج منها فى ثلاثمائة سنة «تسع هـ» وأنها ظلت تسير موكب الحج بقيادة الخلفاء الراشدين طيلة سنوات حكمهم باستثناء بعض الفترات ، فى خلافة [1] «عليّ» بسبب الفتن التى اصطلت بنارها الدولة الإسلامية ولقد كان ولاة «المدينة» شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الولاة يهتمون أيما اهتمام بركب الحجيج.

بيد أن فرقاً كبيراً بين قيام والى «المدينة المنورة» بتلك المهمة وبين قيام غيره بها حيث إن والبها كانت إليه الإمرة العامة على الحج فى معظم فترات العصر الأموى، خلا بعضها حين يكون الخليفة أو ولى عهده حاجاً[2] أو «لمكة» والى مستقل عن «المدينة» وهذا قليل جداً.

فإن الأمويين كثيراً ما جعلوا «مكة» و «المدينة» إلى والٍ واحد،

---

(١) الطبري : تاريخه / حـ ٣ / ٣٢٣.
أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية :صـ٨٤.
(٢) تولي خمسة من الخلفاء الأمويين الحج بأنفسهم وهم، «معاوية بن أبي سفيان»، «عبدالملك بن مروان»، و«الوليد»، و«سليمان»، و«هشام» أبناء عبدالملك
أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية / ٨٠٥.

«المدينة» مقره كما سيتبين ذلك من خلال استعراضنا للولاة الذين تعاقبوا عليها من قبل الخلفاء الأمويين.

وإذا كانت هذه نظرة الفقهاء إلى منصب الوالى والمهام المناطة به ؛ فإن السواد الأعظم من الخلفاء الأمويين قد راعوا عند اختيارهم لولاتهم أن يحققوا لهم ما يلى :-

(١) الحفاظ على سمعتهم الطيبة بين رعايا الإقليم الذى يحكمونه ولا سيما «المدينة» ؛ لما لها من مكانة دينية ؛لوجود الحرم النبوى بها واجتماعية لسكن كبار الصحابة بها من أولى العلم والرأي.

ويري بعض الباحثين أن رعاية الأمويين للمصلحة العامة لأهل الإقليم والمحافظة علي السمعة الطيبة للخلفاء الأمويين بين أفراد الرعية تختلف غايتها عن تلك التي كان الراشدون يتوخون تحقيقها في سياستهم لرعيتهم

فالأمويون يريديون منها تجميعا للقوي حول الخلافة في عهدها الجديد، وفي تجميعها توطيداً لأقدام الأمويين في الخلافة وصيانة لما فرضوه علي الأمة من حقهم في توارثها كما سنبينه.

فقد كانت رعاية المصلحة العامة وسيلة من وسائل متعددة ترمي إلي تحقيق هدف وحيد وضعه الخلفاء، وعمالهم نصب أعينهم وهو الاحتفاظ بالخلافة في أسرة الأمويين، يتوارثها أفراد أسرتهم دون غيرهم، فكانت رعاية المصلحة العامة وسلة وخطوة في سبيل تحقيق مصلحة خاصة[1] بخلاف عصر الراشدين؛ فإنهم اختاروا ولاتهم مراعيين فيهم اتصافهم بالعلم

(١) محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر الأموي : ١٢١.

والعدل غير مجبرين إياهم علي تنفيذ سياسة معينة تحقق للخليفة مصلحة ذاتية .

فغاية الجميع إذاً الحرص علي المصلحة العامة للرعية لتحصيل منفعة أخروية لا غير، وإن حاد بعض الولاة في عصر الراشدين عن هذا الطريق؛ فكان ما كان من أمر الغضب الذي وقع في بعض حواضر أمصار الدولة الإسلامية علي غرار ما حدث مع «الوليد بن عقبة» «بالبصرة».

إلا أن هذه المواقف القليلة لا تجعلنا متناقضين مع ما قررناه من اختلاف السياسة بين العصرين في تعيين الولاة؛ لأن الوالي فعل ما فعل لأمر شخصي لا علاقة للخليفة به نظراً لقلة هذه المواقف وإن شئت نقل ندرتها.

«تفضيل الأمويين تعين الأقارب على الولايات العامة»

١ - إن الأمويين حرصوا في تعيينهم الولاة علي «المدينة المنورة» أن يكونوا من أسرتهم تربطهم بالخلفاء وشائج قربي حتي يضمنوا ولاءهم وإخلاصهم لهم في تنفيذ سياستهم من ناحية، ومن ناحية أخري الاستمرار في كبح جماح كل من تسول له نفسه الخروج عليهم من أعلام المعارضة.

٢ - وحتي يحققوا مآربهم السياسية من تعيين الولاة علي «المدينة» وغيرها من أقاليم الدولة الإسلامية ، عمد الخلفاء إلي إطلاق يد ولاتهم باستقلالهم إدارياً وجعلهم يتصرفون في كل شئ ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة .

ومن ثم كانت المشاكل تحل والمنازعات التي تنشأ في حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره إليه، والذي دعا إلي تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة «دمشق» وبين حواضر الولايات؛ فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايته ؛ لطال عليهم الزمن، وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلاً وهذا مسبب للاضطرابات الكثيرة[1].

٣ - عمل الأمويين علي عدم بقاء الوالي « بالمدينة المنورة» مدة طويلة علي الرغم من كونه تربطهم به أواصر القربي ؛ فكانوا يعزلون الوالي فيولون غيره، ثم يعزلونه ويعيدونه ويولونه مرة أخري. وما ذلك إلا لرغبة الخلفاء ضمان استمرار ولاء ولاة المدينة لهم من ناحية .

ومن ناحية أخري عدم تكوين عصبة للوالي فيجابه بها الخلفاء بما يكرهونه في بعض الأوقات .

ولسوف يتضح لنا تلك الحقيقة جلياً، ونحن نتناول ولاة «معاوية» علي «المدينة» في عزلة وتوليته لهم .

(١) محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية صـ ٥٦.

« ولاة معاوية على المدينة »

لما كان الفقهاء قد أجمعوا على أن الوالى يستمد سلطاته ويمارس وظائفه بتفويض من خليفته؛ فإن الوقوف ولو فى عجالة على بعض معالم شخصية الخليفة، يفيدنا كثيراً فى الحكم على سياسة ولاته فى «المدينة» وضوابط علاقتهم به، فالمرء على دين خليله، وتفريعاً على هذا، فإنى أتناول بعضاً من مراحل حياة الخليفة فى إيجاز قبل أن أولى الوجه شطر ولاة «المدينة» فى عهده فأقول..

هو «معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف» كريم الأبوين فى الجاهلية ؛ فأمه «هند بنت عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس بن عبد مناف» ووالده «أبو سفيان » من سادات قريش فى الجاهلية والإسلام ، قاد قريشاً فى حروبها ضد النبى، وهو قائد العير القادم من «الشام» إلى «مكة» التى وقعت من أجلها «غزوة بدر الكبرى»، وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش «عتبة بن ربيعة بن عبد شمس» جد «معاوية» لأمه؛ فكان أبوه صاحب العير وجده صاحب النفير، وبهما يضرب المثل فيقال للخامل: «لافى العير ولافى النفير[1] .

أسلم «أبو سفيان» يوم فتح «مكة» ، وولد له «معاوية» قبل الهجرة بخمس عشرة سنة، فدخل الإسلام مع أبيه على قول وقيل أنه أسلم يوم عمرة القضاء.

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية / جـ٨ / ١٣٥ ، ١٤٣ ، أحمد رمضان محمد : حضارة الدولة العربية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين صـ ١١٨.

وكان «معاوية» من بين كتاب الوحى للنبى - ﷺ - شهد مع رسول الله «حنين»، استعمله «أبو بكر» فى قيادة الجيوش و«عمر» على «الأردن» ولما توفى «يزيد» فى طاعون عمواس ولاه «عمر بن الخطاب» عمل «يزيد» على «دمشق».

وفى عهد «عثمان» جمع «لمعاوية» «الشام» كلها، فكان ولاة أمصارها تحت إمارته، ومازال والياً حتى استشهد «عثمان بن عفان» وبويع «عليّ» «بالمدينة» (١) .

ولقد حكم «معاوية» الدولة الإسلامية عشرين عاماً خليفة مسبوقة بمثلها فى إمارته على «بلاد الشام» .

ولا مراء فى أن هذه المدة تجعل المرء يتساءل كيف استطاع «معاوية» البقاء هذه المدة فى «الإمارة» ثم «الخلافة»، يقود الأمور بكياسة، وحسن سياسة ينتقل من نجاح إلى نجاح متخطياً كل العقبات التى صادفته سواء تلك التى وقعت فى عهد الراشدين، أو التى واجهته حين كان أميراً للمؤمنين.

والجواب:- إن المؤرخين على اختلاف مشاربهم أجمعوا علي أن الرجل تحلى بنعوت مكنته من تحقيق غاياته ونيل أمانيه، فذكروا أن «معاوية» كان عاقلاً فى دنياه، لبيباً، عالماً، حليماً، مالكاً، قوياً، جيد السياسة،

---

(١)اليعقوبي : التاريخ / جـ ٢ / ١٧٦ .
- ابن كثير : البداية والنهاية / جـ ٨ / ١٢٤ - ١٤٣ .
- محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية والدولة الأموية / ٤٢٤ .
- عبد الشافي : العالم الإسلامي / ١٠٦ / ١٠٩ .

حسن التدبير لأمور الدنيا، حكيماً، فصيحاً، بليغاً، يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة، إلا أن الحلم كان أغلب عليه، وكان كريماً، بازلاً للمال، محباً للرياسة، شغوفاً بها، وكان سخياً مضيافاً لأشراف رعيته؛ فلا يزال أشراف قريش يفيدون عليه «بدمشق» فيكرم مثواهم ويحسن نزلهم، ويقضى حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلى «مكة» أو «المدينة» إلا بالجوائز السنية والصلات الجميلة، وقد كان مربى دول وسائس أمم، وراعى ممالك، ابتكر فى الدول أشياء لم يسبقه إليها أحد[1].

ورجل هذه صفاته وتلك سياسته !! لا جدال فى أنه يدقق فى اختيار ولاة بشكل يتفق فى أسلوبه فى معالجة الأمور وكبح جماح المعارضة إن قامت فى وجهه، بتقديم اللسان على الحسام ما وسعه ذلك، حتى يتفادى إراقة المزيد من دماء المسلمين، ويعيش خلاقة هادئة، ولا مانع لدى «معاوية» من الاستعانة برجل ما يحقق له هذا، ولو كان من غير المؤازرين له فى قتاله «لعليّ» وذلك ما كان مع «مروان بن الحكم».

ولاية «مروان» الأولى على المدينة

لما استوي «معاوية» علي أريكة الخلافة أنشأ يبعث عماله علي الأمصار لإدارتها ومن بينها «المدينة المنورة»؛ فكان أول والي له عليها سنة اثنتين وأربعين ، هو «مروان بن الحكم بن العاص بن أميه بن عبد شمس بن

(١) المسعودي : مروج الذهب / جـ ٣ / ٤٥

- عبد الشافي : محمد عبد اللطيف العالم الإسلامي / صـ ١١١ .

- أحمد رمضان / حضارة الدولة العربية / صـ ١١٩

عبد مناف بن قصي الأموي أبو عبدالملك» ويكني «بأبي القاسم» أو «بأبي الحكم» ولد في «المدينة المنورة»، سنة اثنتين من الهجرة.

اختلف العلماء حول ما إذا كان من الصحابة أم لا ؛ فالذين قالوا إنه من الصحابة ، استدلوا علي أن «مروان» كان قد بلغ الحلم حين لحق «النبي» بالرفيق الأعلي ، وأنه روى حديثاً عن النبي -ﷺ- أما الذين نفو عنه ذلك فدليلهم أنه كان صغيراً عند وفاة النبي محمد -ﷺ- (١)

ولقد ذكر غير واحد من العلماء أن النبى -ﷺ- قال أحاديث بها لعن«مروان» وأبيه ، ومنهما : أن «الحكم» استأذن على رسول الله -ﷺ- فقال : ائذنوا له، عليه وعلى من يخرج من صلبه لعنة الله، إلا المؤمنين وقليل ما هم ؛ يترفهون فى الدنيا ويضيعون الآخرة ، ذوو مكر وخديعة، يعطون فى الدنيا ومالهم فى الآخرة من خلاق .

ولقد تشكك أحد الباحثين فى هذا الحديث وأمثاله التى جاء فيها لعن النبى «لمروان» مستدلاً على ذلك بقوله :

«وإن هذه الأحاديث والأخبار ليغنينا ظاهرها الدال على الكذب عن مناقشة سندها، فكم نهى النبى -ﷺ- عن اللعن ، وكم أنزل أصحابه عن الإبل التى كانوا يلعنونها، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «مابُعثت لعاناً»؛ فمن أين هذه الأحاديث التى كثر اللعن فى روايته البني أميه التى لم يرد مثلها فى حق «أبى جهل»، و«أبى لهب» و«عقبة بن معيط»،

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبري، حـ ١ ، صـ ٢٧، البلخى : البدء والتاريخ ؛ حـ٦ صـ١ عبدالشافي: العالم الإسلامي، صـ ١٣٨، أحمد شلبي: الموسوعة حـ٢، صـ ٥٥ .

و«أبى بن خلف»، و«الوليد بن المغيرة»، و«عبد الله بن سلول» وغيرهم من رؤساء المشركين مع شدة كفرهم وعنادهم[1] ؟!!

والشخص الذى تقول عنه، الأحاديث: إن النبى لعنه، آلت إليه الخلافة بعد ذلك فى ظروف سنبينها فى كتابنا. ونحن نميل للأخذ بهذا الرأى؛ ذلك لأن الرسول - ﷺ - كان من الحُلم والرغبة في تأليف قلوب الناس كافة بحيث لا يتصور منه أن يلعن مسلما وولده ؛ فينفض الناس من حوله مع أن القرآن الكريم نزل بآيات تنهي النبي والمسلمين عن سب الذين يدعون من دون الله ؛ فكيف يقول العلماء ما يقولون عن «مروان» وولده ؟

ليس هذا فحسب بل إن «مروان» كان إليه أمر «المدينة» كما سنبينه بعد عام الجماعة الأول .

فلو كان ملعونا علي لسان النبي محمد - ﷺ - لهاج المدنيون وماجوا علي «معاوية»، والمصادر التي بين أيدينا لم تأتِ علي ذكر شئ من هذا، و«معاوية» بما له من سياسة وكياسة لا مراء يجعل الرجل المناسب في الوقت والمكان المناسبين ؛ فهذا ينفي اللعن المزعوم «لمروان» وولده .

وعلي كل حال المزعوم فإن «مروان» عاش بواكير حياته في «المدينة المنورة» وسط الصحابة الأعلام ؛ لينهل من علمهم ويتعلم من أخلاقهم حتي كان ما كان من أمر نفي أبيه عن «المدينة»؛ فظل «مروان» بعيداً عن «المدينة» إلي أن عاد إليها في زمن«عثمان بن عفان» .

فبدأت طموحات «مروان» تظهر للعيان بشكل متناهى!! فكان كل

---

(١) محمود شاكر / جـ ٤ / ٣١ ، ٣٢

يوم يمضى عليه فى زمن «عثمان» يقربه خطوة بعد أخرى من تبوء مكانة مرموقة فى الدولة الإسلامية؛ مما يلفت نظر الخليفة إليه!! فجعله أمين سره ودفع إليه خاتم الدولة.

وذكر المؤرخون عنه أنه انتحل كتاباً على «عثمان بن عفان» إلى واليه «بمصر» يخالف ذلك الذى كان الخليفة كتبه إلى الثوار القادمين منها؛ فزاد ذلك الفعل من ثورة الثائرين، على «عثمان» وراحت الألسنة تنال من «مروان بن الحكم» وتشكك فى نزاهته وحسن إدارته وتذليل الصعاب لخليفته، ولقد طلب الثائرون وبعض الصحابة من «عثمان» تنحية «مروان» عن منصبه؛ فأبى، ولعله لم يستجب لهذا الطلب، لما فيه من زوال هيبة الخلافة، أو الخوف على حياة «مروان» إن دفعه إلى الثوار بناءً على طلبهم على حد قول بعض الروايات، ويذكرون كذلك أن «مروان» قد أظهر من ضروب البسالة الشئ العظيم فى الدفاع عن «عثمان» حين اقتحم الثوار دار الخلافة !! فقد أثخنته الجراح، ومع ذلك ظل يدافع حتى بدا جسده لا حراك فيه فحملته امرأة من عنزه فداووه ؛ وقاموا عليه ؛ فمازال «آل مروان» يشكرون ذلك لهم[1].

ولقد دفعه ولاؤه للخليفة المقتول على يد الثوار المغرضين وحركته طموحاته إلى الانضمام لأصحاب الجمل الذين أعلنوا في الناس، أن غايتهم

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ٢٨ - البلخي : البدء والتاريخ؛ جـ ٦/ ١

- ابن حجر / تهذيب التهذيب / جـ ١٠ / ٦١ .

- أحمد شلبي : الموسوعة : جـ ٢ / صـ ٥٥ .

- د/ عبد الشافى / العالم الإسلامى / ١٤٠ .

- محمد حلمى / الخلافة والدولة فى العصر الأموى / ١١١ .

من الخروج إلى «البصرة» ليست إلا لنيل وتر «عثمان»، وإرغام «عليّ بن أبى طالب» على سرعة أخذ القصاص من قاتليه.

ويذكر الرواة عن «مروان» أنه اغتال رفيقه فى الغاية «طلحة»-رضوان الله عليه-؛ فضربه بسهم كانت فيه وفاته(1).وهما «بالبصرة».

ويلوح لنا أن صفات «مروان» جذبت إليه أنظار أولى الأمر فى الدولة الإسلامية ؛

فهذا هو «عليّ بن أبى طالب» بالرغم من خروج «مروان» عليه فى الجمل بحث عنه لما وضعت الحرب أوزارها ،فجاءه «مروان» وبايعه وطيّب «عليّ» خاطره.

وهذا هو «معاوية بن أبى سفيان» يسعى إلى «مروان» على الرغم من اعتزاله الحرب معه فى «صفين»؛ ليوليه «المدينة» بعد ما دانت له الأمة بالطاعة فى عام الجماعة.

ولا نجد ما نبرر به اتجاه أولى الأمر «لمروان» إلا صفات بزبها أقرانه(2).

---

(1) ابن سعد / الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ٢٩

- ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٨ / ٢٥٧ .

- محمد الخضرى / الدولة الأموية / ٤٧١

- ابن خياط / التاريخ / ١٨١

(2) ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٨ / ٢٥٧ : ٢٥٩ .

- أحمد شلبى / موسوعة التاريخ الإسلامى / جـ ٢ / ٥٥ ، ٥٧ .

- المسعودى / مروج الذهب / جـ ٣ / ٩٨ .

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التى جعلت «معاوية» يولى «المدينة» «مروان» فى هذا الوقت الدقيق.

والجواب فى رأينا، أن ذلك يتلخص فيما يلى :

١ - أن «معاوية» خرج على «علي» لينال وتر «عثمان» وكان «مروان» مضرب الأمثال، وحديث المدنين، وثائر الثوار فى دفاعه عن الدار فكان ذلك مكافأة من «معاوية» له على حسن فعله، ودفاعه عن الخليفة.

٢ - إن «معاوية» أموى و«مروان» من فرعه تربطهما العصبية للعشيرة من مصلحته بقاء الملك فى الأمويين حتى يظل ينعم بذات المكانة التى ينعم بها فى زمن «عثمان» وهيهات أن يجد ذلك عند غير «معاوية».

فتولية الخليفة له أمر بلد هام «كالمدينة» سيجعله من أكثر الناس محافظة على استتباب الأمن بها .

ولاسيما أن «معاوية» كان يحكم «بالشام» و«مروان» يلى أمانة سر«عثمان»، ولاريب فى أن «معاوية» كان يرقب الأحداث عن كثب، ويقف على مؤهلات «مروان»، فى معالجة الأمور؛ فوجد أن من مصلحته الاستفادة بجهد؛ فجمعتْ المصلحة المشتركة بين الرجلين ؛«معاوية» يريد «المدينة» آمنة، و«مروان» يريد استرداد مكانته الضائعة بوفاة «عثمان».

٣ - إن «المدينة» مسقط رأس «مروان»؛ عاش فيها طفلاً وقام بأعمال الدولة فيها وهو شاب.

ولا ريب فى أنه من جيل «ابن الزبير» و«الحسن» و «الحسين» و «عبد الله بن عمر» وغيرهم، وقد خالطهم فى مراحل حياتهم قبل أن تطلقوا على

السطح آمالهم السياسية ولا يخشى «معاوية» فى «المدينة» سواهم؛ فجعل «مروان» على «المدينة» والحالة هذه، لا مراء ضرورة فرضتها ظروف فضلته نشأة الوالى والصفات التى يتمتع بها من وجهة نظر «معاوية» على الأمويين الآخرين المقيمين «بالمدينة».

ومن ثمّ قدمه على غيره.

وعلى كل حال، فإن «معاوية بن أبى سفيان» قصد إلى عزل «مروان بن الحكم» على «المدينة» سنة ثمانى وأربعين للهجرة ليوليها أموياً آخر يختلف فى نهجه السياسى عن واليه الأول، ولعل ذلك راجع إلى أن «معاوية» وجد الظروف التى ولىّ بمقتضاها «مروان» على «المدينة» يحتاج إلى معالجة جديدة غير تلك التى كان يعالجها «مروان» أو أنه خشى على نفسه من هذا الوالى الذى لا حد لطموحاته فى تبوء سدة المجد فى الدولة الإسلامية.

ومن ثم كان عزله «لمروان» عنها ليتولى أمرها أموى آخر.

« ولاية سعيد بن العاص على المدينة »

وهو : ابن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، ويكنى أبو عبد الرحمن مات جده قبل «بدر» مشركاً , وقتل أبوه يوم بدر كافراً ، لحق النبى بالرفيق الأعلى «وسعيد» يبلغ من العمر تسع سنوات.

ومن ثمّ اختلف العلماء فى صحبته كما اختلفوا فى ولايته على «المدينة» «مروان» ؛ فالذين قالوا إنه صحابى أثبتوا له حديثاً عن النبى -

ﷺ - والذين نفوا عنه ذلك قالوا: إنه لم يصح له سماع ؛ لأنه لم يكن قد بلغ الحلم بعد[1].

وعلى كلٍ ،فإن غير واحد من علماء الأعلام شهدوا «لسعيد» بالفصاحة. وقالوا عنه : إنه أشبه ما يكون نطقاً فى قراءته للقرآن الكريم برسول الله -ﷺ- حيث إن لسانه لم يعرف اللحن. وكان معروفاً بين أقرانه ومن هم أسن منه من الصحابة والتابعين بالكرم والحلم وكان ذا سيادة تجعله مؤهلاً لولاية الخلافة !!

لكل ما سبق؛ فإن «عثمان بن عفان» -رضوان الله عليه- ولاه «الكوفة» وكان «سعيد بن العاص» من المدافعين عنه فى يوم الدار[2].

بيد أن موقفه قد اختلف عن موقف سلفه «مروان» من أصحاب الجمل الذين خرجوا لنيل وتر «عثمان».

على الرغم من كونهما تربطهما القرابة بالخليفة واستعماله لهما فى الدولة لأن «سعيد بن العاص» نظر إلي الأمور نظرة واقعية إلى حد كبير فى هذا الوقت، فقتلة «عثمان» ليسوا «بالبصرة» وإنما بين ظهرانيهم فى «المدينة».

- فما الداعى إلى تركهم والذهاب إلى مكان آخر ؟!

ولقد عبر «سعيد» عن رأيه هذا فى أصحاب الجمل و«هم بذات

---

(١) ابن سعد/الطبقات الكبرى/ جـ ٥/٢١، ٢٢- ابن حجر/تهذيب التهذيب:جـ٤/٤٨

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى/ جـ ٥/٢٢، ٢٣- الذهبى/ سير أعلام النبلاء / جـ٣. ٤٤٦.

عرق»[1] ، حيث خطبهم قائلاً: إن «عثمان» عاش فى الدنيا حميداً، وخرج منها فقيراً وتوفى «سعيد» شهيداً؛ فضاعف الله حسناته وحط سيئاته ورفع درجاته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وقد زعمتم أيهاالناس أنكم إنما تخرجون تطلبون بدم «عثمان»، فإن كنتم ذلك تريدون ؛ فإن قتلة «عثمان» على صدور هذه المطى وأعجازها؛ فميلوا عليهم ضرباً بأسيافكم وإلا فانصرفوا إلى منازلكم ولا تقتلوا فى رضا المخلوقين أنفسكم ولا يغنى الناس عنكم يوم القيامة شئ؛ فقال «مروان بن الحكم»: لا بل نضرب بعضهم ببعض؛ فمن قتل كان الظفر فيه، ويبقى الباقى فنطلبه وهو واهن ضعيف، وقام «المغيرة بن شعبة» ؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن الرأى ما رأى «سعيد» من كان من «هوزان» فأحب أن يتبعنى؛ فليفعل ؛ فتبعه منهم أناس، وخرج حتى نزلوا ا«لطائف»[2] ؛ فلم يزل بها حتى مضي أمر «الجمل»[3].

---

(١) موضع إلى الشرق من «مكة» وهو ميقات أهل «العراق» ، معتمره يبدأ إحرام القادمين إلى الحج من أهل «العراق» و «إيران» وتقع ذات عرق فى طريق «الطائف» بالقرب من «جعرانة» - أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى /جـ ٢ ، ٤٣٤

(٢) بلدة بالحجاز تقع على جبل « غزوان» جنوب شرق «مكة» وتبعد عنها فى أقرب نقطة بنحو (٥٠) ميلاً .

- أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى / جـ ٤ / ٤٤٣.

- عد السلام الترميانى / أزمنة التاريخ الإسلامى: جـ ٢ ق ٤/ ١٠٦

(٣) ابن سعد / الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ٢٧ ، ٢٨ .

- الذهبى / سير أعلام النبلاء / جـ ٣ / ٤٤٦ .

* سبق الإلماع إلى روايتها فى هذا الحديث وأمثاله فى مستهل حديثنا عن «مروان بن الحكم» أثناء الترجمة له.

فمن البديهي إذن أن يجد المرء خلافاً بين سياسة الواليين على «المدينة»؛ السابق واللاحق ،يتضح لنا هذا جلياً في موقفهما من العلويين، وهم قوة يحسب لها «معاوية» ألف حساب؛ لاعتقادهم أنهم أولى منه بالخلافة هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ،أمر نزاع «معاوية» مع «عليّ» كرم الله وجهه- فهذا هو «مروان بن الحكم» لما تولى «المدينة» دأب على سب «عليّ» في كل جمعة من سنيِّ ولايته الأولى؛ فاعترض عليه « الحسن » ذات مرة ؛ فقال له:

[لقد لعن الله أباك «الحكم»، وأنت في صلبه على لسان نبيه] فقال: «لعن الله الحكم وما ولد»[1]

أما «سعيد بن العاص» ؛ فإنه بعد أن صارت إليه ولاية «المدينة» كف عن هذا الأمر[2]

ولم تذكر لنا المصادر تدخل «معاوية» لدى الواليين في هذا الشأن .

فلم يطلب من «مروان» السب ولم يلم «سعيداً» على ترك ذلك ، ومما يؤكد لنا أن «مروان» وإن كان يقف موقف المتشدد من العلويين في «المدينة» خلال ولايته عليها وبعد عزله عنها في المرة الأولى، ما ذكر «ابن الأثير» من أن «الحسن بن عليّ» لما مرض مرض الوفاة، وصّى أن يدفن عند النبي -ﷺ- ، إلا أن تخاف فتنة ؛ فينقل إلى مقابر المسلمين؛ فاستأذن

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية / جـ ٨ / ٣٥٩ ـ محمود شاكر / التاريخ الإسلامي جـ ٤ / ٣١

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء / جـ ٣ ، ٤٤٧

«الحسنَ» «عائشة»؛ فأذنت له، فلمّا توفى أرادوا دفنه عند النبى ﷺ فلم يعرض إليهم «سعيد بن العاص» وهو الأمير؛ فقام «مروان بن الحكم» وجمع بنى أمية وشيعتهم ومنعهم من ذلك؛ فأراد «الحسين» الامتناع، فقيل له: إن أخاك قال: إذا خفتم الفتنة ؛ ففى مقابر المسلمين ، وهذه فتنة؛ فسكت وصلى عليه «سعيد بن العاص» فقال له «الحسين»: لولا أنها سُنّة لما تركتك تصلى عليه[1].

ويذكر «اليعقوبى» رواية لهذا الموقف تخالف فى بعض تفاصيلها ما قررته الرواية الأولى ،من ذلك، أنه جزم بمشاطرة «سعيد» «لمروان» فى موقفه من العلويين.

ومنه أيضاً ما زعمه من أن «عائشة»- رضوان الله عليها- لما أبت الاستجابة لطلب «الحسن» عند وفاته فى أن يدفن بجوار جده وأنها خرجت على بغلة شهباء وهى تقول :«بيتى ،لا آذن فيه لأحد ؛ فأتاهم «القاسم بن محمد بن أبى بكر» : فقال لها: «ياعمة»، أما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر، أتريدين أن يقال يوم البغلة الشهباء؟ فرجعت[2]

ونحن إذا أمعنا النظر فى الروايتين وجدنا رواية «ابن الأثير» راجحة ورواية «اليعقوبى» مرجوحة. إذ لا يتصور المرءُ إقدام السيدة «عائشة» على الخروج مستثيرة الناس على العلويين بعد الذى كان من أمر خروجها فى موقعة الجمل وما صحّ عنها من أقوال ذكرها المؤرخون الشيعة وغيرهم تفيد ندمها على ما وقع منها حين خرجت إلى «البصرة» .

---

(١)ابن الأثير : الكامل / جـ ٣ / ٤٦٠

(٢) اليعقوبى / تاريخه / جـ ٢ / ٢٢٥

ثم أتساءل ما الداعي لخروجها من بيتها على بغلة شهباء، ولا يستطيع أحد المؤمنين أن يدخل عليها فيه دون استئذان ؛ لما لها من أمومة على المؤمنين كافة ؛ نطق بها القرآن الكريم، ثم من أين لها العلم بأنهم يريدون دفن «الحسن» بجوار النبي محمد إلا أن يكون أحد العلويين قد ذهب إليها مستأذناً، أو علمت هذا عن طريق غيرهم، وهو ما لم تفصح عنه الروايات بخلاف رواية «ابن الأثير» التي نرجح الأخذ بها؛ فإنها أتت على ذكر استئذانها وقبولها دفن «الحسن» بجوار النبي محمد -ﷺ- وهو ما يتفق وتعاليم الدين الحنيف من ضرورة استئذان صاحب الحق .

يضاف إلى ما تقدم ،أن رواية «اليعقوبي» لم تذكر لنا من صلى بالناس صلاة الجنازة على «الحسن» -رضوان الله عليه-، أما رواية «ابن الأثير»؛ فإنها جزمت بصلاة «سعيد بن العاص» عليه ؛لولايته على «المدينة» آنذاك ، ولو كان «سعيد بن العاص» شاطر «مروان» هذا الأمر، لحال «الحسين» بينه وبين صلاة الجنازة على أخيه.

مما تقدم ؛ فإننا نجزم بعدم قبول ما جاء في رواية «اليعقوبي» من أقوال خالف بها رواية «ابن الأثير»؛ لأن صاحبهامعروف بتشيّعه وتحامله على كل ما هو أموى .

وعلى كل حال ، فإن العلويين منعوا من أمر أذنت فيه أم المؤمنين «عائشة» -رضى الله عنها- بسبب موقف «مروان بن الحكم» وشيعته من الأمويين «بالمدينة» .

ولم يستطع «سعيد بن العاص» وهو الوالي مخالفة أمر الأمويين بقيادة «مروان» ؛ لأن هذا إن وقع ؛ فسوف يثير تساؤلات لدى «معاوية»؛

فيعمل على عزله عن ولايته، وهذا ما يريده «مروان»؛ ففضل الصمت والظهور بمظهر المتفرج على الأمور؛ حتى يرى ما سينجلى عنه النقاش بين «الحسين» و «مروان».

ولا مانع لدينا من أن يكون «مروان» أراد بخروجه هذا إحراج «سعيد ابن العاص» الوالى الجديد على «المدينة»؛ لأنه يعلم يقيناً أن رياسة البيت الأموى «بالمدينة» تنتهي إليهما، وهذه الحقيقة ما غابت عن «معاوية» لحظة واحدة فى معاملته للرجلين؛ «مروان» و «سعيد بن العاص»؛ فسياسته قامت على عدم التمكين لأحدهما فترة طويلة فى ولاية «المدينة» من ناحية.

ومن ناحية أخرى، تغذية التنافس بينهما من أجل استواء أحدهما على كرسى الولاية دون صاحبه، ومن ثمّ يضمن ولاءهما له.

وما أورده المؤرخون من موقف «مروان» من «سعيد بن العاص» لمّا عُزل عن «المدينة» فى ولايته الأولى سنة أربع وخمسين هجرية [1] وأيلولتها للأول ، لخير دليل على صحة ما قلناه، إذ يذكرون [أن «معاوية» كتب إلى «سعيد بن العاص» فى ولايته الأولى أن يهدم دار «مروان» ويقبض أمواله كلها، فيجعلها صافية ويأخذ منه «فدك»[2]، وكان وهبها له؛ فراجعه

(١) ذكر الذهبى أن «معاوية» عزل «سعيد» عن «المدينة» لأنه أطعم الناس فى قحط حتى نفدت الأموال واستدان ؛ فعزله «معاوية» لسوء تدبيره إدارة الدولة .
- الذهبى : سير أعلام النبلاء / جـ ٣ / ٤٤٧ .

(٢) بالتحريك وآخره كاف: قرية بالحجاز بينها وبين «المدينة» يومان ، وقيل ثلاثة أفاءها الله على رسوله - عليه الصلاة والسلام- صلحاً فيها عين فوارة ونخل.
- صفى الدين / مراصد الاطلاع /جـ ٣ / ١٠٢٠
- عبد السلام الترمانينى / أزمنة التاريخ / ١٠٦٩

«سعيد» فى ذلك؛ فأعاد «معاوية» إليه الكتابة بها ثانية؛ فلم يفعل «سعيد» ووضع الكتابين عنده؛ فعزله «معاوية» وولى «مروان» وكتب إليه يأمره بقبض أموال «سعيد» وهدم داره ؛ فأخذ الفعلة وسار إلى دار «سعيد» ليهدمها، فقال «سعيد» يا «أبا عبد الملك»، أتهدم داري؟ قال نعم . كتب إلى أمير المؤمنين، ولو كتب إليك فى هدم داري لفعلت[1] ؛ فقال: ما كنت لأفعل: قال بلى والله، قال: كلا. وقال «سعيد» لغلامه ائتني بكِتَابَيْ «معاوية» ؛ فجاء بالكتابين ، فلما رآهما «مروان» قال: كُتِب إليك فلم تفعل، ولم تعلمني، فقال«سعيد»: ما كنت لأمنّ عليك، وإنما أراد «معاوية» ليحرض بيننا؛ فقال «مروان» : والله أنت خير مني وعاد ولم يهدم داره، وكتب «سعيد» إلى «معاوية»، العجب لما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا!! إنه يضغن بعضنا على بعض! فأمير المؤمنين فى حلمه وصبره على ما يكره من الأجنبين وعفوه، وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء، وتوارث الأولاد ذلك، فوالله لولم نكن بنى أب واحد إلا بما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، واجتماع كلمتنا، لكان حقاً علينا أن نرعي ذلك، والذي أدركنا به خير ،فكتب إليه يتنصل من ذلك وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده، وقدم «سعيد» على «معاوية»؛ فسأله عن «مروان»؛ فأثنى عليه خيراً[2] .

---

(١) ابن الجوزى / المنتظم / جـ ٥ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ ـ ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٨ / ٦٦ .

(٢) الطبرى / جـ ٥ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

ـ النويرى / نهاية الأرب / جـ ٢٠ / ٣٤٥ ، ٣٤٦

ـ ابن الأثير / الكامل / جـ ٣ / ٤٩٧

فأنت ترى هذا الموقف الذى وقفه «معاوية» من الرجلين جعلهما يتصافيان بعد انكشاف الأمر لهما. وهذا ما جعله يغض الطرف عن استعمال أحدهما على «المدينة» بعد ذلك واستعمل عليها «الوليد بن عتبة بن أبى سفيان» الذى سنرجئ الحديث عن ولايته إلى خلافة «يزيد» نظراً لأستمرار ولايته فى عهد الخليفتين ولأن تأثيرات الوالى على الأمور فى الدولة الإسلامية لم تبدُ واضحة إلا فى معالجته قضية البيعة بولاية العهد «ليزيد»، تلك التى لعب فيها «مروان بن الحكم» و«سعيد بن العاص» دوراً كبيراً فى «المدينة» .

«موقف المدنيين من البيعة بولاية العهد ليزيد»

لم تنل قضية من القضايا اهتمام المدنيين على مختلف طوائفهم مثلما نالته قضية ولاية العهد «ليزيد» فكانت حديث الألسنة فى المجالس منذ كشف عنها «معاوية بن أبى سفيان» ، ولقد لعب ولاة «معاوية» على «المدينة» دوراً بارزاً فى حسمها لصالح الخليفة.

والدارس لتلك القضية فى مصادر التاريخ الإسلامى يجد نفسه أمام تساؤلات هامة أغفلت المصادر الإجابة عن بعضها ولابد للإجابة عنها حتى يبدوُ الأمر واضحاً بكافة ملابساته للقارئ ، ولسوف نجمل هذه التساؤلات محاولين الإجابة عنها من خلال استنطاق النصوص واستقراء واقع الأحداث وتسلسلها.

وأسئلتنا التى نطرحها على النحو التالى: ـ

(١) متى أمّ «المغيرة» حاضرة الدولة الأموية لإطلاع «معاوية» على فكرة البيعة بولاية العهد «ليزيد» ؟.

(٢) ما الدوافع التى جعلت معاوية يولى العهد لولده ؟.

(٣) فى أى عام جاهر فيه «معاوية» المدنيين وغيرهم طالبٌ المبايعة لولده بولاية عهده ؟.

(٤) لماذا عارض بعض أبناء الصحابة «بالمدينة» تلك البيعة ؟.

(٥) هل حظيت فكرة البيعة «ليزيد» بولاية العهد على رضا الأمويين؟.

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول .

أولاً - ذكر المؤرخون أن فكرة البيعة بولاية العهد «ليزيد»

تفتق عنها ذهن «المغيرة بن شعبة»؛ ليتقرب بها إلى «معاوية بن أبى سفيان» ويجعل منها وسيلة تبقى على ولايته «للكوفة»، بعدما أرجف المرجفون فيها بأن «معاوية» مزمع على عزله عنها وتوليتها «لسعيد بن العاص» ؛فعقد الخناصر على أن يؤم «دمشق» حتى يقابل بها «يزيد» فَيُغْرِيه بالعمل على جعل أبيه يوليه ولاية عهده من بعده.

ولم تكشف لنا المصادر النقاب عن التاريخ الذى وصل فيه «المغيرة» لدمشق.

ومن ثَمّ ، فإنه صار لزاماً على الباحث فى تلك القضية أن يعمل جاهداً لتحديد تاريخ تلك الزيارة السياسية لحاضرة الدولة الأموية ؛ لما لها من عظيم الأهمية فى استخلاص النتائج المترتبة على تلك المسألة.

فإن هذه الزيارة فى رأينا تمت فى الفترة الواقعة بين سنتى سبع وأربعين

وثمانى وأربعين، لأن «سعيد بن العاص» لم يكُنّ «معاوية» ولاه عملاً من أعماله بعد. ليس هذا فحسب ،بل إن «سعيد بن العاص» كان فى «الكوفة» خلال تلك الحقبة ؛ وآية ذلك ،ما ذكره «الطبرى»، من أن كاتب «المغيرة بن شعبة» لما سمع ما أرجف به الكوفيون من عزل «المغيرة» وأيلولة مصرهم إلى «سعيد» أمّ داره وكان عنده بعض الكوفيين ؛ فنقلوا إلى «المغيرة» زيارة كاتبه إلى «سعيد بن العاص» ، فلما عاد «المغيرة» من «دمشق» جاءه كاتبه يعتذر عن زيارة «سعيد» وهو يقول: والله ما غَشَشْتُكَ ولاخُنتك ولا كرهت ولايتك، ولكن «سعيدا» كانت له عندى يدٌ وبلاء؛ فشكرت ذلك له)(1).

فَذِكْرُ «الطبرى» زيارة كاتب «المغيرة» «لسعيد بن العاص» مجردة من قوله ، صار إليه فى «المدينة» ، يؤكد أن «سعيدا» كان «بالكوفة» .

ومن ثَمّ كان خبر إزماع «معاوية» توليته يجرى على ألسنة الكوفيين بشكل جعل «المغيرة» يتأكد منه ؛ فقرر زيارته «لدمشق» لوأد قرار عزله قبل إصدار «معاوية» له.

ولإن قال قائل: لماذا كان هذا التاريخ المذكور سلفاً لهذه الزيارة وليس قبله أو بعده؟

قلنا له : إن العلاقات كانت بين «معاوية» و «المغيرة» على أكمل ما تكون بسبب ضبط الوالى لِمَصْره ؛ ومعاونته لخليفته فى التخلص من «عقبة» كبيرة كانت تواجهه ، والمتمثلة فى «زياد بن أبيه» ؛ فأنشأ «المغيرة» يقرب بينه وبين «معاوية» حتى كان ما كان من أمر استلحاق

(1) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ٣٠٢

الخليفة «لزياد» سنة أربع وأربعين(٤٤)هـ ، وبنجاح هذه المساعى التى تمت على يدى «المغيرة» وتولية «معاوية» «البصرة» «لزياد» سنة خمس وأربعين للهجرة ، يجعل من المقبول عقلاً ومنطقاً ألا يعجل «معاوية» بأخذ موقف من «المغيرة» كهذا فى ذلك الوقت مع عدم وجود الدواعى إليه، بل على العكس؛ فإن المنطق يقضى أن يعمل «معاوية» على تقريب هذا الداهية إليه حتى يستفيد منه أكثر فأكثر!

ولقد وهم أحد الباحثين المحدثين حين ذكر سنة ٤٩هـ تاريخاً لزيارة «المغيرة» حاضرة الدولة الأموية للقاء؛ «يزيد» ثم «معاوية»[١] ،ولأن هذا لا يستقيم والرواية التى أوردها «الطبرى» فى شأن هذه الزيارة إلى «دمشق» ،حيث ذكر أن «المغيرة» لقى «يزيدا» خلالها فى حين أن «الطبرى» نفسه، ذكر أن «يزيدا» كان يجاهد «الروم» فى هذا العام الذى ذكره الباحث[٢].

ليس هذا فحسب ،بل برجوعنا :إلى «الطبرى»، وهو المصدر الذى عوّل الباحث عليه فى إثبات تاريخه لم نقف على رواية ذكره هذاالتاريخ المزعوم لزيارة «المغيرة» حاضرة الدولة الأموية.

أضف إلى هذا كله أنّ قولاً من الأقوال الواردة فى وفاة «المغيرة» يُؤرخ لها فى سنة ٤٩هـ [٣]؛ فلو سلمنا جدلاً بصحة التاريخ الذى زعمه الباحث لتلك الزيارة؛ فلماذا لم يذكر لنا كيف يرد على هذه المآخذ التى تنفى قوله هذا بالكلية، وليس بعد ذلك ؟

ولأن «معاوية» ولى «سعيد» المدينة سنة ٤٩هـ فمن الطبيعىّ أن

(١) رياض عيسى : النزاع بين أفراد البيت الأموى / ٦١

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ٢٣٢

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٥ / ٢٣٣

يكون إرجاف الكوفيين حدث في التاريخ الذي قررناه لزيارة «المغيرة» ومن ثمّ فإن التاريخ الأخير لا محل له، سيمًا وأن واليهم «المغيرة» قد توفى هذه السنة أو التى بعدها على قول من الأقوال المذكورة فى تاريخ وفاته كما سلفنا.

وسواء أصح هذا التاريخ الذى حددناه لتلك الزيارة، أم لم يصح ؛ فإن «المغيرة» لما وصل «دمشق» التقى «بيزيد بن معاوية» وقال له :إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى - ﷺ - وآله وكبراء قريش وذووا أسنّانهم، وإنما بقى أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد تلك البيعة وقال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم، فدخل «يزيد» على أبيه وأخبره بما قال «المغيرة»؛ فأحضر «المغيرة» وقال له :ما يقول «يزيد»، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد «عثمان» ، وفى «يزيد» منك خلف؛ فاعقد له ؛ فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك، ولا تسفك دماءٌ، ولا تكن فتنة، وقال: ومن لى بهذا؟ قال: أكفيك أهل «الكوفة»، ويكفيك «زياد» أهل «البصرة»؛ وليس بعد هذين المصْرين أحدٌ يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى، فودعه ورجع إلى أصحابه ؛ فقالوا:مه؟ قال: لقد وضعت رِجْلَ معاوية فى غرزٍ بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً، وتمثل قول الشاعر :

بمثلى شاهدى النجوى وغالى   بى الأعداء والخِصْمُ الغضابا(1)

---

(1) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
- ابن الأثير / الكامل / جـ ٣ / ٥٠٣ ، ٥٠٤
- يوليوس فلهوزن / تاريخ الدولة العربية / ١٣٤ ، ١٣٥

على كل حال ؛ فإن «معاوية» أخذ يعمل على تولية العهد لولده لأسباب ودوافع اختلف الباحثون فيها.

ثانياً : الدوافع التى جعلت «معاوية» يخص ولده دون غيره بولاية عهده.

اختلف المؤرخون والباحثون حول ما إذا كانت فكرة ولاية العهد قد بعثت فى ذهن «معاوية بن أبى سفيان» قبل زيارة «المغيرة» إلى «دمشق» أم أن هذه الفكرة أخذت تعرف طريقها إلى النور بعد تلك الزيارة ؛

فالذين قالوا بالرأى الأول ذهبوا إلى أن «معاوية» وهو السياسى الأريبُ الذى يتعامل بحنكةٍ مع واقع الأمة مستلهماً العبر من ماضيها، راسماً بذلك كلهّ طريقاً لمستقبَلها؛ ففكر فيما عسى أن تكونَ عليه الأمةُ إن وافته المنية .

أتعود إلى سيرتها الأولى زمن «عثمان»؟ ثم (عليّ)، وتفتح أبواب الفتن من جديد ؟ أم أن هناك شخصاً يمكن للأمة أن تُسلِمَ المقادة إليه فيوليه عهده ؟

فوجد أنه لا سبيل يُجنِّب الأمة الفتن والمآسى بسبب منصب الخلافة إلا أن يولى عهده لواحد يعمل على رضا الأمة عنه، واضعاً فى سبيل تحقيق تلك الغاية كل إمكانياته المالية والعقلية والعشائرية (١).

ولما كان «معاوية» يرى غير واحد من أبناء الصحابة الأعلام لديهم الطموحات فى الخلافة معتمدين فى ذلك على أسانيد تجعل منهم قوىً

(١) ابن الأثير / الكامل / جـ ٣ / ٥٠٦-١٥٠٦ . عبد العزيز غنيم ثورة العلويين / ١١٨

ينافس بعضها بعضاً؛ فإنه من الأوفق، والحالة هذه أن يوليها لولده «يزيد».

ولا يستطيع الباحث المنصف أن يُجَنِّب «معاوية» دافع الأبوة، وهو يعمل على جعل ولاية العهد «ليزيد»؛ لأن هذا أمر طبيعي في علاقة الأب بولده[1].

أما من قال بالرأي الثاني ؛ فقد خالف ظاهر الروايات التي جاءت في «الطبري» و «ابن الأثير» من أن «المغيرة بن شعبة» فكر في أمر ولاية العهد «ليزيد»، حتى يحفظ «الكوفة» لنفسه مدة طويلة حين يظهر الحب والولاء «لمعاوية» - رضوان الله عليه -

وقال: إن الدافع لتلك الزيارة لم يكن إلا لشعور «المغيرة» بالخوف على الأمة إن مات «معاوية» دون أن تعرف أمصار الدولة وليّ عهد له، إذ هو ممن عاش أحداث «عثمان» و «عليّ» و «معاوية» ،وممن رأى كيف انتقلت الخلافة بهدوء من «أبي بكر» بعد وفاته إلى «عمر»، ومن ثَمّ راح يعرض رأيه على «معاوية» لا يبتغي به سوى وجه الله ؛ ثم ما ذكرناه. ودلّلَ صاحب هذا الرأي على ذلك أيضاً بأن «المغيرة» طلب من «معاوية» الاستعفاء غير مرة؛ فأبى؛ نظراً لحاجة الخليفة إليه في ضبط المصر[2].

ونحن نرى أن الرأيين يلتقيان عند حقيقة واحدة تسمو بالرجلين أيما سمو وهي، الخوف على مصلحة الأمة، بغض النظر عما إذا كان «معاوية» هو الذي دفع إلى هذا العمل من تلقاء نفسه ؛ للأسباب التي بينها، أم أن

(١) محمود شاكر / التاريخ الإسلامي / جـ ٤ / ١٢٠
- عبد الشافي / العالم الإسلامي / ١٢٤
(٢) رؤية حول الأحداث في عهد معاوية/ د/عبدالمنعم الصاوي ٢٢٤ ، ٢٢٥

«المغيرة» هو الذى بعث فى نفسه التفكير فى الأمر؛ فراح يقلبه فى ذهنه؛ ثقرّ رأيه على القيام به ؛ لما فيه من فوائد تعود على الأمة بالخير.

فيذكر المؤرخون أن «المغيرة» أوعز إلى من يثق بهم من شيعة «معاوية» بأن يذهبوا إلى «دمشق» ليعرضوا على «معاوية» توليته العهد لولده وجعل عليهم ابنه «موسى» ؛ فقدموا على «معاوية» ودعوه إلى عقدها، فقال: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم، ثم قال «لموسى»، بكم أشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً؛ فقال: لقد هان عليهم دينهم.

وقيل: أرسل أربعين رجلاً، وجعل عليهم ابنه «عروة بن المغيرة»؛[1] فلما دخلوا على «معاوية» قاموا خطباء فقالوا: إنما أشخصنا إليك النظر لأمة محمد -ﷺ- وقالوا: يا أمير المؤمنين ، كبرت سنك، وخفنا انتشار الحبل؛ فانصب لنا علما ، وحُدّ لنا حداً ننتهى إليه ؛ فقال: أشيروا على، فقالوا: نشير «بيزيد» ابن أمير المؤمنين، قال: أو قد رضيتموه؟ قالوا: نعم: قال: وذاك رأيكم، قالوا: نعم. ورأى من وراءنا ، فقال معاوية «لعروة»: سراً عنهم، بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار،: قال لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً، وقال لهم :«ننظر ما قدمتم له ويقضى الله تعالى ما أراد، والأناة خير من العجلة؛ فرجعوا وقد قوى عزم

---

(١) ابن شعبة الثقفى أبو يعقوب الكوفى .

ذكره غير واحد فى الثقات، ولاه الحجاج الكوفة سنة (٧٥) وذكره فى تسمية عمال الوليد على الصلاة «بالكوفة» سنة (٧٩) غير واحد من المؤرخين

- ابن حجر : تهذيب التهذيب / جـ ٧ / ٩٨٩

«معاوية» على البيعة «ليزيد»[1]؛ فعقد مؤتمراً «بدمشق» مثّل فيه المدنيين وفدٌ بقيادة «محمد بن عمرو بن حزم» [2] ؛ فخطب «معاوية» المجتمعين مبيناً لهم ضرورة أن ينظروا فى أمر من يخلفه من بعده ؛ولم يعين لذلك شخصاً بعينه ؛ فقام «الضحاك بن قيس» فى المجتمعين خطيباً فقال: أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به، إنا قد بلونا الجماعة والألفة، والاختلاف والفرقة؛ فوجدناها ألَمّ لشعثنا، وأمنة للسبل، وحاقنة لدمائنا، وعائزة علينا فى عاجل ما نرجوه وآجل ما نأمل مع ما نرجو به الجماعة من الألفة، ولا خير لنا أن نتفرق سدى، والأيام عوج رواجع، والله يقول: «كل يوم هو فى شأن»، ولسنا ندرى ما يختلف به العصران، وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه، نسأل الله بك المتاع، وقد رأينا ما هو عليه «يزيد» ابن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه وقصد سيرته، ومن نعنيه مع ما قضى الله له من المحبة فى المسلمين، والشبه بأمير المؤمنين فى عقله وسياسته وشيعته المرضية ما دعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والفتوح به فى الولاية علينا فليوله أمير المؤمنين أكرمه الله عهده ، وليجعله لنا ملجأً ومفزعاً بعده نأوى إليه إن كان كون؛ فإنه ليس أحدٌ أحق بها منه؛ فاعزم على ذلك عزم الله لك فى رشدك ووفقك فى أمورنا[3].

(١) ابن الأثير / الكامل / جـ ٣ / ٥٠٤ ، ٥٠٥
- النويرى / نهاية الأرب / جـ٢٠ / ٣٤٨ ، ٣٤٩
- محمد الخضرى / الدولة الأموية / ٤٤٤ ، ٤٤٥
(٢) ابن زيد بن لوزان الأنصارى، أبو عبد الملك ، ولد فى حياة النبى- ﷺ- سنة عشرة « بنجران» ، وتوفى يوم الحرة سنة ثلاث وستين للهجرة .
- ابن حجر : تهذيب التهذيب/ جـ ٥ / ٣٧٠
(٣) الإمامة والسياسة / المنسوب لابن قتيبة / جـ ١ : ١٤٣
- محمد الخضرى / الدولة الأموية / ٤٤٥ ، ٤٤٦

ولم تذكر لنا المصادر أن ممثل المدنيين قد أبدى رأيه فى هذه المسألة حين كان «بدمشق»، وإن كنا نستطيع الوقوف عليه من خلال ما ذكرته المصادر عنه فى واقعة الحرة كما سنبينه؛ فهو إذن قد ترك حاضرة الدولة الأموية، وهو غير مقتنع بما أزمع عليه «معاوية» من توليه العهد لولده «يزيد».

ولعل «معاوية» هو الآخر، قد لمس ذلك من خلال لقائه بالوفود فى «دمشق»؛ فأيقن ألاعَقَبة تقف فى سبيل إتمام البيعة لولده بولاية العهد سوى «المدينة» و«مكة» .

وهذا صحيح؛ لأن فيهما الصحابة، وأبناءهم الذين لهم وزن فى إتمام أمر الخلافة(١) ، بل من أبنائهم من سيطالب بها بعد وفاة الخليفة؛ ولذلك أزمع «معاوية» على مجاهرة المدنيين بحقيقة طويته ؛ ليرى موقفهم من ولده، ويلتمس الوسائل لمعالجته.

ثالثاً: تاريخ مطالبة معاوية المدنيين بالبيعة لولده

إن من يقرأ المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى قصد الوقوف على تاريخ دقيق لتسلسل الأحداث الخاصة بمجاهرة «معاوية» المدنيين بنيته جعل ولده ولى عهده من بعده يجد نفسه أمام روايات ذكرها أصحابها دون تاريخ، أو ذكروا لها تاريخاً يتعارض مع تواريخ أخرى .

ومن ثَمّ ؛ فإن مهمة الباحث فى تحديد التاريخ جدّ عسيرة ، وتحتاج إلى إعمال العقل ؛ لمحاولة الربط بين الأحداث فى تسلسل تاريخى يقربنا إلى تاريخ مقبول ومعقول لتتابع أحداث قضية البيعة بولاية العهد على أرض

---

(١) رياض عيسى / النزاع بين أفراد البيت الأموى / ٦١

«المدينة»؛ فنقول: إن من يقرأ «تاريخ الطبرى» فى سنة (٥٠) هجرية يستطيع الوقوف على زيارة «معاوية» «للمدينة» وذلك لأمرين :

أولهما ـ ماذكره بخصوص رغبته نقل منبر مسجد رسول - ﷺ - من «المدينة» إلى «الشام» وإقلاعه عن ذلك لما أَمّ مقر إقامته بالمدينة «أبو هريرة» و «جابر بن عبد الله»، فقالا له: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عز وجل أن لا تفعل هذا، فإنه لا يصلح أن تُخرج منبر رسول الله - ﷺ - من موضع وضعه، وتخرج عصاه إلى «الشام»، فانتقل المسجد، فأقصر وزاد فيه ست درجات، فهو اليوم ثمانى درجات، واعتذر إلى الناس مما صنع [١] .

فلو كان معاوية قد حدث المدنيين فى أمر البيعة لولده بولاية عهده فى هذه السنة لذكرها «الطبرى» وهو الذى لم يغفل الإشارة إلى قضية نقل المنبر وتصدى الصحابة «لمعاوية» بخصوصها ثم اعتذاره لأهلها.

ثانيهما: أن «الطبرى» أورد قولين مختلفين حول من حج بالناس فى هذا العام، يقول أحدهما إنه «معاوية» والآخر ولده «يزيد»، ونحن نرجح الأخذ بالرأى الثانى ،على اعتبار أن «معاوية» قصد إليه حتى يظهره للمدنيين بمظهر المسؤول وليس بمظهر صاحب اللعب، والكلاب، واللهو، مثلما أشاعه أعداؤه عنه، وتوطئة لقبوله حين يطلعهم على رغبته بتوليته عهده .

فزيارته الأولى «للمدينة» إذن ،نستطيع أن نعدها زيارة استطلاعية أو تفقدية مهد بها لما تمنى تحقيقه لولده. ومما يدعم رأينا أن «يزيد» كان إليه الحج بالناس فى العام التالى دون خلاف بين المؤرخين[٢].

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ٢٣٩

(٢) ابن الجوزى (المنتظم/ جـ٥ / ٢٤٤

ـ النويرى / نهاية الأرب / جـ ٢٠ / ٣٤٢ .

ومن هنا فلا عبرة عندى لما زعمه بعض الباحثين فى مؤلفاتهم من أن سنة (٥٠هـ) هى التاريخ الذى أعلم «معاوية» فيه المدنيين رغبته فى جعل «يزيد» ولى عهده[1]، لأن هذا لم يصرح به «الطبرى» كما ألمعنا قبل ذلك، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن أصحاب المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامى أجمعوا على أن الكتاب الذى أرسله «معاوية» لعامله «بالمدينة» يطلب فيه البيعة بولاية العهد لولده كان «لمروان بن الحكم» وكان معزولاً عنها سنة (٥٠هـ)، ثم أعاده «معاوية» سنة (أربع وخمسين (٥٤هـ).

فهذا كله يجعلنا نجزم بأن إطلاع (معاوية) للمدنيين على اختياره «ليزيد» ولى عهده قد كان فى الولاية الثانية «لمروان بن الحكم» على «المدينة» تلك التى استمرت لسنة سبع وخمسين هجرية.

وأن الزيارة التى قام بها «معاوية» إلى «المدينة» وطالب فيها أهلها بالبيعة «ليزيد» قد كانت سنة ست وخمسين (٥٦هـ) «فابن الأثير» وغيره من المؤرخين أتوا على ذكرها فى هذا العام أثناء حديثهم عن زيارة الخليفة لها ثم ذهابه إلى «مكة» للعمرة[2]

وعلى كل حال فإن «معاوية» أسبق زيارته «للمدينة» سنة ٥٦هـ بكتاب لعامله «مروان بن الحكم» جاء فيه:

---

(١) محمود شاكر / التاريخ الإسلامى/ جـ ٤ / ١٢٠

ـ فاطمة مصطفى / تاريخ الأسرة الطالبية / ١٠٧ ـ ١٠٨

(٢) ابن الأثير / الكامل / جـ ٣ / ٥٠٩

(إنى قد كبرت سنى ودق عظمى، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقودهم بعدى، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، اعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك؛ فقام «مروان» فى الناس؛ فأخبرهم به؛ فقال الناس: أصاب ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا، فلا يألو، فكتب «مروان» إلى «معاوية» بذلك؛ فأعاد إليه الجواب يذكر «يزيد». فقام «مروان» فيهم وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل، وقد استخلف ابنه «يزيد» بعده) .

فقام «عبد الرحمن بن أبى بكر»[1] فقال: كذبت والله يا «مروان» وكذب «معاوية» ! ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات «هرقل». قام «هرقل». فقال «مروان» : هذا الذى أنزل الله فيه: (والذى قال لوالديه أف لكما)

فسمعت عائشة مقالته ؛ فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان ، يا مروان؛ فأنصت الناس وأقبل «مروان» بوجهه فقالت : أنت القائل «لعبد الرحمن» إنه نزل فيه القرآن؟ كذبت !والله ما هو به ولكنه فلان بن فلان

---

(١) شقيق عائشة أم المؤمنين أسن ولد الصديق / اختلف فى تاريخ إسلامه فقيل : قبل فتح «مكة» وقيل: عند فتحها ؛ فأسلم مع «معاوية» وآخرين حارب أصحاب «اليمامة» فقتل منهم سبعة، اختلف فى تاريخ وفاته قيل : توفى ٥٦ وقيل: (٥٨) والله أعلم .

ـ ابن سعد/ الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ٣٦٧ ـ ابن حجر: تهذيب التهذيب / جـ ٦ / ١٤٦ ، ١٤٧

ولكنك أنت فضض[1] من لعنه نبى الله ،وقام «الحسين بن علي»؛ فأنكر ذلك، وفعل مثله «ابن عمر» و «ابن الزبير»؛ فكتب «مروان» بذلك «لمعاوية».[2] فلما وقف الخليفة على ما كان من الحال فى «المدينة» وكيف أن الفتنة توشك ان تندلع فى أرضها بين الأمويين المتعصرين لوليها، وبين المعارضين للبيعة «ليزيد» بولاية العهد، أى أن هذا الأمر لن يتم إلا إذا سار بنفسه إلى «المدينة»؛ لتدبيره مع أخذه فى الأعتبار .موقف أعلام أبناء الصحابة المعارضين لبيعة ولده بعد ما علم أمرهم من كتاب« مروان» ، كما هو بين فى الرواية التى سلفنا ذكرها.

---

(١) أي خرجت من صلبه متفرقاً ، يعني ما انفض من نطفة الرجل وترد في صلبه وقيل في قوله : أنت فضض من لعنة الله أردت أنه قطعة منها .
- ابن منظور : لسان العرب / مادة فضض .
(٢) ابن أعثم / الفتوح ـ جـ ٤ / ٢٣٢ ، ٢٣٣
الإمامة والسياسة / المنسوبه لابن قتيبه / جـ ١ / ص ١٤٣ ، ١٤٤
ـ ابن الأثير الكامل : جـ ٣ / ٥٠٦ ـ ٥٠٧

رابعاً : موقف المدنيين المعارضين لبيعة يزيد:

لما وصل معاوية إلى المدينة خرج أهلها للترحيب به ، فهش وبش فى وجوههم، ثم أبدى عبوساً وفتوراً فى وجوه أولئك الذين علم بمعارضتهم البيعة بولاية العهد لولده ،ثم رقى مراق منبر المسجد النبوى وألقى فى أهل «المدينة» خطبة ، بدأها بعد حمد الله والصلاة والسلام على حبيبه الذى اصطفاه ، ثم ذكر قائلاً :من أحق بالخلافة من ابني«يزيد»؛ فى فضله،وهديه ومذهبه وموضعه من قريش ؟ والله إنى لأرى قوة ما يعيبونه، وما أظنهم بمقلعين ولا منتهين حتى يصيبهم منى بوائق تجيب أصولهم فليرفع أولئك على ضلعهم من قبل أن تصيبهم منى فاقرة لا يقومون لها؛ فقد أنذرت إن نفع الإنذار وبينت إن نفع البيان، قال :ثم جعل يتمثل بهذه ويقول :

قد كنت حذَّرتك آل المصطلق

وقلت يا عامر ذرنى وانطلق

إنك إنْ كلفتنى ما لم أطق

ساءك ما سرك منى من خُلُقٍ

دونك مااستقيته فاحسن وذق[1]

وتتفق المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى على أن «معاوية»- رضوان الله عليه- ،التَقَى «عائشة» أم المؤمنين فى منزلها ،ودار بينهما حديثٌ تناول بطبيعة الحال أمر البيعة لولده «يزيد» ؛ إذْ لمْ يشغل المدنيون سواه شاغلٍ .

---

(١) ابن الأعثم/الفتوح:جـ٤/ ٢٣٥. ٢٣٦،النويرى:نهاية الأرب/جـ٢٠/ ٣٥٦، وفيه «عمرو» بدل «عامر» .

فحدَّثْتهُ عن الأخبار التي صلوت تتناقلها ألسنة الناس «بالمدينة» بِعَزْمِه على إراقة دماء من عارض البيعة لولده «يزيد».

فقالت له:بلغنى أنك تهددهم بالقتل؛ فقال:يا أم المؤمنين:هم أعزُّ من ذلك،ولكنى بايعت «ليزيد»،وبايعه غيرهم،أفتَرَ ينّنى أن أنقض بيعة قد تمت قالت:فارفق بهم ؛ فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله ،قال: أفعل[1] .

وهنا تختلف رواية صاحب الإمامة والسياسة ومن دار فى فلكه مع رواية «ابن الأثير».

فالأول يذكر أن «معاوية» التقى بزعماء المعارضة واحداً بعد آخر أثناء إقامته «بالمدينة» وأنه استحلف كل واحد منهم ألا يخبر أحداً عن الذى دار بين الخليفة وبينه،وأنه لما لمْ يَظْفَرْ من هذه المقابلات بطائل ،غادر «المدينة» إلى «مكة» ،ليس هذا فحسب ، بل خالف غيره فى وصف لقاء «معاوية» «للحسين» وغيره حين وصل «للمدينة» فقال:إنه أبْدَى ترحيباً عظيماً حين وقعت عينُهُ عليهم [2].

فى حين يذكر الثانى أن «معاوية» لم يبد ذلك الترحيب بزعماء المعارضة إلا بعد أن غادر «المدينة»؛ فلقيهم وهو ذاهب إلى «مكة».

ولا أرى النفس تسكن إلى بعض ما جاء فى روايات «ابن قتيبة» ومن دار فى فلكهفقد ذكرت ما يفيد أن «حُسَيْناً»- رضوان الله عليه- خالف قسمه «لمعاوية» حين أجلس له «ابن الزبير» على الطريق من يعترضه،ليقف

(١) ابن الأعثم:الفتوح/جـ٤/٢٣٦ ، ٢٣٧ ،النويرى:نهاية الأرب/جـ٢٠/٣٥٦.

(٢) الإمامة والسياسة : المنسوبة لابن قتيبة/جـ١/١٥٨ ، ١٥٩.

منه على ما دار بينه وبين «معاوية» من حديث ، حتى يكون «ابن الزبير» على بينة من أمره وهو يحدث «معاوية» فقال ما نصه:(يقول لك أخوك «لابن الزبير» ما كان؟فلم يَزَلْ به حتى استخرج منه شيئاً)(١) .

وهيهات أن يقع «الحسين» -رضوان الله عليه-في مثل ذلك،وهو من هو في صدقه،ووفائه .

وعلى كل حال؛ فإننا نسجل الذي دار بين «معاوية» وأعلام المعارضة لبيعة «يزيد» من خلال ما ذكره «ابن أعثم» و«ابن الأثير»كلاهما.

فنقول إن «معاوية» أولى أعلام المعارضة جلّ عنايته،وعظيم رعايته خلال إقامته «بمكة»؛ فلم يدع يوماً يمضي إلاّ ويلقاهم ويحرص على قضاء حوائجهم وَوَصْلهم بصنوف الصلات،فلما دنا وقت مغادرته بعد قضائه لنسكه ،أشخص إليهم من جاء «بالحسين،» و«عبد الله بن الزبير» و«عبد الله بن عمر» و «عبد الرحمن بن أبي بكر» ؛ فقال لهم:(قد علمتم سيرتي فيكم،وصلتي لأرحامكم،وحملي ما كان منكم، «ويزيد» أخوكم وابن عمكم،وأردت أن تقدموه باسم الخلافة،وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك،فسكتوا ،فقال:ألا تجيبون مرتين؟!

ثم أقبل على «الزبير» فقال:هات لعمري،إنك خطيبهم؛ فقال نعم،نُخيِّرُكَ بين ثلاث خصال،قال:أعرضْهُنَّ،قال:تصنع كما صنع رسول الله»- ﷺ- ،أو كما صنع «أبو بكر» ،أو كما صنع «عمر» ،قال معاوية»:

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة/جـ١/١٥٩ ،ابن الجوزي/المنتظم/جـ٥/٢٨٦ ، ٢٨٧.

ما صنعوا ؟قال:قبض رسول الله - ﷺ - ولم يستخلف أحداً،فارتضى الناس «أبا بكر»،قال:ليس فيكم مثل «أبى بكر»،وأخاف الاختلاف، قالوا:صدقت؛ فاصنع كما صنع «أبو بكر»؛ فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه ،فاستخلفه،وإن شئت فاصنع كما صنع «عمر»؛ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من والده،ولا من بنى أبيه،قال «معاوية»:هل عندك غير هذا؟ قال: لا، ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قولُه، قال: فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقول: إلىَّ القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح وإنى قائم بمقالة،فأقسم بالله لئن رد علىَّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا،لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى سبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه،ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجلٍ من هؤلاء رجلين،ومع كل واحد سيف؛ فإن ذهب رجل منهم يرد علىَّ كلمة بتصديق أو تكذيب ؛ فليضرباه بسيفهما[(١)].

فلما كان اليوم التالى على لقاء «معاوية» بهم،أمرمؤذنه أن يؤذن فى الناس بالاجتماع فى «المسجد الحرام» فلما استيقن من اجتماعهم،ولا سيما أعلام المعارضة،صعد المنبر،وألقى فى المجتمعين خطبة أعلمهم فيها ،أن الناس كلهم أجمعوا على البيعة، «ليزيد» بولاية العهد، ومنهم أولئك الأعلام؛ فطلب «الشاميون أن يبايعوا أمامهم «يزيد» وإلا ضربت أعناقهم، فنهاهم «معاوية» عن ذلك وانصرف المجتمعون بعد فراغ «معاوية» من خطبته وهم لا يداخلهم شك فى أن «حسيناً» ومن معه بايعوا

(١) ابن أعثم/الفتوح/جـ٤/٢٤٥، ٢٤٦.
- ابن الأثير : الكامل / جـ٣ / ٥١٠ ، ٥١١.

«يزيد» بولاية العهد، ولم يتبين «للمكيين» و «المدنيين» نقيض ذلك إلا بعد أن ترك «معاوية» «مكة» متوجهاً إلى «الشام»[1]

ولقد وقف الباحثون من هذه الرواية التي ذكرها «ابن أعثم» ومن دار في فلكه موقفا متبايناً ؛ فمنهم من سلّم بحدوثها ، ومنهم من شكك في وقوعها؛ فمن الأول ، ما ذكره أحدهم بعد أن عرض لتلك الرواية مُعقباً على ما قاله «معاوية» للأعلام بأن يقبلوا مبايعة «يزيد» ويكونوا هم أصحاب الحول والطول في الدولة ، ولا يكون لولده من المنصب سوى الاسم .

وهذه الحيلة من حيل «معاوية» ، يُمَنِي ويمعن في التمنى ؛ليخضع القوم،ولا يضره بعد ذلك أن يخالف ما مَنَّى به، إن وصل إلى ما يريد،فعل ذلك«بالحسن» وكاد أن يفعل ذلك مع «قيس بن سعد»[2]، فلا عليه أن يفعله مع باقي النفر،وهو يعلم أن الذي يقوله لهم،ويعدهم به أمرٌ مُسْتَحِيل، وإلا كيف لنا أن نتصور أن هؤلاء سَيَعْزِلُونَ، ويَأمرون، ويَجْبُون المال ويقسمونه ، رضى «يزيد» أولم يرض،وإن كان «معاوية» يريد ذلك حقاً،ففيم يسعى ليجعل «يزيد» خليفة،هل كان يريدها له خلافة اسمية،ليس له من الأمر فيها شيء؟ اللهم إنا لا نقوى على أن نظن هذا «بمعاوية»ولكنّا نظن أن «معاوية» أراد أن يخدع الناس لا لشيء غير ذلك، إلى أن قال في نهاية تعقيبه على مجمل الرواية.

---

(١) ابن اعثم: الفتوح / جـ٤/٢٤٩، الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة/جـ١/ ١٦٢ ، ١٦٣ ،ابن الجوزي:المنتظم/جـ٥ / ٢٨٧.

(٢) ابن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي بن ساعدة الأنصاري، من فضلاء الصحابة دفعه أبوه إلى رسول الله حتى يكون في خدمته ، كان إلى جوار «علي» في الفتنة بينه وبين «معاوية» تولى أمر «مصر» في عهد «علي»،توفي سنة تسع وخمسين من الهجرة أو التي بعدها ، ابن الأثير/أسد الغابة/جـ٤/ ١١٩ ، ١٢١.

(وهكذا حمّل «معاوية» القوم مالم يقولوه ، وما ليس لهم برأى ؛ يرجو بذلك، أن يفرغ من البيعة «ليزيد» وأن يبايع له الناس غير متخلفين،ولقد كان هؤلاء النفر ممتنعين عن البيعة،ويريدون أن يفسدوا الأمر على «معاوية»فلم يجد «معاوية» بداً من أن يحملهُمْ على البيعة قسراً بتلك الطريقة التى رآها ودبرها)[1] .

ومن الثانى:ما ذكره «يوليوس فلهوزن» بعد أن عرض للروايات التى تناولت البيعة بولاية العهد «ليزيد» فى «الطبرى»و«ابن الاثير»، فقارن بينهما ثم قال: (نستطيع على هذا أن نفترض أن «معاوية» حفظ خطته زمناً طويلاً فى نفسه،وحاول فى أواخر حياته تنفيذها،ولكن ذلك لم يجد نفعاً عند الأشخاص الذين كان الحصول على موافقتهم،وبيعتهم أهم ما فى الأمر؛ لأنهم بحسب الإسلام كانوا أحق بالخلافة من «يزيد»، أما ما عدا ذلك فليس بمقبول قط، ولا يبدوا أنه مما يتفق مع شيمة «معاوية» ،وهو السيد الحليم ذو السنّ أن يذهب إلى «الحجاز» فى فترة يسود فيها السلام وعلى رأس ألف فارس لكى يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة الفظة ثم يدللهم ويتودد إليهم ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شىء من الحقيقة؛لأنهم هم أنفسهم،وكانوا أهم من كل من عداهم،رفضوا بيعة «يزيد» رفضاً باتاً،أما القول بأنه دخل «مكة» على رأس قوة مسلحة وفى «مكة» لا فى «المدينة»، أخذ البيعة؛ فهو قول أبعد مايكون عن الإمكان، والكلمات،والمناظر المسرحية التى قد زينت بها القصة لا تجعلها أقرب إلى التصديق ويبدو أن كل الروايات التى تقدم ذكرها لا تعدوا أن تكون ظلاً قد أرسل مُقدّماً للحوادث التى وقعت فى زوال خلافة «يزيد»[2].

---

(١) إبراهيم الإبيارى:معاوية الرجل الذى أنشأ دولة/٢٥٦ . ٢٥٨.

(٢) يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية/١٣٩ . ١٤٠.

فأنت ترى أن هذا المستشرق يُنْكِر بالكلية أن يكون «معاوية» قد فعل شيئاً يغضب أعلام المعارضة فى «الحجاز» أو يثير عليه الحجازيين وعندى أن هذا صحيح ؛ فإن «معاوية» يريدها خلافة مطمئنة آمنة ولا أتصوره يقوم بأمر لم يكن تعرف عواقبه عند فعله فى البلد الحرام.

فلم يكن من المستبعد والحالة هذه أن يؤدى إلى سفك دماء ، وهيهات أن يكون «معاوية» مضرب المثل فى الحلم والملاينة ممن تغيب عنه هذه الأمور وأشباهها .

ولم يكن صاحب تاريخ الدولة العربية ممن تفرد بالشك فى هذه الرواية والتمس أدلة لهدمها ؛ فإن غيره من الباحثين العرب قد شك فى صحتها وساق أدلة تنفى حدوثها ..

فقال :إنها أشبه شىء بما يقوله الشيعة،وتكاد تكون منقولة عنهم،أو صنعت فيما بعد صنعاً ماهراً قد انطلى على الكثير ممن غاب عنهم الحقيقة.

ثانياً:إن هذه المظاهرة العسكرية كما تبدوا فى وضع رجلين من الحرس بالسلاح على رأس كل واحد من هؤلاء النفر، أمر يلفت نظر الناس فى المسجد فلا أقل من أن يسألوا قائلين :لماذا يقف الحراس بالسلاح على رؤوس« ابن عمر» و«ابن الزبير» و«ابن أبى بكر» و«ابن عباس» ؟فمن المعلوم أنه إذا كان هناك أمر يدبر فلا بد أن يكون داعياً لحذر الناس ومفسداً لما يدبره «معاوية».

ثالثاً: نستبعد على هؤلاء، الجبن وخوف القتل،بصورة تجعلهم لا يتكلمون وهم يسمعون الخليفة يكذب عليهم وعلى الأمة،ويقضى باسمهم فى مستقبلها إلى أمدٍ غير محدود، وهم يعلمون أن سكوتهم هذا سيحمله القوم على رضاهم بالبيعة «ليزيد» ؛ فلا يكون لهم وجه فى المخالفة بعد أن خرجوا على الخليفة .

رابعاً :يتفق «ابن الأثير» مع «ابن كثير» وغيرهما على أن الناس فى جميع الأقاليم وفى «الحجاز» -أيضاً- قد بايعوا ما عدا هؤلاء النفر من أعلام،فلا كان الأمر هكذا، فما وجه الحرص على بيعة نفر قليل وهم إن لم يبايعوا لما أنقص ذلك شيئاً من بيعة أغلبية الأمة؟وهم بالفعل لم يبايعوا وتمت خلافة «يزيد» وما من خليفة سبق إلا قد خولف .

خامساً : إن فى وصية «معاوية» لابنه «يزيد» دليلاً على أن هؤلاء النفر لم يبايعوا؛ فقد وردد فى وصية«معاوية» «ليزيد» أنه قال له :

(أنا لا أخش عليك إلا هؤلاء النفر وذكرهم ؛ فلو كانوا قد بايعوا فما الداعى إذاً إلى تحذير «معاوية» لابنه «يزيد» منهم ما داموا قد بايعوا من قبل؟) (١)

وإن كنا نوافق هذا الباحث فيما ذهب إليه ، إلا أننا نختلف معه فى جعله وصية «معاوية» لولده عند وفاته دليلاً على نفى رواية مبايعة الأعلام «ليزيد» حين كان «معاوية» «بمكة» لأنه وعلى فرض تسليمنا بصحة الرواية، فالخليفة يعلم يقيناً أن «حسيناً» ومن معه لم يبايعوا فعلاً، وإن بدا ذلك للعيان ظاهراً.

ومن ثم كانت الوصية لولده بأن يأخذ حذره منهم .

وعلى فرض نفى الرواية فمن الطبيعى إذن أن يوصى ولده كى يأخذ حيطته منهم لأن البيعة التى تمها لولده فى أمصار الدولة الإسلامية انعقدت ولم يبايع له« الحسين »و«ابن الزبير» ومن معهما.

(١)د. عبد المنعم الصاوي / رؤية جديدة حول الأحداث في عهد معاوية ٢٣٨ - ٢٣٩.

وعلى كل حال ؛ فإننا نرى بعد هذا العرض لأراء الباحثين الذين قبلوا الأخذ بما ذكره «ابن أعثم» وغيره من المؤرخين ، وأولئك الذين رفضوها ، أن واقع الأحداث يجعلنا نذهب مذهب الذين تشككوا فى فعل «معاوية» مع أبناء الصحابة وتهديده إياهم بالقتا إن لم يبايعوا ؛

لأن المرء لا يتصور نكس «الحسين» بيعته «ليزيد» بخروجه عليه فى خلافته إلا فى حالة عدم مبايعته إياه وكذلك خروج «ابن الزبير» على الخليفة «يزيد» وللأسباب التى سلفنا ذكرها على ألسنة غير واحد من الباحثين الذين أبوا قبول تلك الرواية ؛

فإننا نجزم بعدم صحتها على الرغم من ذيوعها وشهرتها فى مصادر التاريخ الإسلامى .

وقبل أن نولى وجهنا شطر تساؤلنا الخامس والأخير من تساؤلاتنا التى طرحناها فى مستهل حديثنا عن ولاية العهد «ليزيد» وموقف المدنيين منها.

نذكر أن معارضة أبناء الصحابة البيعة «ليزيد» كانت لهم أسبابهم التى اعتمدوا عليها فى موقفهم هذا كما يقول أحد المؤرخين المحدثين ،وهى: (أن النبى - ﷺ - ،والشيخين من بعده، لم يكن من سنتهم توريث الخلافة من الأباء للأبناء فقد ترك النبى -عليه الصلاة والسلام- الناس من أقاربه وجعلها «عمر» فى ستة ليس منهم من هو من قبيلتة، فضلاً عن عشيرته).

ثانياً : هذه المآخذ التى كانوا يلاحظونها فى «يزيد» فقد كان صاحب رسلة وتهاون كما وصفه الأصدقاء،وكان صاحب شراب وكلاب كما وصفه الخصوم والأعداء .

ثالثاً : أن أبناء المهاجرين وعلى رأسهم «الحسين بن على» قد كانوا أحياء وكان لآبائهم من الفضل والسابقة ما ليس «لمعاوية»، وكان لهم هم من المكانة فى الدين والمنزلة فى قلوب المؤمنين ما ليس «ليزيد».

رابعاً : أن «يزيد» هو ابن الخليفة ،وهو بهذه الصلة متهم بالمحاباة من جانب أبيه ،وأن الخليفة لم يقصد من وراء توليته مصلحة الأمة ،بقدر ما يقصد منه دوام الملك فى أسرته وإناطته ببيته وذوى عشيرته .

خامساً : أن معاوية لم تكن له تعلة يتعلل بها لإسناده الأمر إلى ولده من بعده سوى خوف الفرقة والرغبة فى التئام شمل الجماعة ، وأنه قد كبر سنه ودق عظمه وهو يخش أن يترك المسلمون كالضأن لا راعى لها ولا حافظ،وهذا الهدف كما ترى لا يتوقف بلوغه على استخلاف «يزيد» بقدر ما يتوقف على استخلاف غيره ممن لا سبيل إلى الطعن عليه والنيل من أخلاقه وسيرته[1] .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن عدم مبالاة «معاوية بن أبى سفيان» بمعارضة أبناء الصحابة البيعة لولده بولاية العهد والمضى قدما فى خطته كان السبب فى أن تعيش «المدينة» و«مكة» بعد عهده أوقاتاً بالغة القسوة والصعوبة أريقت فيها دماء عشرات من قاطنى المدينتين المقدستين [2].

---

(١) د/عبد العزيز غنيم/الثورات العلوية/١٣٤ ، ١٣٥.

(٢) محمدالخضرى :الدولة الأموية/٤٨.

خامساً : موقف أمويى المدينة من البيعة بولاية العهد ليزيد

كان من المعتقد أن يعم الفرح بنى أمية لما وجدوا «معاوية» يعمل بجدٍّ واجتهاد فى سبيل حصر الخلافة فيهم.

غير أن هذا الاعتقاد كان يسود لو أن «معاوية» يعمل على إشاعة توارثها فيهم.

ومن ثم بدل أمويوا «المدينة» سرورهم بخلافة «معاوية» تربصاً وتَحَفُّزاً به حين أعلن فكرة ولاية العهد لولده،وقارنوا بين «يزيد» وبين أساطين البيت الأموى مثل «مروان» و«سعيد بن العاص».

وقالوا :من أحق بالخلافة؟ أهما؟ أم «يزيد»؟ الأقل منهما علماً وأصغرهما سناً ؟!

فالتقى الأمويون حول «مروان»؛ لما كان واليا على «المدينة» ؛ فأموا «دمشق»،والتقوا فيها الخليفة،وتبادل خطباؤهم الكلام فى حضرته.

ولأن المقام لا يتسع لإيراد تفاصيل أحاديث كل واحد منهم؛فإننا سوف نجزىء عنها ببعض فقرات تفوه بها «مروان» فى حضرة «معاوية بن أبى سفيان» مطالباً فيها بحق الأمويين فى وراثته؛ لأنهم الذين آزروه،وشدوا ملكه،وحفظوا له «المدينه»،وامنوها له!! فمما قاله :(فما لنا لا نستأمر فى رُضَّاعها،ونحن فُطامها،وأولات فُطامها ؟وَأَيْمٌ الله لولا عهود مؤكدة،ومواثيق معقدة،لأقمت أود واليها،فأتِمِّ الأمر يا« ابن أبى سفيان»،

واعدل من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نُظرا، وإن لهم عن مناوأتك وزرا(١).

فأجابه «معاوية» إجابة ترضيه، ولو إلى حين ليمتص غضب الأمويين، ثُمَّ يَعْمد بعد هذا إلى ما يريد سالكاً فى سبيل ذلك ما وسعه من وسائله السياسية التى زخرت بها المصادر التاريخية ؛ فقال (يا ابن العم نرجوا استقامة أودها ،وذلولة صعوبتها ،وسُفُور ظلمتها ،حتى يتطأطأ جسيمها ،ويركب بك عظيمها ،فأنت نظير أمير المؤمنين بعده،وفى كل شدة عضده،وإليك عهد عهده ؛ فقد وليتك قومك،وأعظمنا فى الخراج سهمك،وأنا مُجيز وفدك، ومحسن رِفْدك،وعلى أمير المؤمنين غناك،والنزول عند رضاك)(٢) .

فأنت ترى كيف استطاع «معاوية» أن يجنب بيته الانقسام وأن يحافظ فى الوقت نفسه على تحقيق مآربه فى جعل الخلافة من بعده لولده.

وما كان الرجل يستطيع فعل هذا، إلا إذا كان من طراز «معاوية» يحرص على أن يمسك بيديه جميع خيوط اللعبة السياسية،ولا يفرط فيها مهما كانت المعاذير والمحاذير !!

---

(١) الإمامة والسياسة : لابن قتيبة جـ١ / ١٥٢،د. عبد الشافى/ العالم الإسلامى، ١٤٠.

-رياض عيسى: النزاع بين أفراد البيت الأموى،٨٨، ٨٩ .

(٢)الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة جـ١/١٥٢،يوليوس فلهوزن/تاريخ الدولة العربية/ ١٣٠، ١٣١،د/عبد العزيز غنيم/الثورات العلوية/١٣٧.

وبذلـك:

ينجح «معاوية» فى جعل ولده ولىّ عهده من بعده بعد ما جابت رسله أمصار الدولة وانتقاله بنفسه بين «مكة» و«المدينة» يُمَنّى هذا تارةً ويهادن ذاك أخرى .

ويتضح لنـا :

- أن المعارضة للبيعة لم تكن «علوية» أو «زبيرية»أو «أموية» بل كانت منهم جميعاً،وإن اختلفت الغايات منها.

- أن فكرة ولاية العهد فكرة إسلامية؛ لما لها من سوابق فى عهد «الصديق» ثم «عمر»

- أن ما أنكره «العلويون» الشيعة -على «معاوية» من حَصْرِ الخلافة،فى «الأمويين» وإن شئت فقل فى «السُّفْيَانيين»مؤقتاً . نادى به الشيعة ؛ حين قالوا : بحصر الخلافة فى «على» وبنيه !!

هذا ولكل رأيه الذى دافع عنه،ونحن لا نقول فى حقِّهم إلا قولاً واحداً،أنهم ما أرادوا إلا مصالح الأمة واجتهدوا ،وللمجتهد أجرٌ،وإن جانبه الصواب فى اجتهاده .

ولنا أن نتساءل،لماذا أتَتْ المعارضة من الأمويين الذين جعلوا « المدينة» و «مكة» مسكناً لهم،ولم تأت من أمويى «الشام» ؟

والجواب ،إن الكثرة من الأمويين فى هذا الوقت كانت تُقيم «بالمدينة»،وأنهم بما تمتعوا به من الإقامة بين ظَهْرَانَىَ الصحابة وأبنائهم من

أولى المكانة فى الدولة الإسلامية ،غَدَوْ أقوى شَكيمةً وأصلب عوداً عن غيرهم من الأمويين المقيمين فى بلاد «الشام» والذين رَضَوا بما أغدقه عليهم «معاوية» من الأموال ؛ فأمات فيهم طموحاتهم بخلاف أمويى «المدينة»؛ فإنّ الخليفة ما استطاع من خلال علاقته بهم،والحرص على وصلهم أن يكبح جماح طموحاتهم فى طلب المزيد من المناصب،أو المراكز فى الدولة .

وآية ذلك أن من أمويى «المدينة» من قاد السفينة الأموية حين عصفت بها الرياح ولعبت بها الأنواء بعد وفاة «معاوية» الثانى كما سنبينه فى حينه على صفحات كتابنا .

ومهما يكن من أمرٍ ؛ فإن صفحة من صفحات ولاة «المدينة» وعلاقتهم بالخلافة الأموية طويت بوفاة «معاوية» للنصف من رجب سنة ٦٠هـ لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الولاة بالمدينة حين استوى على أريكة الخلافة «يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان» .

ولاة المدينة فى عهد يزيد

لما آل أمر الدولة الإسلامية إلى« يزيد بن معاوية»بناءً على ولاية العهد التى أجهد أبوه نفسه فى تحقيقها له،أخذ يدبِّر الأمور فى أول عهده تدبير أبيه لها ، فأبقى على ولاته فى الأمصار حتى يفيد من خبراتهم،ويعرف من خلالهم دقائق الأمور فى دولته[1] ومنهم «الوليد بن عتبة» واليه على «المدينة» ،الذى تولى أمرها من قبل «معاوية بن أبى سفيان» فى سنة سبع وخمسين للهجرة ،وإذا ما أراد الباحث كشف النقاب

(١) الطبرى/جـ٥/٣٣٨،ابن كثير/البداية والنهاية/جـ٨/١٤٦،السيوطى/تاريخ الخلفاء/٢٠٥.

عن علاقة ولاة المدينة بالخليفة «يزيد بن معاوية» لا يَتَيَسَّرُ له ذلك إلاَّ إذا جمع حديثه بين واليين ولأهما «يزيد» أمر «المدينة» .

أولهما: «الوليد» الذى أشَرْنَا إليه آنفا .

ثانيهما: «عمرو بن سعيد» والى «يزيد» على «مكة» ،حيث إن «يزيدا» جعل ولايته على «المدينة» بين ولايَتَيْنِ «للوليد»،مما يدل على قوة الترابط بين «مكة» و«المدينة»، وتأثر كلتيهما بالأحداث التى تقع بالأخرى،ناهيك عن كون «يزيد» جعل ولاية «مكة» بينهما بالتبادل،ولأن «الوليد» أثَّر فى الأحداث تأثيراً مترابطاً؛ فإن ذلك يجعلنا نبدأ الحديث بالترجمة لهما،ثم نذكر الأحداث السياسية التى أثرت فى علاقتهما «بيزيد» والعكس .

فأما «الوليد بن عتبة» هو «ابن أبى سفيان بن حرب الأموى»، لم تذكر المصادر تاريخ ميلاده حتى يتسنى لنا الوقوف على سنه حين عهد إليه «معاوية» بولاية «المدينة» .

ولقد شهد له العلماء والثقات،بالجود،والحلم،والسؤدَدْ والديانة[1] !! وهذا صحيح؛ فإنه كان يؤثر السلامة فى معالجته للأمور على ما عداها،ويقدم من الخير،مما جعله موضع رضا المدنيين الذين قارنوا بينه وبين سلفه «مروان» فى إدارته لدفة حكم المدينة، كما سنبينه .

ولقد نال «الوليد» من السّوء ما ناله حين عاشت الدولة الأموية فترة الاضطراب السياسى بعد وفاة «معاوية الثانى» فقد اعتُقِلَ مع آخرين بأمرٍ

(١) الذهبى/سير أعلام النبلاء/جـ٣/٥٣٤.

«من الضحاك بن قيس»[1] لأنهم نالوا من «ابن الزبير» و «الضحاك» على المنبر؛ فوثبت قبيلتَيْ «كلب»،و«غسان»؛فأطلقت سراح أتباعهم،وبقى «الوليد بن عتبة» وحيداً يندب حَظّه !!لأن أحداً لم يَسْعَ لإطلاق سراحه .

فقال :(لو كنت من كلب أو غسان لأخرجت) ،فعند ذلك تدخل «خالد»،و«عبد الله بن يزيد بن معاوية»،وهما الأخوان الأصغران «لمعاويةالثانى»؛ فجاءوا ومعهما أخوالهما من «كلب»، فأخرجوه من السجن.

وكان«الوليد» من القلائل الذين اتجهت إليهم أنظار الأمويين وغيرهم فى هذا الوقت لجعْلِ الخلافة إليه؛ لما له من دين، ومكانة عظيمة بينهم، إلا أنه لم يعش طويلاً؛ فقد داهمه الطاعون الذى أماته سنة أربع وستين بعد «معاوية الثانى» بقليل[2] .

وأما الوالى الثانى الذى ولاه «يزيد» على «المدينة»؛ فهو «عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد أبو أحيحة بن العاص بن أمية بن عبد شمس» المعروف بالأشدق[3].

(١) ابن خالد بن وهب بن ثعلبة بن واثلة بن الفهر،توفى رسول الله - ﷺ- وقد بلغ «الضحاك» من العمر ثمانى سنوات على أرجح الأقوال،ولاه «معاوية» «الكوفة» ثم دعا لنفسه بعد وفاة «معاوية الثانى» ثم «لابن الزبير» بعد ذلك .
توفى فى معركة «مرج راهط» على يدى «مروان»، سنة أربع وستين على قول أو التى بعدها على قول،ابن حجر/الإصابة/جـ٢ ، ٢٠٧

(١) الذهبى:سير أعلام النبلاء: جـ٣/٥٣٤،ابن العماد الحنبلى:شذرات الذهب/جـ١/٧٢.

(٢) عرف بهذا الاسم؛ لأنه كان[أفقم مائلاً إلى الذقن،ولهذا سمى لطيم الشيطان وربما سمى الأشدق لتشادقه فى الكلام]
- ابن شاكر: فوات الوفيات :جـ٢/٢٣٢.

وأمه «أم البنين بنت الحكم بنت أبى العاص بن أمية بن عبد شمس» تولى أبوه أمر «المدينة» من قبل «معاوية» .

لما قبض النبي إلى الرفيق الأعلى كان «عمرو» يبلغ من العمر ٨ سنوات روى حديثاً واحداً عن رسول الله - ﷺ - .

قال بعض العلماء: لا تصح له رواية، بل تصح له رؤية، يكنى بأبى أمية وكان من الرجال الأكفاء الذين استعان بهم «يزيد بن معاوية» -كما سنبينه- ، شارك بفاعلية فى التأثير على مجريات أحداث الدولة الإسلامية خلال فترة الفراغ السياسى التى أعقبت وفاة «معاوية الثانى»بحيث لم يتمكن «مروان ابن الحكم» من الخلافة إلا بعد أن استطاع ضَمَّه إليه بوعده إياه بأن يكون أمر الدولة إليه بعد «عبد الملك» .

ولقد كان «عمرو بن سعيد» مُحَبَّباً لأهل الشام،قام بأعمال خلال خلافة «عبد الملك» جعلته يَسْتَرِيبُ فيه،ويخشى على خلافته منه؛ فأزمع «عبد الملك» على قتل «عمرو بن سعيد» بيديه سنة سبعين على الراجح،وهذا لم يمنع «عبد الملك» من الثناء عليه،بعد موته؛ فقد قال: وكأنه يُعَلِّلُ لفعله الذى فعله «بعمرو بن سعيد» أن كان أبوأمية لأحَبُّ إلىَّ من زهر النواظر ولكنِّى والله ما اجتمع فحلان فى شوال إلا أخرج أحدهما صاحبه[1] ،ورثاه «يحيى بن الحكم» أخو «مروان» بقوله :

أعينى جودى بالدموع على «عمرو»

عشية سدنا الخلافة بالخير

(١) ابن سعد/الطبقات الكبرى:جـ ١٨٣/٥ ، ١٨٤،ابن حجر:تهذيب التهذيب : جـ٣٧/٨ ، ٣٨.

كأنّ بنى مروان إذ يقتلونه

بغاثٌ من الطير اجتمعن على صقر

غدرتّم بعمرو يا بنى خيطِ باطلٍ[1]

ومثلكمُ يبنى البيوتَ على غدرِ

فرحنا وراح الشامتونَ بنعشه

كأنّ على أكتافنا فلق الصخرِ[2]

وبعد الإلماع إلى أبرز معالم الحياة التى عاشها الواليان من ناحية النشأة والمكانة،وما كان من أمر خاتمة حياتهما ، يَجْدُرُ بنا الإشارة إلى الأحداث السياسية البارزة التى كانت أرْضُ «المدينة» مَسْرحاً لفصولها،والتى كان لها ما بعدهامن عظيم الأثر على تاريخ الدولة الإسلامية بعد ذلك ومن بينها .

موقف أعلام المعارضة من بيعة «يزيد» بالخلافة :

فإنه من الطَّبَعِى أن يسير الخليفة بعد استوائه على أريكة الحكم،الكتب إلى أمصارِ دولته طالباً فيها البيعة له بالخلافة،فمبايعتهم له بولاية العهد لم تكن إلا ترشيحاً للمنصب،إذ لا يمكن أن تكون البيعةُ تامةً نافذةً بالمفهوم الاصطلاحى لدى علماء النُظم لاثنين فى وقتٍ واحدٍ .

---

(١)الضوء الذي يدخل من الكوة يقال : هو أدق من خيط باطل (حكاه ثعلب) وقيل : خيط باطل هو الذي يقال له لعاب الشمس ومخاط الشيطان، وكان «مروان بن الحكم» يلقب بذلك لأنه كان طويلاً مضطرباً، قال الشاعر

لحي الله قوماً ملكوا خيط باطل	علي الناس يعطي من يشاء ويمنع

- ابن منظور / مادة خيط .

(٢) ابن شاكر الكتبي : وفيات الوفيات / جـ٢/ ٢٣٣.

ومن ثمَّ فإذا مات الخليفة أخذت البيعةُ من جديد لمن رَشَّحَهُ الخليفةُ وليَّ عهده .

فإذا رُفِضَت تلك البيعة ورُفِضَ الترشيحُ معها؛ فيرشح أهل الحل والعقد رجلاً آخرَ تُؤْخَذُ له البيعةُ [1]،وهذا ما كان ؛فإن «يزيد» أرسل «رزيق» مولى أبيه بكتاب إلى واليه على «المدينة» «الوليد بن عتبة» فيه نَعْيُ «معاوية»؛ فوصلها ليلاً وطلب الإذن فى الدخول على الوالى؛ فدفع إليه الكتاب الذى فيه :

أمـا بعــدُ

فإن «معاوية» كان عبداً من عباد الله،أكرمه الله،واستَخلَفَهُ،وخَوَّلَ له،ومكَّنَ لله،فعاش بِقَدَرْ،ومات بأجَلْ،فقد عاش محموداً،ومات بَرّاً تقياً،والسلام .

وكتب إليه فى صحيفةٍ كأنها أُذُنُ الفأرةِ

أمـا بعــدُ

فَخُذْ «حُسَيْناً»، و«عبد الله بن عمرْ»، و«عبد الله بن الزبير»،بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رُخصةٌ حتّى يبايعوا، والسلام .

وذكر «ابن أعثم» روايةً لكتاب «يزيد إلى الوليد» تخالفُ تلك التى ذكرناها من وجوهٍ .

إحداها – أنه طلب من «الوليد» قتل «الحسين» دون إمهال أو إمهاله

---

(١) محمود شاكر:التاريخ الإسلامى:جـ٤/١٢٨.

ثانيها - أنه طلب من واليه ألا يعرض «لابن الزبير» ويتركه للخليفة حتى يرى بنفسه ما يكون من أمره معه .

ثالثها - أن الخليفة وعد «الوليد» بجزيل العطايا إنْ أنْجَزَ له ما طلبه فى كتابه [(١)].

وعندى أن هذه الرواية غير مقبولة،حيث إنها لا تتوافق والبداية التى بدأها «يزيد» عهده فى دولته.

فهو أبقى على عمّال أبيه حفاظاً على استقرار الأمور ورغبةً منه فى عدم إثارةِ القلاقلِ فى وجهه،وهذه أيضاً تتعارضُ مع الوصيةِ التى وصاهُ بها «معاوية »،من عدم الإساءة «للحسين» والحذر من «ابن الزبير » ،ولست أدرى كيف يتصورُ المرءُ أن يطلبَ الخليفة من والية قتلَ «الحسين» وهو من هو فى مكانته وعشيرته، ويدع له «ابن الزبير» حتى يجرد الجيوش للتخلص منه ، كما أن هذه الرواية لم تأتِ على ذكرِ الموقفِ من المعارضين الآخرين مثل «عبد الله بن عمر» وهذا يجعلها ناقصةً، ناهيك عن كونِ صاحبها شيعي ، له موقفٌ من الخليفةُ «يزيد» بسبب ثورة «الحسين» ؛ مما يجعل المؤرخَ المُنصِفَ يقفُ موقفَ المحَلّل المدَقّقْ لكلّ الأخبارِ التى يذكرها عن «بنى أمية» قصد أن يكونَ حكمُه محايداً .

والذى يدلُّكَ على ضعفِ الرواية ؛ أنَّه ذكرَ إرسال «الوليد» فى طلب «الحسين» مرةً واحدةً ، ولم يكررُ الطلبَ بعدَ ذلك مع بقاء ابن بنت رسول - ﷺ - يومين «بالمدينة» حسب ما ذكرته روايته يختلفُ فيهما إلى قبرِ جدّه

---

(١)ابن أعثم : الفتوح/ جـ٥/ ٢٦.

عليه الصلاةُ والسلامُ لمناجاته فهو إذنْ غيرُ محجوب عن الأعينْ ، ومن ثَمَّ ، فإن ذلك يجعلُ الوالى فى حرجٍ من أمره إن لم يبادرْ بالقبضِ على «الحسين» تنفيذاً لأوامر الخليفة .

وسواء أصح ما ذهبنا إليه فى الحكم على تلك الرواية أم لم يصح ؛ المؤرخين الآخرين ذكروا أن «الوليد بن عتبة» جزع جزعاً شديداً لخبر وفاة «معاوية» وأنشأ يفكر فى ما عساه أن يفعل مع هؤلاء الذين طلب «يزيد» مبايعتهم له بالخلافة ، فزاده هماً !! لأنه قد خبر مقاومتهم حين طالبهم «مروان» بالبيعة «ليزيد» بولاية العهد .

بل إنهم استطاعوا مراوغة «معاوية» وهو من هو !! فوجد «الوليد» نفسه أمام أمرٍ عظيم ، يحتاج فى النهوض به إلى من يشدُّ أزره ، وَيَبُثُّهُ النصيحة فيما يفعل إذاءه .

وهنا يذكر «الدينورى»:أن «الوليد» بعث إلى «مروان بن الحكم» طالباً حضوره لمشاورته،والذى جعل «الوليد» يبادر إلى طلبه دون غيره من الأمويين،أن الرجل كانت إليه رياسة البيت الأموى فى «المدينة»،وأنه كذلك عاش أحداث معارضة «الحسين» ومن معه البيعة بولاية العهد «ليزيد» عِيشَةَ المدبِّر المُسَيِّر للأمور .

فاعتقد «الوليد» أن رأيه والحالة هذه سيكون على جانب كبير من الأهمية.

وهنا خطأ كبير وقع فيه الوالى؛ لأن «مروان» قد وقف موقف المعارض لولاية «يزيد» عهد أبيه،وإن أبدى الرضا على حدِّ قول بعض الروايات على

أساس أن يكونَ له الأمرُ من بعده، وأنه فى هذا الوقت يعيش بعيداً عن الأضواء فى «المدينة» ؛ فكان على «الوليد» أن يعتمد على استشارة غيرهُ،وأخذ الحذرَ منه لأنه يهمُّه إثارة القلاقل فى وجه «الوليد» وليّهُ ؛حتى يصفوا الجوُّ «لمروان» فى «المدينة»؛ فتعود ولايتها إليه من جديد،وآية ذلك؛ ما جاء فى مصادر التاريخ الإسلامى من أن «الوليد بن عتبة»لما أرسل فى طلب «الحسين» جاء فى مواليه، فدخل والى «المدينة» وحده،وسلّم عليه؛ فدفع «الوليد بن عتبة» إليه الكتاب الذى أشخصه «يزيد بن معاوية» ؛ فقرأه «الحسين»؛ فاسترجع، وقال: رحم الله «معاوية»، وعظّم لك الأجر؛ فدعاه الأميرُ إلى البيعة؛ فقال له «الحسين» :

إن مثلى لا يبايع سراً،وما أراك تجتزىء مني بهذا، ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم؛ فكان أمراً واحداً، فقال له «الوليد»: - وكان يُحبُّ العافية - ؛ فانصرف على اسم الله حتى تأتينا فى جماعة الناس؛ فقال «مروان» و «الوليد»:

(والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه؛فاحبسه،ولا تُخرجه حتى يبايع،وإلاَّ ضُرِبَتْ عُنُقه؛ فَنَهَضَ «الحسين» وقد أغلظ القول «لمروان») [(١)].

فأنت ترى أن «مروان» أراد أن يَشْتَدَّ «الوليد» على «الحسين» فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ لِتَنْشَبْ بسبب ذلك حرب بين المسلمين،ولا يقال،إن «مروان» نصح بما نصح فى شأن الشدة على «الحسين» بدافع توطئة الأمور

(١) الدينورى؛ الأخبار الطوال:٢٢٧ ، ٢٢٨،النويرى؛ نهاية الأرب:٣٧٩ ، أحمد شلبى:موسوعة التاريخ الإسلامى:جـ٢/١٩٣،فاطمة مصطفى /تاريخ الأسرة الطالبية/١١١ ، ١١٤.

للسلطان،وعدم فتح أبواب الفتنة من جديد،حين يَحْمِلْ «الحسين» ومن معه راية المعارضة من جديد فى وجه «يزيد»، وكثيراً ما أقدم الحكام على قتل من يُناوئهمْ أو اعتقالهم تدعيماً لسلطانهم .

ومن ثَمَّ فلا يلام «مروان» على قوله «للوليد»،والجواب عندى .

إن هذا وإن جاز للحكام فى شأن المُعَارضين لما ذكر فإنه لا يجوز فى حق «الحسين» لقرابته من الرسول-ﷺ- ؛ ولأنه «ابن علىّ بن أبى طالب» -رضوان الله عليه- الذى كان بالأمس يقود حرباً ضروساً فى وجه «معاوية ابن أبى سفيان»؛ فكان «الوليد» على مستوى المسئولية بحق حينما وضع كل هذه المحاذير نُصْبَ عَيْنَيْهِ وهو يعالج أمر البيعة مع «الحسين» ،صحيح أنه أخفق في أخذ البيعة «ليزيد» من «الحسين» الذى ترك «المدينة »ولاَذَ «بمكة» كما قال «مروان»،وأن موقف «الوليد» صار ضعيفا أمام خليفته «يزيد»، إلا أن ذلك أَهْوَنُ بكثيرٍ مما كان سَيُجَابِهُهُ فى المدينة إن فعل ما أراده «مروان» من «الحسين»، ناهيك عن الاثم العظيم الذى سَيَلْقَى به رَبَّهُ إن هو أراق دم «الحسين» من أجل البيعة «ليزيد» .

أما «عبد الله بن الزبير»؛ فإن «الوليد بن عتبة» والى «المدينة»،أرسل فى طلبه بعد انصراف «الحسين» عنه؛ فأخذ «ابن الزبير» يماطل والى «المدينة» حتى انقضى الليل،واستطاع الخروج من «المدينة» إلى «مكة» يرافقه أخوه «جعفر» .

وَعَبَثاً حاول «الوليد» اللحاق «بابن الزبير»؛ فإنه قد جَدَّ فى السير

ليأوى إلى «مكة»،وينْجُو من ملاحقة «الوليد» له حتى لا يبايع «يزيد» بالخلافة[1].

ولقد اختلف المؤرخون فى شأن «عبد الله بن عمر» و«ابن عباس»؛ فمنهم من قال :إن «الوليد» طلب «عبد الله بن عمر»؛ فجاءه؛ فلما عرض عليه البيعة «ليزيد» قال:إن بايع الجميع بايعت وإن أبَوا أبيت،ومنها ما ذكر أن «الحسين» و«ابن الزبير» لقيا «ابن عمر» و«ابن عباس» وهما عائدان من «مكة» فحدثاهما عما «بالمدينة»، وما لقياه على يدى واليها «الوليد بن عتبة» من الملاحقة فى سبيل البيعة،فعادوا جميعاً إلى «مكة»[2]، وعلى أية حال؛ فإن «الوليد بن عتبة» لم يحقق لخليفته مأربه فى حمل أعلام المعارضة على البيعة له بالخلافة.

ومن ثمَّ عَجَّلَ بعزله عن «المدينة» ليوليها «عمرو بن سعيد الأشدق» واليه على «مكة» .

وعلى كل حال ؛ فإنَّ «عمرو بن سعيد» لما صَرَّفَهُ الخليفة عن «مكة» أمَّ «المدينة» فى رمضان سنة إحدى وستين من الهجرة.

وهنا يختلف أصحاب المصادر حول ما كان من كلام «عمرو بن سعيد» للمدنيين حين ارتقى المنبر بعد وصوله إليها؛ فذكر بعضهم أنه قال لأهل المدينة: بعد ما حمد الله وأثنى عليه وذكر ما صنع -«ابن الزبير» (تعوذ

---

(1) الطبرى:نهاية الأرب، جـ5/141،ابن الجوزى:المنتظم/جـ5/ 324، النويرى: نهاية الأرب، جـ20/ 379، 380.

(2) ابن كثير:البداية والنهاية/جـ8. 1147.

بمكة، فوالله لنغزونّهُ ثُمّ، والله لئن دخل «مكة» لنُحرِقَنها عليه على رغم أنف من رَغَم)[1] .

فأنت تراه يبدأ عهده مهدداً ومتوعدا للمدنيين الذين ربّما تُسوّل لهُمْ أنفسهم مؤازرة «ابن الزبير» الذى لم يمنعه منه مانع ، وأنه سَيَستَنْفِذ كل طاقاته من أجل القضاء عليه ،بغض النَّظرْ عن قدسية المكان الذى لاَذ به،ويُفْهَمْ من كلامه هذا ؛أن الجيوش التى سيستعين بها لتحقيق هذا الغرض ستكون من المدنيين ومن غيرهم وأنها ستنطلق من أرضهم،الأمر الذى أصاب كبار الصحابة والتابعين بقلق شديد .

وروى آخرون أن «عمرو بن سعيد» ذكر فى أول خطبة له فى المدنيين (ما بالكُم أهل «المدينة» تَرفَعون إلىّ أبصاركم،كأنكم تُريدون أن تَضْربونا بسُيوفكم أغركم أنّكم فَعلتم ما فعلتم؛ نعفونا عنكم ؛أما إنّه لو أُثبِتُم بالأولى ما كانت الثانية،أغركم أنكم قَتلتم «عثمان» نفاتكم ثَأرنا رفقاً منا ، قد فَنِيَ غَضَبَهُ، وبقى حِلمُنا اغتنموا أنفُسَكم؛ فقد والله مَلكناكم بالشّباب المُقبل،البعيد الأمل،الطويل الأجل،حين فرغ من الصّغر،ودَخل فى الكِبر،حليم حديد،ليِّن شديد، رقيق كثيف، رفيق عنيف؛حين اشتد عَظْمُه واعتدل جِسْمُه،ورمي الدَّهر ببصره، واستقبله بأشره؛ فهو إن عَضَّ نَهس، وإن سَطَ فَرس ؛ لا يُقَلْقِل له الحصى، ولاَتُقْرَع لهُ العَصا، ولاَ يَمْشى السُّمّى)[2] (الباطل أو الكذب) .

---

(١) خليفة بن خياط/تاريخ/٢٣٣.

(٢)ابن عبد ربه :العقد الفريد/جـ٤ / ١٣٢/ ١٣٣.

وهذه الخطبة كما يتضح لنا ،تتفق مع الرواية الأولى على أمر جوهرى،وهو التشدد الذى أزمع الوالى أخذ المدنيين به،وعدم التهاون مع من يخرج على رأيه من أهلها بغض النظر عن مكانته،وإن اختلفت الرواية الثانية عن الأولى ،فإن الوالى الجديد «عمرو بن سعيد» لم يأت على ذكر «ابن الزبير» فى خطبته،وهذا ما نراه صائباً،ذلك أنه قدم إلى «المدينة»،وهى كالمرجل الذى يغلى غلياناً بسبب مقتل «الحسين»؛ فلا يتصور منه،والحالة هذه،أن يبدأ حديثه مع المدنيين عن «ابن الزبير»، ليحرك فيهم أسباب الثورة،إذ أن «ابن الزبير» حين خرج «بمكة» أعلن أن الذى دفعه إلى ذلك هو الغضب من الخليفة الذى أطلق العنان لرجاله فقتل «الحسين بن على»، ولأن قال قائل: إن شدة الوالى التى بدت للعيان من خلال الروايتين اللتين أسلفنا ذكرهما ،كفيلة، باستمرار هذه الثورات.

قلنا له:إن ذلك غير صحيح؛ فإن الوالى ما أراد منها إلا أن يعيد كل واحد من ساكنى «المدينة» حساباته ولا يظن الوالى الجديد كسلفيه فى إيثار السلامة على غيرها فى سياسته.وبذلك يستتب له الأمن فى «المدينة» بسرعة،ومن الأمور التى تؤكد لنا أن الوالى قد ساس المدنيين سياسة أتت ثمارها المعجلة له حسب هواه،أنه استطاع السيطرة على شعور المدنيين وغضبهم حين بعث إليه «يزيد» (برأس «الحسين» فكفنها ودفنها بالبقيع إلى جنب قبر أمه فاطمة بنت رسول الله - ﷺ -)[1] ،دون حدوث اضطرابات أو ثورات على حكم الأمويين فى «المدينة» ، وتذكر المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى أن «يزيد بن معاوية» أرسل إلى «عمرو بن سعيد» عامله

(١) ابن سعد :الطبقات الكبرى/جـ٥/٩٨٤.

على «المدينة» يطلب منه تجريد الجيوش لطرد «ابن الزبير» من «مكة»[١] ، حيث وَصَلَته الأنباء منها إلى حاضرة الخلافة الأموية أن «ابن الزبير» جمع حوله الجموع، وأن أمره آخِذٌ فى الازدياد فى كل يوم يَمضى عليه، فرأى «يزيد» أنه من الأولى له مُعَاجلة «ابن الزبير» قبل اكتمال أمره، حتى يسهل القضاء عليه ؛ فلما وقف «عمرو بن سعيد» على ما طلبه الخليفة منه، أنشأ ينكل «بالزبيريين» فى «المدينة» بواسطة صاحب شرطته فيها «عمرو بن الزبير»، الذى ضرب «المنذر بن الزبير وابنه محمد بن المنذر» و «عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث»[٢] و «عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام» و «خبيب بن عبد الله بن الزبير»[٣] و «محمد بن عمار بن ياسر»[٤] وغيرهم ؛ فضربهم جميعاً، ما بين الأربعين إلى الستين جلدة[٥]

---

(١) ابن سعد :الطبقات الكبرى /جـ٥/ ١٨٤ ، ١٨٥.

(٢) ابن يزيد بن قيس النخعى أبو حفص الفقيه، يكنى «أبو بكر»، شهد له العلماء بالثقة، اختلف فى تاريخ وفاته سنة «تسع وتسعين» أو التى بعدها والله اعلم.
- ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ٦ ، ١٤٠١

(٣) ابن العوام الأسدى، روى عن أبيه و«عائشة» وغيرهما أسَنّ ولد«عبد الله بن الزبير» ليس له عقب / مشهود له بالعلم الغزير، وتوفى فى ولاية «عمر بن عبد العزيز» على «المدينة» سنة ٩٣هـ لما جلده بأمر من «الوليد بن عبد الملك»، فكان يلوم نفسه بعد ذلك، ويقول: كيف ألقى بى بعد الذى فعلته بالخبيب، ـ ابن حجر/تهذيب التهذيب: جـ ٣ / ١٣٥ .

(٤) مولى بنى مخزوم / له حديث واحد عن رسول الله - ﷺ - ، ذكره أبو داود فى سننه، اختلف العلماء فى تاريخ وفاته، فقالوا: إنها ما بين (٦٠إلى٧٠) ابن حجر/تهذيب التهذيب / جـ ٩ /٣٥٩ .

(٥) ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٨ / ٨٤٨.
- ابن الجوزى / المنتظم / جـ ٥ / ٣٢٤ ، ٣٢٥

أخذ «عمرو بن سعيد» يجول ببصره يميناً، ويساراً باحثاً عن قائد كُفْء، يوليه قيادة الجيش الذى يبعث به من «المدينة» إلى «مكة»، فشاور صاحب شرطته، «عمرو بن الزبير» فقال له: أنا أكفيك هذه المهمة ، وتولى قيادة الجيش فراق الأمر «عمرو بن سعيد»؛ لأنه لم يكن متحمساً «ليزيد»، وإنما أراد أن يضرب «آل الزبير» بعضهم ببعض[1] ، فولاه قيادة ذلك الجيش الذى ضم ألفى رجل[2]

حمل الوالى المدنيين على الانضمام إلى الجيش قسراً، فهدد بمنع صرف مُستحقاتهم المالية من الديوان إن لم ينخرطوا فى هذا الجيش، وألزم كل معتذر بأن يحضر إليه عوضاً عنه لِيضمهُ للجيش[3].

ومن الطبيعى أن نجد المدنيين كارهين الانضمام لهذا الجيش؛ لأن معظمهم رأى فيه انتهاكاً لحرمة «مكة المكرمة»؛ فالوالى وهو الذى لا يغيب عنه هذا الأمر، لم يجد السبيل أمامه إلا استعمال الشدة معهم حتى ينخرطوا فى صفوف هذا الجيش.

والذى يدلك على صعوبة انتهاك حرمة «مكة» على المدنيين أن «أبا شريح»[4] قال للوالى: لا تغزوا «مكة»؛ فإنى سمعت رسول الله - ﷺ -

(١) رياض عيسى : النزاع بين أفراد البيت الأموى / ٧٣

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ٣٤٦

- ابن الجوزى : المنتظم / جـ ٥ / ٣٢٤ ، ٣٢٥

(٣) الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة / جـ ٢ / ٣١

(٤) اختلف فى اسمه فقيل: «خويلد بن عمرو»، وقيل: «عمرو بن خويلد»، وقيل: «كعب بن عمرو» ، وقيل: «هانى بن عمرو» أسلم قبل فتح «مكة»، وكان من أصحاب الألوية يوم فتحها، توفى سنة ثمان وستين من الهجرة.

- ابن الأثير/ أسد الغابة/ جـ ٥ /١٦٥ ، ١٦٦ .

يقول: «إنما أذن الله فى القتال بمكة ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها؛ فأبى «عمرو» أن يسمع قوله، وقال: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ؛ فالحرم لا يُعيذُ عاصياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربه [١].

وقيل: إن «مروان بن الحكم» هو الذي اعترض على توجيه «عمرو بن سعيد» الجيوش إلى «مكة» [٢] ، وسواء أصح هذا القول، أم ذاك؛ فإن الذى لا مراء فيه كون اعتراض المدنيين أمراً ظاهراً تناقلته الألسنة، وكاد يشكل عقبة تَحولُ بين الوالى، وبين إنفاذ جيشه إلى الوجهة التى أرادها .

وقبل أن نمضى قدماً مع جيش المدنيين الذى وجهه، «عمرو بن سعيد» إلى «مكة» لقتال «ابن الزبير»، نود الوقوف وقفة متأنية، نُسلّط فيها الأضواء على العلاقة بين «مروان بن الحكم» والى «المدينة» الأسبق، وبين واليها الحالى «عمرو بن سعيد» لما لهذا من أثر عظيم على مجريات الأحداث بين «الزبيرين»«الأمويين» وما أصاب «المدينة» بسبب هذه العلاقات.

فيبدو لنا أن «مروان» لم يكن راغباً فى التعاون مع «عمرو بن سعيد» حين كان على «مكة» قبل «المدينة» ، وأن ذلك استمر يحكم علاقة الرجلين طيلة ولاية «عمرو بن سعيد» على «المدينة» ؛ فلم يكن له ناصحاً بالقدر الذى يُعينُه على ضبط الأمور فى ولايته، بل لم يكن يود القضاء على حركة «ابن الزبير» وهى ما تزال فى بدايتها حتى تقوى وتصبح شوكة فى ظهر «يزيد ابن معاوية»، وواليه على «المدينة»، وهذا الذى قلناه له فى مصادر التاريخ ما يدعّمُهُ :

---

(١) الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك/جـ٥/ ٣٤٦/ ابن الأثير/ أسد الغابة/جـ ٥/١٦٦

(٢) ابن الجوزي : المنتظم : جـ٥/ ٣٢٤ .

فقد ذكرت أن «يزيدا» لما علم بخروج «ابن الزبير» عليه، أقسم ألا يقبل منه عذراً، إلا أن يأتيه فى دمشق، وقد وضعت فى عنقه جامعة؛ فأرسل إليه سلسلة من فضة، مع «ابن عطاء الأشعرى» ، و«سعد»، وأصحابهما، ليأتوه به فيها، وبعث معهم «برنس خزْ» ليلبسوه عليها لئلا يظهر للناس فاجتاز «ابن عطاء» «المدينة»، وبها «مروان بن الحكم»؛ فأخبره ما قدم له، فأرسل «مروان» معه ولدين له، أحدهما «عبد العزيز» وقال : إذا بلغته رسل «يزيد» فتعرضا له، وليتمثل أحدكما بهذا القول، فقال:

فخذها فليست للعزيز بخطة   وفيها فعالٌ لا مرئٍ مُتَذلل

أعامرُ إن القومَ ساموكَ خُطة   وذلك فى الجيرانِ غَزلٌ بمغزَلِ

أراكَ إذا ما كنتَ للقومِ ناصحاً   يقالُ لهُ بالدلوِ أدبر وأقْبِلِ

فلما بلغه الرسول الرسالة، قال «عبد العزيز» الأبيات؛ فقال ابن الزبير: يا «ابنا مروان» ، قد سمعت ما قلتما ، أخبرا أباكما:

إنى لمن نَبْعة صم مكاسرها   إذا تناوحت القَصْباءُ والعُشَرُ

فلا ألين لغير الحق أسألُهُ   حتى يلين لضرس الماضغ الحجرُ

وامتنع «ابن الزبير» من رسل «يزيد» (١)

والمناسب ذكره هنا أن أموى «المدينة» شاطروا «مروان» موقفه من «عمرو بن سعيد» لما أراد توجيه الجيوش إلى «المدينة» .

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ٥ / ٣٤٦ .
- ابن الأثير / الكامل: جـ٤ / ٩٩ ، ١٠٠

وآية ذلك أننا رأينا الجيش يقوده غير أموى على الرغم من دقة المهمة التى أوكلت إليه.

ليتبين لناوالحالة هذه، أن العلائق غير الطيبة بين أفراد البيت الأموى «بالمدينة» والخلافة فى عهد «يزيد بن معاوية»، كانت من بين الأسباب التى أبقت على حركة «ابن الزبير» مدة طويلة من الزمن، وقعت خلالها «المدينة» تحت سيطرتهم كما سنبينه ،

ومهما يكن من أمر،؛ فإن الجيش وصل من «المدينة» إلى «مكة» بقيادة «عمرو بن الزبير» ومعه «أنيس بن عمرو الأسلمى»، فقدمه أمامه على رأس سبعمائة مقاتل؛ فنزل «بذى طوى»، بينما عسكر «عمرو» فى «الأبطح» ، فأرسل «عمرو بن الزبير» لأخيه «عبد الله بن الزبير» يقول له [بر يمين الخليفة ، وانه على الهيئة التى أقسم عليك لتأتينه بها؛ فإنك فى بلد حرام ولا تجعل الناس يضربْ بعضهم بعضاً.

لم تلق كلمات «عمرو بن الزبير» أذناً مصغية؛ فتوعد أخاه عند المسجد الحرام؛ فلما التقت الفئتان دارت الدائرة على «عمرو بن الزبير» ورجاله الذين تفرقوا عنه ووقع القائد أسيراً فى يد «عبد الله»؛ فاقتص منه لكل رجل فى «المدينة» من آل «الزبير» ومن أيدهم، وكان «عمرو بن الزبير» ضربهم بأمر واليها كما اشرنا إليه فيما سلفناه، ويذكر المؤرخون أن «عبد الله بن الزبير» ظل معتقلاً لأخيه حتى مات بمحبسه لسنة إحدى وستين](١)

---

(١)الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك/جـ٥/ ٣٤٦. ابن كثير البداية والنهاية/جـ٨/ ١٤٩

كان للإخفاق الذى ألم بحملة «عمرو بن الزبير» على «المدينة» الأثر الأليم على علاقة «عمرو بن سعيد» بالخليفة «يزيد بن معاوية»؛ إذ استغل الأمويون المقيمون «بالمدينة» هذا الأمر وأرسلوا للخليفة، يقولون: إن «عمرو بن سعيد» لو أراد أن يأتيك برأس «ابن الزبير» وأنت فى «دمشق» لفعل! واتهمه بالتهاون فى معالجة حركته، وإخلاصه للخليفة، فلم يكن أمامه سوى إعادة «الوليد بن عتبه» إلى ولايته على «المدينة» فى أواخر إحدى وستون من الهجرة . فصار يحكم الحرمين معاً[(١)].

ما كاد «الوليد» يصل إلى «المدينة» فى ولايته الثانية، حتى ألقى القبض على غلمان «عمرو بن سعيد» ؛ فأثاروا ذلك حفيظة الوالى المعزول؛ فتوجه إلى «دمشق» مبرئاً ساحته من الاتهامات التى اتهمها به الأمويون من ناحية،

ومن ناحية أخرى؛ إعلام الخليفة الظروف والملابسات التى تحيط بحركة «ابن الزبير» «بمكة» وكيف أنه أجهد نفسه فى سبيل ذلك حتى يكون الخليفة على بينة من أمر الذين آزروا «ابن الزبير» فى حركته؛ فقبل أمير المؤمنين عذره وعفا عنه .

لم يسترح «ابن الزبير» بعودة «الوليد» إلى الحرمين الشريفين للمرة الثانية ؛ فراح يلتمس« الوسائل التى يكيد بها لدى الخليفة حتى يعزله ؛ فكتب إليه يقول: [لو بعثت رجلا سهل الخلق، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق][(٢)]

---

(١) ابن الأثير : الكامل / جـ ٤ / ١٠٠

(٢) ابن الأثير/ الكامل /جـ ٤ / ١٠٢ يوليوس فلهوزن/تاريخ الدولة العربية/١٤٩

وحيث إن «يزيدا» كان يود مصالحة «ابن الزبير» وتجنيب الدولة سفك الدماء؛ فإنه استجاب لطلب «الوليد بن عتبه»؛ فعزله من الحرمين، وولاها «عثمان بن محمد بن أبى سفيان»، الذى يذكر المؤرخون عنه أنه فتى غر حدث لم يجرب الأمور، ولم يحنكه السن غير عالم بحكم الولايات[1]

تولى «عثمان بن محمد» عمله سنة اثنين وستين من الهجرة، وهو الذى انتهكت فى عهده حرمة «المدينة» فى واقعة الحرة.

موقعة الحرة

تعد هذه الموقعة من الصفحات السوداء فى تاريخ الدولة الأموية؛ ففيهاانتهكت قدسية «المدينة النبوية»، حيث سالت دماء المسلمين طاهرة على أرضها مع تحريم النبى لها؛ فقد روى عنه «أبى جحيفه» أنه دخل على «على»، فدعا بسيفه فأخرج من بطن السيف أدماً عربياً؛ فقال: ماترك رسول الله -ﷺ- غير كتاب الله الذى أنزل، إلا وقد بلغته غير هذا؛ فإذا

[بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله قال: لكل نبى حرم وحرمى المدينة][2] ذكر هذاالحديث برواية أخرى عند البخارى ومسلم وأبو داود فيها أن رسول الله قال: [المدينة حرم ما بين عاير إلى ثور وعاير لا يختلى خلالها، ولا ينفر صيدها، ولايلقط لقْطتها، إلا من أشادبها، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال،ولا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره][3].

(١) ابن الجوزى : المنتظم : جـ ٦ / ٢٦١

(٢) السمهودى: وفاء الوفا/ جـ١ /٩٢ محمد حميد الله الوثائق السياسية : صـ٦٩

(٣) السمهودى : وفاء الوفا / جـ ١ / ٩٢

ولقد ذكر المؤرخون أسباباً عزوا إليها نشوب تلك المعركة بين المدنيين وجيش أموى «الشام» وهى:-

١ - استشهاد «الحسين بن علّى بن أبى طالب» على يد الأمويين؛ فلقد ترك هذا الحدث آثاراً أليمة على المسلمين عامة، والمدنيين خاصة، ولا سيما الشباب منهم الذين نشأ بينهم «الحسين»، ورأوا فيه من الخلال ما جعله أعظم بنى جيله، ولقد حاول «عمرو بن سعيد» أن يطيب أفئدة المدنيين ؛ فتجنب إثارة شعور العلويين بها بعد مقتل« الحسين».

وآية ذلك، ما فعله برأسه- رضوان الله عليه -حيث جاءته إلى «المدينة» كما سلفنا.

وكذلك كان خليفة «الوليد بن عتبة» فى معاملته لهم؛ فلما كان من أمر أيلولة الحرمين إلى «عثمان بن محمد»، وكان دون الواليين السابقين فى السن والعلم؛ فأثار ذلك حفيظة المدنيين عامة؛ فأنشأوا يتساءلون عن الغايات التى جعلت «يزيد» يدفع المدينتين المقدستين إلى هذا الفتى.

وراحت الألسنة تفتش عن سئ الأحداث التى وقعت فى عهد «يزيد» ولما يمضى على خلافته سوى سنتين فكان استشهاد «الحسين» أهمها؛ فاستغلها المعارضون «ليزيد» استغلالاً كثيراً فى إثارة العواطف.

٢ - اعتماد الوالى على خليفته فى تألف المدنيين ليسهل عليه قيادتهم كان من أعظم الأخطاء السياسية التى وقع فيها الوالى ؛إذ هى تسببت فى تعميق الخلاف بين الأمويين والمدنيين؛ فما كاد يمضى سوى شهر على قدوم الوالى إلى «المدينة»، حتى أمر بإرسال وفد من المدنيين إلى

«دمشق» لمقابلة «يزيد» والتحدث معه فيما يريدون ،وكان من بين أعضاء هذا الوفد (عبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى، و«محمد بن عمرو ابن حزم الأنصارى»، ورجل من بنى سراقة من بنى عدى من كعب من رجال قريش[1]

فلما وصل الوفد إلى حاضرةالدولة الأموية استقبلهم «يزيد»، وأكرمهم، وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم؛ فأعطى «عبد الله بن حنظلة» مائة ألف درهم، وكان معه ثمانية بنين؛ فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف، وأجاز «المنذر بن الزبير» بمائة ألف، كتب له بها على «عبيد الله بن زياد»؛ فتوجه إلى «العراق» فقبضها[2].

لم يحمد وفد المدنيين فعل «يزيد» فيهم، فحين عادوا إليها، ذكروه بأقبح الكلمات، نسبوا إليه اقتراف السيئات،وهوما لا يقبل من مسلم ؛ فمابالنا بمن إليه أمر المسلمين! فزعموا أنهم وجدوه صاحب شراب وكلاب، يعزف عنده بالطنابير،يقضى الليالى الطوال فى[3] اللهو والغناء.

وعلى الرغم من شيوع هذا القول فى حق «يزيد»، على السنه وفد المدنيين فى مصادر التاريخ الرسلامى، إلا أن النفس تشكك فى صحته؛

(١) خليفه بن خياط / التاريخ/ ٢٣٦، ٢٣٧

محمد أمين بدوى / الشيعة ونشاطهم السياسى/١١٢

(٢)الطبرى/تاريخ الرسل والملوك/جـ٥/ ٤٨٠: ٤٨١ ، النويرى/نهاية الأرب/جـ ٢٠/ ٤٨٦

(٣) ابن الأثير / الكامل/ جـ٤ /١٠٣ النويرى/السابق/جـ ٢٠ /٤٨٦، ٤٨٧يوليوس فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية/ ١٥٠

ذلك أن الخليفة لا يمكنه فعل ما نسب إليه من أعمال تنافى تعاليم الإسلام وعنده وفد «مصر».

حظى بعناية أبيه ثم عنايته، بحيث لم يعهدوا به إلا لأموى؛ فلو سلمنا جدلاً بأنه يفعل ما نسبوه إليه بحاضرة دولته فى عموم أوقاته، فلا أقل من أن يقلع عنه حتى ينصرف هذا الوفد المدنى من عاصمة الدولة؛ فلا ينظرون منه إلا حسناً؛ وبذلك يكونون أبواق دعاية له لا عليه!!

والذى يدلنا على صحة ما ذهبنا إليه، أن «عبد الله بن عمر» وقد كان من أعلام المعارضة لبيعة الخليفة، لم يسلم للوفد المدنى بصحة ما قالوه عن الخليفة «يزيد» ليس هذا فحسب، بل إن «محمداً بن الحنفية»، حين سئل أحد أعضاء الوفد، أرأيت ما تقول عن الخليفة بنفسك؟ فنفى أن يكون قد رآه، وإنما نقله عن السماع[1].

فهذا وأشباهه مما سلفناه، يجعل النفس تجزم بعدم صحة هذه الرواية، وترجيح أن يكون السبب فى هذا الموقف الذى وقفه المدنيون من «يزيد»، أنهم رأوه وهو يعيش حياة مترفة، بينها وبين التى يعيشونها بون شاسع؛ فعدّوا ذلك تبذيراً، ومخالفة للسياسة العمرية، التى كانت مخالفة «عثمان» لها موضع استغلال المغرضين والحانقين على «ذى النورين» الذين كان من أمرهم مع «عثمان» ما أومأنا إليه سابقاً؛ فلا مانع أن يكون المتقربين الزبير وهو أحد أعضاء الوفد قد استغل هذه البحبوحة من العيش فى قصر الخليفة، فراح يغرى وفد المدنيين بالثورة على «يزيد»، ويؤيد هذا ما ذكره «البلخى»، من أن المدنيين طردوا الأمويين منها؛ لما كتب «ابن الزبير»

(١) ابن كثير: البداية والنهاية/ جـ٨/٢١٦
عبد الشافى: العالم الإسلامى فى العصر الأموى/ ٩٠

إليهم الكتب من «مكة»، يبغض فيها «يزيد» إليهم ويعلمهم أن حكمه غير شرعى[1].

وسواء أصح ما ذهبنا إليه أم لم يصح؛ فإن الخليفة لما بلغه مقالة الوفد عنه، لم يشأ تجريد الجيوش لتأديب الخارجين على الجماعة النابذين للطاعة، بل قدَّم على ذلك سفارة سلام بقيادة صحابى أنصارى، لتجد كلماته سهلاً معبدة لدى أفئدة المدنيين، هو« النعمان بن بشير»[2]، الذى ما أن وصل إلى «المدينة»، حتى طفق يعمل على وأد الفتنة فى مهدها؛ فقال للمدنيين: (إن الفتنة وخيمة، لا طاقة لكم بأهل الشام؛ فقال له «عبد الله بن مطيع»: ما يحملك يا «نعمان» على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟ فقال له «النعمان»: أما والله لكأنى وقد تركت تلك الأمور التى تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب التى تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين، وكأنى بك قد ضربت جنب بغلتك إلىَّ وخلفت هؤلاء المساكين - يعنى الأنصار. يقتلون فى سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم؛ فعصاه الناس؛ فلم يسمعوا منه؛ فانصرف[3].

(١) البلخي: البدء والتاريخ / جـ ٦ / ١٣:١٤

(٢) ابن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصارى الخزرجى أبو عبد الله المدنى، أول مولود فى الأنصار بعد قدوم النبى - ﷺ - إلى «المدينة»، ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة له رواية عن رسول الله - ﷺ - تولى الأعمال «لمعاوية» (توفى سنة ست وستين أو ٦٤ هـ اختلاف).

- ابن حجر: تهذيب التهذيب / جـ ١٠ / ٤٤٧ : ٤٤٨

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٨ / ٢١٦

محمود شاكر / التاريخ الإسلامى / جـ ٤ / ١٤٢

جعل الإخفاق الذى ألم بسفارة «النعمان بن بشير» «يزيد بن معاوية» أمام موقف صعب، لا مناص من التعامل معه، حتى يحفظ للخلافة الأموية هيبتها، من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يتيح «لابن الزبير» العائذ «بمكة» فرصة استغلال هذه الحركة المدنية لصالحه، ومن ثم أزمع على تجريد جيش إلى «المدينة»، اختار لقيادته «مسلم بن عقبة المرى».

ولقد جد الخليفة فى إرسال جيشه؛ لما علم أن المدنيين تمادوا فى حركتهم؛ فطردوا واليه «عثمان بن محمد»، وضربوا حصاراً على الأمويين، وكانوا نحو الألف وبايعوا «عبد الله بن حنظلة» الغسيل على الموت .

فلم تمض سوى ثلاثة أيام على تكليف الخليفة «لمسلم» حتى جاءه بالكتائب الشامية؛ ليستعرضها فلما رأى حسن إختيار «مسلم» لها، وافق على تسيير الجيش إلى المدينة.

ويذكر بعض المؤرخين، إن «يزيد بن معاوية»، لم يعمد إلى اختيار «مسلم» من عقبه لقيادته هذه الحملة إلا عن وصية وصاه بها أبوه، تلك التى جاء فيها (إن لك من أهل «المدينة» يوماً، فإن فعلوها ؛ فارمهم «بمسلم بن عقبة»؛ فإنه رجل قد عرفنا نصيحته؛ فلما صنع أهل المدينة ما صنعوا، وجه إليهم «مسلماً»[1] وقد أخلص هذا القائد ايّما اخلاص للخليفة؛ فأخذ المدنيين بشدة أساءت إلى «يزيد» أكثر مما حققت له مآربه فى هذا البلد المقدس.

---

(١) الخليفة بن خياط : التاريخ ٢٣٨
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ٤٨٤ : ٤٩٥
عبدالشافى: العالم الإسلامى فى العصر الأموى/ ٤٩٢

وعلى كل حال ، فإن المدنيين لما وجدوا معركتهم مع أهل «الشام» دانيه،خندقوا حول بلدهم ليسهل عليهم الدفاع عنها،مثلما فعل النبى محمد -ﷺ- حين جاءته الأحزاب ووافق زعماء المدنيين على إطلاق سراح الأمويين المعتقلين بها بعد ما أخذوا عليهم أغلظ العهود والأيمان بأن لا يعينوا عليهم عدوهم،وألا يدلوهم على عوراتهم.

لقد التقى «مسلم بن عقبه» بالأمويين المطرودين من «المدينة»، فظلَّ بهم حتى وقف منهم على خطةٍ حربية، كانت من أهم الأسباب التى عجلت بهزيمة المدنيين، ذلك أن «عبد الملك» نَصحَ الشاميين، أن يهجموا على «المدينة» من عند «الحرة» فى وقت تكون الشمس فى أقفيتهم، بينما تؤذى أشعتها أعين أعدائهم (١).

ولقد قسم المدنيون جيشهم إلى أقسام ، جعلوا على رأس كل واحدٍ منها قائداً، وكان «عبد الله بن حنظلة الغسيل» و«عبد الله بن مطيع»(٢) يقودان أكبر قسمين من جيوش «المدينة»؛ فلما وصل «مسلم بن عقبة» بجيشه تخوم «المدينة» أرسل إلى أهلها يقول: «إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل، وإنى أكره إراقة دمائكم، وإنى أؤجلكم ثلاثا؛ فمن أدعوى وراجع

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى /جـ ٥/٢٨ ، ٢٩ ـ ابن الأثير الكامل: جـ٤/١١٤

(٢) ابن الأسود بن حارثة القرشى العدوى ولد فى حياة الرسول -ﷺ- وحنكه ودعا له بالبركة كان من كبار قريش جلداً وشجاعه فرمن أمام «مسلم بن عقبة» يوم «الحره» ولاة «بمكة» وأصبح تابعاً «لابن الزبير» ولابن المطيع شعر فى فراره قاله فيه/ أنا الذى فررت يوم الحرة والشيخ لا يفر إلا مره لاجبرت فره بكره.
توفى على يد قوات الأمويين مع «ابن الزبير» فى «مكة» أيام «عبد الملك» .
ابن كثير / البداية والنهاية/ جـ ٨/ ٢٤٥

الحق قبلنا منه، وانصرفت عنكم إلى هذا الملحد الذى «بمكة»، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم»

فلما مضت الثلاث قال «مسلم»: [يا أهل «المدينة»، ما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب. فقال لهم: لا تفعلوا ، بل ادخلوا فى الطاعة، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذى قد جمع إليه المراق والفساق من كل أوب يعنى «عبد الله بن الزبير» فقالوا له : يا عدو الله ، لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم، أنحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام فتُخيفوا أهل «مكة» ،وتلحدوا فيه، وتستحلوا حرمته؟ لا، والله لا نفعل][1]

يتبين لنا من هذا الحوار أن ثورة المدنيين هذه كانت تُشَكِّلُ خط دفاع أول « لابن الزبير» يَحُول بين الأمويين، وبين مهاجمته، وأن ذلك لن يتيسَّر لهم إلا إذا هاجموا المدنيين، وهذا بلا ريب يستغرق وقتاً ليس بالقليل مما يتيح فرصة «لابن الزبير»حتى يأخذ أهبَته، ويُحْسِن استعداده، ولما نشبت المعركة بين المدنيين والأمويين القادمين من «الشام» جدَّ كلاهما فى إعمال السيف فى الآخر؛ فكانت معركة ضروسا سالت فيها مئات الأرواح على ظبى السيوف لم يَألُ فيها «مسلم بن عقبة» و«ابن المطيع» جهداً فى سبيل إحراز النصر لفريقه؛ فعلى الرغم من كون الأول مريضاً، يُحمل علي سرير أثناء نشُوبِ تلك المعركة ؛ فإنه راح يحمس الشاميين حتى يَجِدُّوا أكثر فأكثر فى قتال المدنيين؛ فكان يقول لهم: يا أهل الشام، إنكم لستم بأفضل العرب فى، أحسابهم ولا أنسابهم، ولا أكثرهم عدداً، ولا أوسعها بلداً ولم

---

(١) النويرى / نهاية الأرب / جـ٢٠ / ٤٩١

يخصصكم الله بالذى خصكم به من النصر على عدوكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم ،إلا بطاعتكم واستقامتكم ،وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فَغيَّر الله بهم؛ فتموا على أحسن ما كنتم يُتم الله لكم أحسن النصر[1]

أما الثانى: فقد قال لجنده المدنيين، وهو يحثهم على القتال: «وعليكم بتقوى الله، والجدِّ من أمره، وإياكم، والفشل والتنازع والاختلاف، أذعنوا للموت ، فوالله ما من مَفَرّ و لامَهْرَب، والله لأن يُقْتل الرجل مقبلاً محتسباً خير من أن يقتل مدبراً ؛ فيؤخذ برقبته، ولا تظنُّوا أن عند القوم بُقْيا فابْذلوا لهم أنفسكم ؛ فإنهم يكرهون الموت كما تكرهونه[2].

فما وضعت الحرب أوزارها إلا وكان عدد القتلى بضعاً وتسعين رجلاً من قريش، ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس[3]

ويذكر المؤرخون أن الأمويين لما تمكّنوا من إحراز النصر على المدنيين عاثوا فى «المدينة» فساداً وإفسادا؛ فقتلوا أعلام الصحابة، ونالت سيوفهم العبيد، ونهبت جنودهم الأمتعة من المنازل، وهتكوا الأعراض، وفضوا بكارة العذارى وظلّوا على ذلك ثلاثة أيام، وحرموا مساجد «المدينة» من الآذان طيلة هذه المدة إلا فى مسجد النبى محمد - ﷺ -[4]، وأرغم المدنيين أن يبايعوا «ليزيد» على أنهم عبيداً له.

---

(١) الطبرى/تاريخ الرسل والملوك: جـ٥/٤٨٩.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ١١١

(٣) ابن أعثم : الفتوح /جـ ٥/ ٢٩٥ المسعودى / مروج الذهب /جـ٣ / ٧٩

(٤) الطبرى/تاريخ الرسل والملوك/ جـ ٥/٤٩٢اليعقوبي/تاريخه/ جـ٢/ ٢٥٠، ٢٥١ المسعودى: مروج الذهب / جـ ٣ / ٧٩ ، ٨٠ البلخى: البدء والتاريخ: جـ١ /١٤/

ويرى بعض الباحثين عدم الأخذ برواية إباحة «المدينة» من قبل «مسلم بن عقبة» وجُنْدِه بالرغم من شيوعها فى مصادر التاريخ الإسلامى على أساس المقارنة بين الرواة الذين تحدثوا عن هذا الأمر، ورواياتِهِمْ فقال: إن صاحب رواية «الإباحة» أبو مخنف» عراقى النشأة، شيعى الهوى، وأن «عوانة» خالفه فلم يذكر حدوث ذلك، واستدل الباحث كذلك على نفى رواية «الإباحة» بما وصى به «يزيد» قائده «مسلم» من الرفق بالمدنيين[1].

والذى نراه، أن القتل والنهب «للمدينة» قد وقع، وأن هذا له نظير فى الحروب التى وقعت، وتقع؛ فإن الجند المنتصرين كثيراً ما يلجأون بدافع الانتصار إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال، لكن الذى نرفضه هذه المبالغة التى نجدها فى أخبار الإباحة، مثل، حمل ألف امرأة سفاحاً، وغيرها من الأخبار المستَبْشَعَة ؛ فإن المسلمين تحرجوا من فعل مثل ذلك بمدن الأعداء عند فتحها عنوةً مع إباحة ذلك لهم ؛ فما بالُنا بنسبة هذا الفعل إليهم فى حرم النبى - ﷺ -؟ ولا نوافق الباحث فيما ذهب إليه من رفض رواية أبى مخنف، بالكلية فى شأن الإباحة على أساس أنه شيعى ؛ لأن هذا سيجعلنا نقول عن «عوانة» وأمثاله من الشاميين ما قاله عن «أبى مخنف»؛ فلا مانع أن يكونوا قد تحرجوا من ذكر الإباحة حتى لا يُسِيئوا إلى الخليفة الأموى المقيم «بالشام».

فالحق من وجهة نظرنا هو ما قررناه من أن الإباحة وقعت، وأن المرفوض منها هو المبالغة فى وصف ما وقع من الأمويين فى «المدينة» بعد انتصارهم

---

(١) رياض عيسى: النزاع بين أفراد البيت الأموى / ٧٤
يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية صـ ١٥٥

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التى جعلت النصر يمشى فى ركاب الأمويين، والهزيمة تقع على المدنيين وهم أصحاب الأرض العالمون بشعابها، ومناطق المنعة بها بشكل لا يعرفه المهاجمون لها؟

والجواب عن ذلك.

أن الباحثين المحدثين ذكروا لنا أسباباً عَزَوا إليها هزيمة المدنيين، والتى منها .

هذا التباين الشاسع بين الفريقين فى العدد والعتاد؛ فإن الأمويين قدموا إلى «المدينة» فى اثنى عشر ألف جندى من الكلابيين أصهار «يزيد» بعد أن اخذوا عطاء عام ،لديهم من المدد ما يكفيهم، وكانوا على بصيرة من أمر الخطة الحربية التى قاتلوا بها المدنين[1] !!

ومنها : هذه الخيانة التى خان بها بنو حارثةَ المدنيين، حيث جعلوا الأمويين يأتون جيش «المدينة» من خلفهم مما جعل صفوفهم تَختلّ[2].

ومن ثَمّ نالت سيوف «الشاميين» رقاب الكثير من «المدنيين»، ويزعم «ابن قتيبة» أن «مروان» خرج حتى جاء «بنى حارثة»؛ فكلم رجلاً منهم، ورغبه فى صحبته، وقال: افتح لنا طريقاً، فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين، وضامنٌ لك عنده شطر ما كان بذل لأهل «المدينة» من العطاء وتضعيفه؛ ففتح له طريقاً، ورغبه فيما بذل له، وتقبل ما تضمن له عند

---

(١) محمد حلمى / الخلافة والدولة فى العصر الأموى / ١٦٣

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل : جـ٥ / ٤٩٥ ، ٤٩٦

«يزيد» ؛ فاقتحمت الخيل ؛ فجاء الخبر إلى «عبد الله بن حنظلة»[1]؛ فأقبل، وكان من ناحية «الطورين» ،وأقبل «عبد الله بن مطيع»، وكان من ناحية «ذناب»، وأقبل «ابن أبى ربيعة» واجتمعوا جميعاً بمن معهم، بحيث اقتحم عليهم أهل الشام ؛ فاقتتلواحتى عَاينُوا الموت ؛ ثم تفرقوا[2].

ومنها: أن الشاميين دخلوا معركة «الحرة» ويقودهم قائد واحد، بينما دخلها المدينون وقد تولى أمزهم كما قلت :أكثر من قائد؛

فلا مراء، أن هذا أضعف من قوتهم فى مواجهة الجيش الأموى، وتسبب فى إلحاق الهزيمة بهم [3]

وفى رأينا أن هذا التقسيم للجيش المدنى لم يكن له داع (استراتيجى) يمكن للباحث أن يعزو إليه تصرف المدنيين، اللهم إلا العصبية القبلية، والاعتزاز بعنصرية الانتماء إليها على حساب المصلحة الحربية، وهذا يدل على أن المدنيين الذين دخلوا المعركة لم يكونوا على درجة من المعارف الحربية تمكنهم من مجابهة القوى الأموية.

ومن ثمَّ لحقت بهم الهزيمة، ولم تمض سوى ساعات قليلة على معركتهم مع الأمويين.

ومن الأسباب التى أدت إلى هزيمة المدنيين من وجهة نظرنا.

(١) ابن عامر الأنصارى ، ولد سنة أربع على حد الأقوال ، توفى رسول الله، وهو ابن سبع وستين غسلت أباه الملائكة حين استشهد فى غزوة أحد.
ابن الأثير / أسد الغابة جـ ٣ / ١١٣ ابن حجر الإصابة : جـ ٢ / ٢٩٩

(٢) الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة / جـ ١ / ١٨١

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ١١١

أن «يزيد بن معاوية» دقق فى اختيار قائده ؛ فكان اختياره بناء على وصية مدقق عارف ببواطن الرجال، وظواهرهم ؛ فكان يواجه الأحداث بقادته الذين يرى أنهم أكفاء، ليبلغ بهم أمالهُ ويحقق بهم غاياته.

وعلى النقيض من ذلك، نرى المدنيين يختارون القادة على أساس قبلى، ومنهم من ليست له الكفاءة الحربية ؛ فإن بعض الروايات تقول عن واحد منهم وهو «عبد الله بن حنظلة الغسيل»: إنه كان يغط فى نوم عميق، والمعركة تدور رحاها بين الأمويين والمدنيين، ولم يستيقظ من نومه إلاّ عندما أيقظه أحد جنوده ؛ فلما وجد نفسه ورجاله فى موقف صعب، راح يقدم بنيه الثمانية لقتال الأمويين ؛ فنالتهم سيوفهم واحداً بعد آخر؛ فقتلوا جميعاً ولما لم يبق سواه تقدم ؛ فقاتل حتى قتل[1].

فإن هذا الموقف للقائد المدنى لا يقارن بموقف نظيره فى الجيش الآخر «مسلم بن عقبة» الذى لم يمنعه المرض من توجيه جيشه، والإشراف عليه بنفسه، والحرب تدور رحاها بين الفريقين.

فمن الطبعى إذن أن نجد جنده فى حماسة لا نظير لها، وهم يقاتلون عدوهم، وقد نظروا إلى قائدهم، وهو يمر من بينهم، لا يبالى بمرضه ، يعدهم، ويمنيهم بما يدفعهم دفعاً على الاستمرار فى قتال عدوهم بقوة، وليس ذلك كذلك بالنسبة للجند المدنيين الذين قاتلوا وهم ينظرون إلى قائدهم، وقد أخذه ثبات عميق حال بينه وبين توجيههم إلى ما فيه صلاح شأنهم وهزيمة عدوهم.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية / جـ ٢ / ٢٢٢

وعلى كل حال ؛ فإننا نتساءل كما تساءل الباحثون المحدثون الذين كتبوا عن هذه الواقعة على من تقع مسئولية نشوبها ؟

والجــواب:

إن أقلام هؤلاء الباحثين سطرت لنا آراءً منها ما يلقى بالمسؤلية على الفريقين بشكل مباشر فى نشوب هذه المعركة، ومنها ما يحمل فريقاً نصيباً أكبر من الأخذ فى نشوبها، وإراقة الدماء على أرض حرمها لا لشئ سوى أنهم لم يتحلوا بالأناة فى معالجة الأمور.

وقبل أن ندلى برأينا فى هذه القضية ، يحسن بنا إيراد نماذج لهؤلاء وأولئك.

فنقول: ذكر الأستاذ الخضرى بعد أن عرض لموقعة الحرة، وبيان ملابستها والنتيجة التى أسفرت عنها وأن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به «أهل المدينة» فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانية أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه ، ولا يدرى الذين كانوا يريدونه بعد خلع ، «يزيد» أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلى أمرهم؟! أم يحملون بقية الأمة على الدخول فى أمرهم؟

وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار، ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية، إنهم فتقوا فتقاً وارتكبوا جُرْماً، فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة «المدينة» ، وكان من اللازم على «يزيد» وأمير الجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة ؛ فإنه كان من الممكن

أن يأخذهم بالحصار؛ فإن المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها، وماؤها يَجئُ من الخارج فى بعض الأحايين فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين، -يقال : إن أهل «المدينة» تعجلّوا بحرب أهل «الشام» ؛لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم، وخرجوا محاربين- وبعد الانتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراماً لرسول الله - ﷺ- .

هذا وإنا نعوذ بالله من الرؤوس التى إذا هاجت لاتنظر فى عاقبة، ولا تفكر فى مستقبل][1].

وهذا هو «الحافظ بن كثير» نراه يأبى أن يمر على موقعة الحرة مرورَ المسجل لأحداثها.

وإنما حرص على الإدلاء برأيه فى تحديد مسؤلية نشوبها، ولما لهذا الرأى من أهمية بالنظر إلى مكانة قائله الدينية والتاريخية ؛ فإننا نذكره لنرى الظروف التى حكَمَ بمقتضاها هذا المؤرخ حكمه الذى لا مراء فى أنه أقامه على الحيدة بين الفريقين ؛ فلم يعرف عنه التَشَيّعُ أو التعصب للأمويين، وهذا يعطى رأيه ثقلاً فى الحكم على ما حدث فى «المدينة».

فقال: [«وقد أخطأ «يزيد» خطأ فاحشاً فى قوله« لمسلم بن عقبة» أن يبيح «المدينة» ثلاثةَ أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، بعد أن قتل «الحسين» وأصحابه على يدى «عبيد الله بن زياد»، وقد وقع فى هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة فى

(١) محمد الخضرى: الدولة الأموية : صـ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

«المدينة» النبوية مالا يحد ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بإرسال «مسلم بن عقبة» توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع: فعاقبه الله بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهيه ؛ فقصَمَهُ الله قاسم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر]

وأما ما يذكره بعض الناس، من أن «يزيدا» لما بلغه خبر أهل «المدينة»، وما جرى عليهم عند الحرة من «مسلم بن عقبة» وجيشه، فرح بذلك فرحاً شديداً؛ فإنه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته، وأمّروا عليهم غيره ؛ فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان «النعمان بن بشير» و «مسلم بن عقبة»، وقد جاء فى الصحيح «من جاءكم وأمْرُكم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»(١).

فأنت تراه يحمل « يزيد بن معاوية» مسؤلية إباحة «المدينة» ويعفيه من مسؤلية نشوب المعركة، ويلمع بإلقائها على المدنيين ، حيث إن «يزيدا» استنفد وسائل السلام معهم بسفارة «النعمان بن بشير» التى ألمعنا إليها.

ومن الذين ألقوا بالمسئولية على المدنيين صاحب موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فإنه قال: [لست أستطيع أن أخلى أهل «المدينة» من مسئولية كبيرة ؛ فهب أن «يزيد» لم يكن صالحاً للخلافة، ولكن التفكير الإسلامى واضح فى أن الإمام الجائر خير من الفتنة، وكلٌ لا خير فيه، وفى بعض الشر خيار، كما قال الرسول -ﷺ- ولم يكن أهل «المدينة» يستطيعون أن يقفوا فى وجه جيش الشام بعَدَده وعُدَده ؛ فلماذا

(١) البداية والنهاية : جـ ٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤

استمروا فى عصيانهم وقد دعاهم «مسلم» ثلاثة أيام وهو يحدق بهم ولكن العصبية والكبرياء دفعا القوم إلى الاستمرار فى إشعال هذه النار التى صاروا لها حطباً بعد وقت وجيز](1)

ومهما يكن من أمر، فإنه من الإنصاف القول بأن الفريقين يتحملان تبعة نشوب هذه المعركة، وإباحة «المدينة»؛ فالمدنيون لأنهم خلعوا الطاعة، و«يزيد» لأنه لم يدع حداً للغطرسة التى يعرفها عن قائده «مسلم بن عقبة»؛ لان كل فعل يقوم به يسأل عنه الخليفة، وليس قائده ، لأنه هو الذى بعثه إلى «المدينة» وأمده بالرجال والعتاد، وأغدق عليه الأموال .

ومهما حاول المرء أن يقول وأن يدافع ويلتمس« لكل فريق العذر؛ فإن هذه صفحة غير مشرّقة فى تاريخ المسلمين ؛ لأن دخول القوات الحربية «مدينة» النبى محمد -ﷺ- بقصد قتال المسلمين؛ أمرٌ عظيم لا يمكن التقليل من شأنه، أو التهوين من أمره !!

وعلى كل حال؛ فإن معركة الحرة التى نشبت لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة، والتى انتهت بانتصار الشاميين على المدنيين، جعلت الطريق مفتوحاً أمام «مسلم بن عقبة المرى» ليذهب إلى «مكة» لقتال «ابن الزبير» وهى المهمة الرئيسية التى كان يعول يزيد عليها آمالاً كبيرة، فإنه كان يرى خصومة «ابن الزبير» أشدّ خطراً عليه من المدنيين؛ لما يعرفه عن الرجل من قوة الشكيمة، ورباطة الجأش.

فلما أزمع «مسلم بن عقبة» على ترك «المدينة» والذهاب إلى «مكة»

---

(1) موسوعة التاريخ الإسلامى / جـ ٢ / صـ ٥٢

استخلف عليها «روح بن زنباع الجذامي»[1] ؛ فاشتد عليه مرض الموت عند المشلل، فاستدْعى «الحصين بن نمير» وقال له: يابن برزعه الحمار، لو كان الأمر إليّ ما وليتك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك.خُذْ عنّى أربعاً:أسرعْ السيرَ،وعجِّل المناجزة،وعَمِّ الأخبار،ولا تمكن قريشاً من أذنك،ثم قال :اللهم إنى لم أعمل قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله،وأن محمداً[2]عبده ورسوله،عملاً أحب إلى من قتلى أهل «المدينة»،ولا أرجى عندى فى الآخرة.

فلما مات قبروه هناك وواصلوا سيرهم،حتى وصلوا «مكة»،بقيادة قائدهم الجديد «الحصين بن نمير» الثالث من المحرم سنة أربع وستين ؛ فضرب الأمويون حصاراً عليها ،وتمكن «ابن الزبير» ومن لاذ به من المدنيين الفارين من واقعة الحرة،وجماعات من الخوارج من الحيلولة بين الأمويين وبين الاستيلاء على «مكة»[3] .

(١) ابن سلامه بن حداد بن حديده، لم تصح له صحبة، وإن صحت له رواية، عن بعض الصحابة والتابعين، له حديث واحد مروى عن «عبادة بن الصامت» عن رسول الله، تولى للأمويين الأعمال وكان «عبد الملك» يحرص على إرضائه، وأثنى عليه بقوله: «جمع روح طاعة أهل الشام، ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز»، توفى سنة أربع وثمانين هـ

ابن الأثير: اسد الغابة / جـ٢ / ١٨٩ ـ خير الدين الزركلى/ الأعلام/ جـ ٣/ ٣٤

(٢) اليعقوبى :تاريخه/جـ٢ . ٢٥١ ،ابن الأثير: الكامل/جـ٤ .١٢٣.

(٣) ابن كثير :البداية والنهاية : جـ٨. ٢٢٥

النويرى :نهاية الأرب : جـ٢٠ . ٤٩٦ . ٤٩٧.

وتذكر المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي.أن الشامين قذفوا البيت الحرام بالمنجنيقات حتى أحرقوه،ونسب إلى بعضهم قوله :

خطارة مثل العتيق المزبد .·. تدمى بها جدران هذا المسجد

وذكر آخر :

كيف نرى صنع أم فروة .·. تأخذهم بين الصفا والمروة[1]

وبينما هم كذلك جاء الأمويين بنبأ وفاة «يزيد» ؛ فكفوا عن مواجهتهم «لابن الزبير»،واستأذنوه في الطواف حول البيت ؛ فلم يأذن لهم،وقيل: إن «ابن الزبير» خلا به «الحصين بن نمير» وقال له :هل لك في الخروج معي،إلى الشام؛ فأدعو الناس إلى بيعتك؛ فإن أمرهم قد مرج، ولا أرى أحداً أحق بها اليوم منك، ولست أعصى هناك؛ فانتزع «عبد الله بن الزبير» يده من يد «الحصين»، وقال وهو يجهر بقوله: أبعد قتل أهل الحرة؟ لا والله، حتى أقتل بكل رجل من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام؛ فقال «الحصين» :لقد كذب من زعم أنك من دهاة العرب، أكلمك سراً، وتكلمني علانية ؟ وأدعوك إلى الخلافة، وتدعوني إلى الحرب[2] ؟

وعادوا إلى الشام، ولم يحققوا أهدافهم، ونال المدنيون مانالوا منهم عندما مروا ببلدهم عند إيابهم إلى بلاد الشام[3] !! ليتوقف الصراع مؤقتاً

(١) ابن كثير :البداية والنهاية/جـ٨/ ٢٢٥.

(٢) اليعقوبي / التاريخ / ٢٥٣

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / جـ ٢ / ٢٥١ ، ٢٥٢

ـ الإمامة والسياسة/ المنسوبة لابن قتيبة / جـ ٢ / ١٠

ـ النويري: نهاية الأرب / جـ ٢٠ / ٤٩٦ ، ٤٩٧

بين الأمويين، «والزبيريين» خلال فترة الاضطراب السياسى التى عاشتها الدولة الأموية حتى آل أمرها إلى المروانيين الذين ورثوا عن السفيانيين التصدى لمشكلة «ابن الزبير».

أما «المدينة» موضوع بحثنا؛ فإنها غدت بعد رحيل «الحصين بن نمير» من «مكة» إلى «الشام» تحت حكم «ابن الزبير»

ولاة «الزبيريين» على «المدينة» وموقف الخلافة الأموية منهم:

تأثرت «المدينة» بوفاة «يزيد» فى منتصف ربيع الأول سنة أربع وستين للهجرة شأنها فى ذلك شأن بقية أمصار الدولة الإسلامية ؛ فقد أصبح الجو مهيأ فيها لولاة «ابن الزبير».

حيث إن الاضطراب السياسى فى الدولة الإسلامية، قد بلغ مداه حين تنازل «معاوية الثانى» عن الخلافة، ولمّا يمض على جلوسه فيها سوى أربعين يوماً، ترك بعدها الأمور، وهو يقول للناس بعد أن قالوا له استخلف: ما أصبت من حلاوتها؛ فلم أتحمل مرارتها[1] ،انتهز «ابن الزبير» هذه الفرصة؛ فاستبدل بلقب العائذ لقب الخليفة ، وأخذت البيعة تأتيه من هنا وهناك ؛ فكان المدنيون ممن بايعوه.

وإذا كان السفيانيون قد أولوا «المدينة» عظيم عنايتهم فى اختيارهم ولاتها؛ فإن «ابن الزبير» قد كان كذلك ؛ فعهد بها إلى اثنين من إخوانه

(١) اليعقوبى/ تاريخ اليعقوبى / جـ ٢ / ٢٥٤
- السيوطى / تاريخ الخلفاء / ٢١٠ ، ٢١١

«عبيدة بن الزبير» ثم «مصعبا» وقيل فى سبب استبداله به :أن «عبيدة بن الزبير»، كان قد خطب فى المدنيين خطبة، تكلف فيها، فيما قاله: قد ترون ما صنع الله بقوم فى ناقة قيمتُها خمسة دراهم؛ فسُمّىَ مُقَوِّمْ الناقة ؛ فبلغ ذلك أخاه «عبد الله» ، فعزله[1].

ولقد وقع اختيار «عبد الله» على «مصعب» لولاية «المدينة»، بعد أخيه، لعلمه بأن أخاه يحسن سياسة «المدينة» فى هذا الوقت الدقيق الذى تمرّ به الدولة الإسلامية.

ولم نقف من خلال مصادرنا على أعمال قام بها هذا الوالى فى «المدينة» ، ولا على ما يفيد تأثيره على الأحداث فى الدولة الإسلامية فى فترة الاضطراب قبل أن يسلم المسلمون القيادة إلى «مروان بن الحكم» ، ولعل ذلك راجع إلى قصر مدة ولايته على «المدينة» من ناحية،

ومن ناحية أخرى، أن أصحاب المصادر اهتموا بتدوين أخبار الاضطراب السياسى فى «الشام»، ومواقف الأمصار من «عبد الله بن الزبير»، على حساب غيرها من الأخبار الأخرى[2].

ومن الولاة الذين ولاهم «ابن الزبير» على «المدينة» «جابر بن الأسود »؛ فقد وليهاغير مرة، وقد كانت أخريات فترة ولايته فى وقت أخذ فيه المروانيون بأعنةً الأمور فى الدولة الأموية[3].

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥/٦٢٢
- ابن الأثير / الكامل/ جـ ٤ ، ٢٠٧
(٢)ابن الجوزى/المنتظم/جـ٦/ ٤٠ . ابن كثير/البداية/جـ٨/٣١٧، ٣٢٣- الذهبى: سير أعلام النبلاء/جـ٤/ ١٤٠ ، ١٥٠
(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى / جـ ٢ / ٢٥٦
- ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

الفصل الثالث

ولاة المدينة فى العهد المروانى

تولى بنو «مروان» الخلافة الإسلامية فى الربع الثانى من عام أربع وستين من الهجرة، وظل بنوهم يتعاقبون الحكم واحداً بعد آخر، حتى دالت دولتهم على يدى العباسيين سنة ١٣٢ اثنين وثلاثين ومائة من الهجرة.

والدارس لولاة المدينة فى عهد المروانيين، يجد أنه من الأوفق لدراسته، تقسيم فترة حكم هذه الأسرة إلى ثلاث فترات رئيسية:-

الأولى - حكم فيها المروانيون الأول وتشتمل على عهود «مروان بن الحكم»، و«عبد الملك» والوليد بن عبد الملك».

والثانية - حكم فيها المروانيون الأواسط، وتشتمل على «سليمان بن عبد الملك» ، و «عمر بن عبد العزيز»، و«يزيد بن عبد الملك بن مروان».

والثالثة - حكم فيها المروانيون المتأخرون ، وهم، «هشام بن عبد الملك ابن مروان» و«الوليد بن يزيد» و«يزيد بن عبد الملك» و«يزيد بن الوليد بن عبد الملك» و «إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك» و «مروان بن محمد» ولقد صَبغَتْ كل فترة من الفترات الثلاث ولاة المدينة بصبغَة تختلف عن الفترة الأخرى.

ومن ثَمّ ، فإننا نلمع إلى ولاة كل فترة من الفترات السابقة وعلاقتهم بالخلافة الأموية.

ولاة المدينة في العهد المرواني الأول

لما انتهى مؤتمر «الجابية» إلى مبايعة «مروان بن الحكم» بالخلافة ومن بعده «لعمرو بن سعيد» ثم «خالد بن يزيد»، كان على «مروان» العمل على جعل هذه القرارات مُنَفّذة على أرض الواقع، وهذا لا يتأتى تحقيقه إلا إذا استطاع جعل الأمصار التي بايعت «ابن الزبير» تخلع بيعته، وتدين بالطاعة للأمويين؛ فأنشأ يسير الجيوش إليها مصراً بعد آخر، ومن الطبعي أن تكون «المدينة» من بينها، إن لم تكن من أهمها؛ لمكانتها الدينية والسياسية؛ ولأن خلافته لم تستمر سوى بضعة أشهر؛ فإنه مات في رمضان سنة خمس وستون للهجرة ، ولما يستكمل ما أراد من توحيد أمصار الدولة؛ فترك هذه المهمة لمن جاء بعده، وهو «عبد الملك بن مروان» بعد ما تمكن من تحويل ولاية العهد إليه ، خلافاً لقرارات «مؤتمر الجابية»[1]

ولاة المدينة في عهد عبد الملك

نشأ «عبد الملك» في«المدينة» صغيراً؛ فعرف أهلها، وعرفوه، ورأى بعينيه حوادث عظيمة، ووقعت على أرضها إذ كان مع أبيه «مروان» وهو يدافع عن دار «عثمان»، وعمره إذ ذاك عشر سنوات، وكان «عبد الملك» مع أبيه كذلك يوم طَرَدَ المدنيون الأمويين، حين خلعوا «يزيد بن معاوية»، وهو الذي أرشد «مسلماً» إلى «حرة واقم» حتى يدخل «المدينة» بجيشه ويلحق الهزيمة بأهلها.

(١) الطبري / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٥ / ٥٣٧
ـ اليعقوبي / تاريخه / جـ ٢ / ٢٥٦ / ٢٥٧

ولقد تولى الديوان فى «المدينة» فى عهد «معاوية»، وشهد له «ابن عمر» بالعقل فى الدين، والفهم لآيات القرآن الكريم .وكان «عبد الملك» مع أبيه حين وصل الأمويّون المطرودون من «المدينة» إلى «دمشق»، وشهد بنفسه أباه وهو يحاور كبار الرجال فى مؤتمر الجابية(1)

فمن البداهى إذن أن تكون أولويات «عبد الملك» منذ توليه الخلافة إعادة «المدينة» إلى حَوْزَة الدولة الأموية، وطَرد ولاة «الزبيريين» عنها.

ولقد قام فى سبيل ذلك بجهود كبيرة كلفت الدولة أموالاً كثيرة أنفقتها على حملاتها العسكرية التى بعثها إلى «المدينة» والبلاد القريبة منها بقصد استكشاف الأحوال بها.

ولسوف نتناول بشئ من التفصيل أبرز هذه الحملات، ومنها هذه الحملة التى قادها «حبيش بن دلجه» فإن «مروان بن الحكم» كان قد اختاره قبل وفاته قائداً لتلك القوة لأنه خابره وحاوره(2)؛ فوقف من خلال ذلك على نعوته الشخصية التى تؤهله للقيام بهذه المهمة، غير أنه مات، ولمّا يقف على النتيجة التى انتهت إليها حملة قائده المختار؛ فإن الرجل قاد الجيش من «الشام» إلى «المدينة» ؛ فلما رآه «جابر بن الأسود» عامل «ابن الزبير» عليها، ولّى هارباً تاركاً ولايته للشاميين ؛ فلما تنامت الأنباء بدخول جيش « بن دلجة» «المدينة» إلى «عبد الله بن الزبير» فى «مكة»،

---

(1) خليفة بن خياط:التاريخ/ ٢٦١،ابن حجر:تهذيب التهذيب / جـ٦/ ٤٢٢، ٤٢٣ ،السيوطى:تاريخ الخلفاء/٢١٤،٢١٥،ابن الأثير: الكامل/جـ٤/ ٢٥٠.

(2) ابن قتيبة/ عيون الأخبار: ج ١/ ٣٦ ، ج٢/ ٥٣ ، ٥٤ .

أرسل إلى ولاة الأمصار الذين بايعوه ليطلب مدداً للدفاع عن «المدينة»؛ فلما علم«ابن دلجة» بقدوم جيش «بن الزبير» إليه، ترك «المدينة» ونزل عند الربذة سنة خمس وستين من الهجرة، وعندها جرت المعركة بين قوات «ابن الزبير» بقيادة «ابن سهل» وقوة «عبد الملك بن مروان» بقيادة «ابن دلجة» وقتل «يزيد بن سنان» «حبيش بن دلجة» كما قتل وأسر كثيراً من جيشه ، وانهزم الباقون إلى «الشام»، وتَحصَّنَ منهم في «المدينة» حوالي[1] خمسمائة ؛ فنزلوا على حكم «عباس بن سهل»[2] فقتلهم صبراً[3].

ولقد فرح المدنيون بهذا الانتصار فرحاً شديداً، ولعلهم عَدّوهُ نيلاً لوتر أهل الحرة الذين قتلوا وهم يواجهون الأمويين في ميدان المعركة.

فحين دخل «يزيد بن سنان » «المدينة» بعد إحراز الانتصار، ألقى عليه أهل البلد صنوفاً من الطِّيب، حتى حوّلوا بياض ثوبه إلى سواد من كثرة ما ألقى عليه من المسك والعنبر[4] ؛ فهذه الحادثة، تؤكد لنا أن أهواء

---

(١) خليفة بن خياط:التاريخ (٢٦١) - ابن الأثير: الكامل/ جـ٤/ ١٩٠. ١٩١ محمود شاكر/التاريخ : ح ١٧٦/٤ .

(٢) «عباس بن سهل بن سعد الساعدي» ،أدرك زمن «عثمان»، روى الحديث عن بعض الصحابة، توفى في زمن «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» « بالمدينة »
- ابن حجر / تهذيب التهذيب / جـ ٥ / ١١٨

(٣) الصبر : نصب الإنسان للقتل ؛ فهو مصبور، وصبر الإنسان على القتل : نصبه عليه، يقال: قتله صبراً، وقد صبره عليه، وقد نهى رسول الله - ﷺ - أن تصبر الروح، ورجل صبورة، بالهاء: مصبور للقتل،وكل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطإ ؛ فإنه مقتول صبراً.
- ابن منظور/ لسان العرب / مادة صبر.

(٤) ابن الاثير/ الكامل / جـ ٤ / ١٩١، محمود شاكر:التاريخ الإسلامي : ١٧٦/٤

المدنيين فى هذا الوقت قد كانت إلى الزبيريين أمْيَلْ منها إلى الأمويين، الذين أصَّلوا لكراهيتهمْ فى أفئدة العامة بالحرم النبوى بقتلهم «الحسين»، ثم إباحتهم «المدينة» ونهبها وضربهم البيت الحرام بالمَنْجَنيقَات، وتجرؤهم على «المدينة» للمرة الثانية، «بحبيش بن دلجه» سالف الذكر.

لم يكن الإخفاق الذى ألمّ بحملة «ابن دلجة» يجعل «عبد الملك بن مروان» يغض الطرف عن «المدينة المنورة»؛ فتستمر سيطرة «ابن الزبير» عليها؛ لأن هذا يعنى أن خلافته ناقصة، إذْ هى لا تكتمل إلا بالسيطرة عليها ثم «مكة».

ومن ثم فقد أرسل إليها حملاتٍ عسكرية أخرى، غايتها الاستكشاف، وإزعاج «ابن الزبير» فى حاضرته، حتى يفرق جيوشه هنا وهناك، فَيَضْعُفُ أمره أمام «عبد الملك»؛ لأن «ابن الزبير» كان يجابه عدوين فى وقت واحد «عبد الملك» و «المختار بن أبى عبيد الثقفى»؛ فاقتضت سياسة «عبد الملك» أن يجعل «المختار» و «ابن الزبير» يتحاربان؛ حتى يدب الضعف فى كليهما؛ فإذا ما انتصر أحدهما على الآخر، بادر بالإجهاز عليه، ولمّا يسترد عافيته بعد.

وعلى كل حال؛ فإن «عبد الملك» أرسل إلى «المدينة» وتخومها «أبا القمقام»، ومن معه، فعسَفوا الناس هناك؛ فسير إليهم «جابر بن الأسود» «أبا بكر بن أبى قيس» فى ستمائة وأربعين فارساً فقاتلوهم؛ فانهزم أصحاب «أبى القمقام» وأسِرَ منهم ثلاثون رجلاً، فقتلوا صَبْراً، وقيل: بل قتل الخمسمائة أو أكثرهم، ثم وجه «عبد الملك» حملة أخرى بقيادة «طارق بن عمرو» مولى «عثمان» إلى تخوم «المدينة»، وأمره أن ينزل بين «أيلة»

و«وادى القرى» ويمنع عمال «ابن الزبير» من الانتشار، ويسد خللاً إن ظهر له، فوجه «طارق» إلى «أبى بكر» خيلاً، فاقتتلوا؛ فأصيب «أبو بكر» فى المعركة، وأصيب من أصحابه أكثر من مائتى رجل.

فلما جاء المدد البصرى إلى عامل «المدينة» بعث به لقتال «طارق بن عمرو» فألحق به الهزيمة مثلما فعل بسابقه «أبا بكر»؛ فنكّلَ بالقتلى والجرحى تنكيلاً شديدا؛ فلما وقف «ابن الزبير» على ما أسفرت عنه هذه المعركة مع الأمويين، عزل عن «المدينة» واليه «جابر بن الأسود» وعهد بها إلى آخر ولاته عليها[1] «طلحة بن عوف الزهرى» الذى كان يتولى قضاء «المدينة» زمن «يزيد بن معاوية» والمعروف بين الناس «بطلحة الندى»، شهد له العلماء بالعقل والصلاح، ولم تكن له تجربة فى ولاية الأمصار، ومع ذلك اختاره «ابن الزبير» ليتولى أمر «المدينة».

وفى ذلك الوقت الحرج الذى نجم الأمويين فيه إلى صعود؛ بينما نجم الزبيرين إلى أفول ؛ مما سهل على «طارق بن عمرو» تقديم المعاونة الصادقة لجيش «الحجاج بن يوسف الثقفى» الذى بعثه «مروان» إلى «المدينة» - كما سنبينه -.

ولاية الحجاج على المدينة

حظى صاحبنا باهتمام المصادر التاريخية به أكثر من اهتمامها بغيره من الولاة والقادة ؛ لأعماله التى عملها فى سبيل توطيد الأمور «لعبد

---

(١) ابن الأثير / الكامل / جـ٤ / ٣٤٩ .
إحسان صدقى: الحجاج بن يوسف الثقفى : صـ١١٧ .

الملك»، والتى كانت «المدينة» و«مكة» المكان الأول لظهور مواهب «الحجاج» الحربية ثم الإدارية،ولما كانت أعماله موضع نزاع بين المؤرخين والباحثين، منهم المادح له المعتذر عنه فى بعض ما فعل، ومنهم القادح فيه والمتهم له بارتكاب سيئ الأعمال منذ أسست الدولة الإسلامية، إلى أن صار إلى «الحجاج» أمر الولاية.

وحتى نكون على بينة من أمرنا، ونحن نتناول «الحجاج بن يوسف» والياً على «المدينة» نلمع بإيجاز إلى أبرز معالم نشأته الأولى، فنقول : إن أمه «فارعة» كانت تحت «المغيرة بن شعبة» فطلقها ثم بنى بها «يوسف الثقفى» فاستولدها «كليبا» الذى اشتهر بلقب «الحجاج».

ولقد كانت «الطائف» مسقط رأسه مدينة ذات زروع وثمار يعيش أهلها فى بحبوحة من عيشهم وكان «الحجاج» يعمل مؤدباً للصبيان إلى أن هيأت له الظروف الوصول إلى «الشام»، وفيها انخرط فى سلك الجندية فلفت الأنظار إليه.

ولقد شارك وأبوه فى جيش «أبى دلجة» الذى أرسله «مروان» إلى «المدينة»، كما سلفنا، فرأى بعينه كيف دارت الدائرة على الأمويين، وكيف استطاع أبوه أن ينجو به، وبنفسه من قتل محقق على يد «الزبيريين»؛ فتركت هذه التجربة آثاراً أليمة على نفسية «الحجاج»، الذى كان يقول بعد ذلك ما أقبح الهزيمة.

فلما شكى «عبد الملك» سوء أوضاع العسكر إلى وزيره «روح بن زنباع» ؛ أشار عليه «بالحجاج بن يوسف الثقفى» ؛ فاستعان به الخليفة وولاه الشرطه ولقد أعجب «عبد الملك» برأيه، وحسن بيانه، ففكر فى إسناد

عظيم المهام العسكرية إليه، منذ هذه الواقعة التى ذكرها غير واحد من أصحاب المصادر والمراجع التاريخية، وفيها أن «الحجاج» لما تولى أمر الشرطة، لم يعتد أحد أن يتخلف عن الرحيل، والنزول بدون علمه، سوى أعوان «روح بن زنباع» فوقف عليهم يوماً، وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون، فقال لهم: «ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟!» فقالوا له: إنزل يا ابن اللخناء فكل معنا؛ فقال : هيهات ! ذهب ما هنالك ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط، وطوفهم فى العسكر، وأمر بفساطيط «روح بن زنباع» فأحرقت بالنار؛ فدخل «روح بن زنباع» على «عبد الملك بن مروان» باكياً، فقال له: مالك؟ فقال: «يا أمير المؤمنين»، «الحجاج بن يوسف الثقفى» الذى كان فى عديد شرطتى ، خرب عبيدى، وأحرق فساطيطى!! فقال: إلى به. فلما دخل عليه قال: «ما حملك على ما فعلت؟ قال: ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين، قال ومن فعل؟ قال: أنت والله فعلته، إنما يدى يُدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على «روح بن زنباع» ما ذهب له[(1)]

فمن الطبيعى إذاً أن تلقى هذه الإجابة استحساناً من قبل أمير المؤمنين «عبد الملك بن مروان»؛ فإنها تعبر عن طاعة عمياء لرجل الدولة فى أمس الحاجة إليه ؛ نظراً للظروف القاسية التى تمر بها، وهى تسلك طريقاً لتوحيد أمصار الدولة من جديد، تحت راية الخلافة الإسلامية.

---

(١) البلخى / البدء والتاريخ :جـ٦/ ٢٨ - ابن عبد ربه /العقد الفريد/جـ٥/٩٣.١٤
محمود زيادة : [الحجاج بن يوسف الثقفى المفترى عليه]: صـ٣٢ ، ٣٣ .
إحسان صدقى: الحجاج بن يوسف الثقفى : صـ١٠٢ ، ١٠٣ .

ولم تكن هذه هى الواقعة الوحيدة التى جعلت «عبد الملك بن مروان» يبدى إعجاباً شديداً «بالحجاج»؛ فإن واقعةً أخرى لا تقل عنها أهمية تلتها، جعلت «عبد الملك» يزداد إعجاباً «بالحجاج»؛ ذلك أنه لما بعثه مع وفد لمفاوضة «زفر بن الحارث» صاحب «قرقيسياء»، وهو موالى «للزبيريين»؛ فلما حان وقت الصلاة صلى وحده، ورفض الصلاة مع الجماعه ؛ فلما سألوه قال: لا أصلى وراء منافق خرج عن طاعة أمير المؤمنين؛ فلما أخبر «عبد الملك» بموقف «الحجاج» هذا ، سُر به أيما سرورا!، وولاه «تبالة»[1] ؛[وهى أول ما ولى «الحجاج»، فلما قرب منها سأل عنها، فقيل له: إنها وراء هذه الأكمة، فقال أفٍ لبلدة تسترها أكمة»! اورجع عنها، فقيل فى المثل: «أهون من تبالة على الحجاج» ، ويبدو لنا أنه عاد إلى أمير المؤمنين يعتذر له عن الولاية، ويطلب منه عملاً فى الجيش، فولاه «عبد الملك بن مروان» شرطة «فلسطين» لأخيه «أبان بن مروان»][2].

ويلوح لنا أن النجاح الذى أحرزه «عبد الملك» على« الزبيريين» فى أمصار الدولة الإسلامية، جعل أمير المؤمنين يفكر فى سنة اثنتين وسبعين من الهجرة فى أن يبعث جيشاً إلى «مكة» و«المدينة» كلتيهما ليخلص الحرمين الشريفين من «ابن الزبير» الذى أصبح من وجهة نظر «عبد الملك» ضعيفاً بعد ما نزل برجاله فى «العراق»، وما كان من أمر مقتل «مصعب» على يدى الأمويين؛ فراح «عبد الملك» يجول ببصره يُمنة ويسرة باحثاً عن

(١) بالفتح : بلد «بتهامة» فى الطريق إلى «اليمن» ـ ابن عبد الحق مراصد الاطلاع جـ ١ ، ٢٥١ ـ ياقوت / معجم البلدان / جـ ١ / صـ

(٢) محمود زيادة / الحجاج بن يوسف المفترى عليه/ صـ ٤٠ .
إحسان صدقى / الحجاج بن يوسف حياته وآراءه السياسية :صـ ١٠٦ .

رجل يوليه تلك المهمة الدقيقة فى بلاد الحجاز؛ لأنه إن أخفق فيها؛ فإن ذلك سيكون بداية النهاية لخلافته، وإن كانت الأخرى؛ فإنها ستكون الخطوة الأخيرة فى جمع الشمل، ورأب الصدع، ويستطيع أمير المؤمنين أن يعيش بعدها خلافة هادئة على أمة «محمد» فاستقر رأيه على اختيار «الحجاج بن يوسف الثقفى» قائداً للجيش الأموى المتوجه من «الشام» إلى «مكة» ثم «المدينة».

ولقد ذكر أحد المؤرخين أن «الحجاج» لما أحس أن «عبد الملك» ينوى إرسال جيش إلى «مكة»، جاءه فقال له: [يا أمير المؤمنين، إنى رأيتُ فى منامى أنى أخذت «عبد الله بن الزبير» فسلخته، فابعثنى إليه ولّنى قتاله. فبعثه][(١)] .

ويرى أحد الباحثين أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى جعل «عبد الملك» يختار «الحجاج» على رأس حملته المتوجهه إلى «مكة»؛ فقال: إن هناك أسباباً أخرى يعزى إليها هذا الاختيار وهى :-

أولاً : [ظهور كفاءة «الحجاج» القيادية فى ضبط الجيوش، وتوجيهها للقتال، مما جعله موضع تقدير وثناء من قبل «عبد الملك».

ثانياً: [عدم رغبة «عبد الملك» فى البقاء مدة طويلة بعيداً عن بلاد الشام موضع قوته، وتخوفه من احتمال قيام عصيان آخر عليه فى

(١) اليعقوبى / التاريخ / جـ ٢ / ٢٦٦ .
ابن الجوزى / المنتظم / جـ ٦ / ص ١١٩
يوليوس فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية /ص ١٩٣
محمود زيادة/ الحجاج بن يوسف المفترى عليه/ ٤٤، ٤٥

«دمشق»، كما فعل «عمرو بن سعيد»، خاصة وأن اليمانية هناك ،كان هواها مع «خالد بن الزبير».

ثالثاً - معرفة «عبد الملك» بطبيعة خصمه «عبد الله بن الزبير»، وأنه لا يمكن أن يستسلم بسهولة، وأن الأمر لابد وأن ينتهي بحصاره وقتله، والتضييق على أهل «المدينة» و«مكة»؛ فأراد أن لا يقلد نفسه هذه المهمة التي ستؤثر على سمعته بين المسلمين، فضلاً عن كونه شخصية معروفة للكثيرين من أهل الحجاز، وسبق له أن عارض حملة «يزيد بن معاوية» على الحجاز فأراد أن يقلد رجلاً من غير بني أمية، للقيام بهذا العمل، فاختار «الحجاج» الذي بدأت نقمة المسلمين عليه منذ اضطلاعه بهذه المهمة[1]

ونضيف إلى ما تقدم سبباً آخر لا نعتقد أن عبد الملك أغفله، وهو يختار «الحجاج» لهذه المهمة الخطيرة، هو :

أن قائده من قبيلة «ثقيف» وهي تقيم على مقربة من «مكة»، ولا مراء في أن هذا يكسب القائد عصبيةً من ناحية، ويجعله على علم بالطريق من ناحية أخرى .

ناهيك عن الطموحات التي لمسها «عبد الملك» في شخصية «الحجاج»؛ فإنه كان يجعل نفسه في مصاف القادة العظام الذين يشدون أركان الدولة الأموية من جهة، وندا لأولئك القادة الكبار الذين خرجوا عليها من جهة أخرى .

ومهما يكن من أمر هذه الأسباب ؛ فإن «الحجاج» فصل من «الشام»

---

(1) إحسان صدقي : الحجاج بن يوسف الثقفي / ١١٩

فى ثلاثة آلاف [1] جندى قاطعاً الصحراء، حتى وصل إلى «الطائف»؛ فأناخ فيها الرحال، لينال رجاله قسطاً من الراحة، يذهب عنهم وعثاء السفر؛ لأنه إن قصد «مكة» مباشرة بعد هذه الرحلة الطويلة سيكون جيشه منهكاً؛ ومن ثم لا يقوى على قتال «ابن الزبير» ، ولأن بقاء «الحجاج» فى «الطائف» مدة قبل ذهابه إلى «مكة» سيضيق على «المكين» الذين يستمدون حوائجهم من «الطائف»؛ فيسخطون على «ابن الزبير» ، ومن ثم يدب الضعف فى رجاله[2].

وعلى كل حال؛ فإن «الحجاج» اهتبل فرصة وجوده «بالطائف»؛ فراح يبعث خيله فى جماعات، يتلو بعضها بعضاً ؛ فتناوش رجال «ابن الزبير» عند «عرفة»، وظل هكذا حتى استيقن من ضعف «ابن الزبير». إذ كان النصر حليف خيل «الحجاج» فى كل مرة يلقى فيها «الزبيريين»؛ فكتب إلى «عبد الملك»، يستمده الرجال، فأمر قائد حملته على «المدينة» «طارق بن عمرو» بأن يسير بمن معه إلى «مكة» لمؤازرته «الحجاج» فى حصاره لها، وقتله «لابن الزبير»، فسار «طارق» فى خمسة آلاف، فدخل «المدينة»، وطرد منها «طلحة الندى» آخر عمال «ابن الزبير» بها، وولى عليها رجلاً يسمى «ثعلبة» فصعد منبر المدينة بصورة تحمل الاستهزاء والسخرية بالمدنيين، حيث أكل التمر على منبر[3] رسول الله - ﷺ - .

---

(١)هذا العدد مبالغ فيه من وجهة نظرنا ولا سيما أن «الحجاج» وصل بهم من «الكوفة» بعد معركة عصيبه فى «العراق» [اليعقوبى:تاريخه / جـ ٢ / ٢٦٦]
ذكر اليعقوبى أن عدد جند الشام الذين ضمهم جيش «الحجاج» بلغ عشرين ألفاً .

(٢) محمود زياده/ الحجاج بن يوسف المفترى عليه/ ٤٥ ، ٤٦

(٣) المسعودى/ مروج الذهب / جـ ٣ / ١١٩ ، ١٢٠
ابن الأثير / الكامل / جـ٤ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

ويرى أحد الباحثين أن مبادرة «الحجاج» بالكتابة «لعبد الملك»، يستمدهُ ويستأذنه في الدخول إلى «مكة» بسرعة. راجع إلى [اقتراب موسم الحج؛ مما جعل «الحجاج» يتوجس خيفه من ازدياد قوة «ابن الزبير»، والتفاف حُجاج بيت الله الحرام حوله، مما يشجعه على شن هجوم معاكس على قوات «الحجاج» لإخراجها من الحجاز] (1).

وهذا صحيح ، ولا مانع لدينا أن يكون «الحجاج» رأى أنه فى إمكانه التخلص من «ابن الزبير» ومن معه، قبل الموسم ،ليتيح الفرصة للمسلمين أداء النُسك فى جو آمن وهادئ. والذى يدُلك على وجود مثل هذا الحرص لدى «الحجاج»، أنه عندما لم يستطع حسم أمر «ابن الزبير»، وقد حان وقت نسُوك «الحجاج»، استجاب لسعى«ابن عمر» بينه وبين «ابن الزبير»، للكف عن الحرب حتى يفرغ المسلمون «بمكة» من طواف الزيارة.

بعدها أذّن مؤذن «الحجاج» فيهم بضرورة الرحيل عن «مكة»، حتى يستكمل التضيق على «ابن الزبير» وأتباعه، مستخدماً فى سبيل ذلك، كافة الأسلحة المتاحة له بما فيها المنجنيقات، فلو لم يكن هذا الحرص موجوداً لدى «الحجاج» لاستمر فى حربه «لابن الزبير»، ولحال بين الناس وبين إتمام فرائض الحج.

ولا مانع لدينا أن يكون هذا الحرص من «الحجاج» راجعاً إلى رغبته تجنيب خليفته الأموى سخط الناس عليه ؛ إن هو حال بينهم وبين الحج ؛لأن هذا يُعَد من حسن السياسة والوفاء لخليفته الذى جعله على رأس هذا الجيش المتوجه إلى «مكة»(2).

(1) إحسان صدقى : الحجاج بن يوسف الثقفى/ ١٢٢ ، ١٢٣

(2) إبن الأثير / الكامل /جـ ٤ / ٣٤٩ ، ٣٥٠

ومهما يكن من أمر، فإن «الحجاج» ظل محاصراً «لمكة» حتى آتى حصاره لها ثماره المرجوة؛ فندرت السلع بها، وكان جند «ابن الزبير» يتنابون الحراسة على مداخلها، وقد عضهم الجوع «وابن الزبير» يقتر عليهم فى الغذاء.

فمن الطبيعى أن تأتى جماعات من عند «ابن الزبير» «الحجاج» مستأمنةً ؛ فكان «الحجاج» يرحب بهم، ويُمعن فى إكرامهم حتى إذا ما نشت تلك الأخبار فى جند «ابن الزبير»، كانت بمثابة مِعْوَل هدم آخر فى يد «الحجاج» يضرب به «عبد الله» ومن معه.

ولم يكن «الحجاج» خلال تلك المدة يكف عن ضرب البيت بالمنجنيقات وقد أرسل بكتاب إلى خليفته «عبد الملك» ضمنه وصفاً دقيقاً لأوضاع «ابن الزبير» فى «مكة»، وأنه يوشك أن يقضى عليه ؛ فكبر الشاميون فى مساجدهم لأخبار تلك الانتصارات.

والذى يدلك على مدى سوء الحالة التى وصل إليها «ابن الزبير» أن غير واحد من زوية فضلوا العيش فى أمان تحت راية «الحجاج» عن الموت المحقق. إن هم استمروا فى مؤازرة «عبد الله»[1]

لما استيقن «ابن الزبير» من شدة الحصار عليه، وتخلى رجاله عنه

---

(١) اليعقوبى / التاريخ / جـ ٢ / ٢٦٤ - ٢٦٦ .
المسعودى / مروج الذهب / جـ ٣ / ١١٩ ، ١٢٠ .
محمود زيادة / الحجاج بن يوسف المفترى عليه / صـ ٥٧
إحسان صدقى / الحجاج بن يوسف / ١٢٩ ،. ١٣٠
محمود شاكر / التاريخ الإسلامى / جـ ٤ / ١٦٨

وأنه لا مناص من قتله بسيوف الأمويين، صار إلى أمه وقد بلغت المائة عام وقد ذهب بصرها؛ فأقبل عليها وقال لها:

[يا أماه إن هؤلاء قد أعطوني الأمان ؛ فماذا تقولين؟ قالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت على غير الحق؛ فشأنك وما تريد.

قال يا أمه :إن الله ليعلم أني ما أردت إلا الحق ولا طلبت غيره ، ولا سعيت في ريبة قط، اللهم إني لا أقول ذلك تزكية لنفسي، ولكن لأطيب نفس أمّي، ثم قال: يا أماه. إني أخاف إن قتلني هؤلاء القوم أن يمثلوا بي، قالت: يابني: إن الشاة لا تألم للسلخ إذا ذبحت، قال: الحمد لله الذي وفقك، وربط على قلبك!

وخرج فخطب الناس، فقال: أيها الناس، إن الموت قد أظلكم سحابه، وأحدق بكم رِبَابَهُ، فغضوا أبصاركم عن الأبارقة، وليشتغل كل امرئ قرنه، ولا يلهيتكم التساؤل، ولا يقولن قائل: أين أمير المؤمنين؟ ألا من سأل عني فإني في الرعيل الأول[1].

ثم أخذ يقاتل الأمويين ومعه ثلة يسيرة من خلصائه؛ فلما رأى «الحجاج» أن الناس يخشون مواجهة «ابن الزبير» ويفرون أمامه، غضب، وترجل، وأقبل يسوق الناس ويصمد بهم صمد صاحب علم «ابن الزبير» وهو بين يديه ،

---

(١) اليعقوبي / تاريخة جـ٢/٢٦٧ – المسعودي/ مروج الذهب/ جـ/ ١٢١ محمود شاكر/ التاريخ الإسلامي : جـ ٤/ ١٦٨ .
السيد عبد العزيز سالم/ تاريخ الدولة العربية/ ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

فتقدم «ابن الزبير» على صاحب علمه، وضار بهم، وانكشفوا، وعرّج، وصلى ركعتين عند المقام، فحملوا على صاحب علمه فقتلوه عند باب «بنى شيبة»، وصار العلم بأيدى أصحاب «الحجاج»، فلما فرغ من صلاته تقدم نقاتل بغير علم ، فضرب رجلاً من أهل الشام، وقال: خذها وأنا ابن الحوارىّ! وضرب آخر، وكان حبشياً ، فقطع يده، وقال: اصبر «أبا حممة»، وقاتل حتى قتل، وقيل: إنه أصابته جراح فمات منها بعد أيام[1] وكانت وفاته فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وله من العمر، ثلاث وسبعين سنة[2] وبهذا تنتهى ثورة استمرت تسع سنوات، انسلخت فيها عن الدولة الأموية أمصار إسلامية ومن بينها «المدينة المنورة»؛ لتعود الوحدة من جديد للعالم الإسلامى، تحت راية خلافة «عبد الملك» فيما يعرف عند المؤرخين بعام الجماعة الثانى.

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التى جعلت النصر يمشى فى ركاب الأمويين والهزيمة تقع على الزبيريين؟!

والجواب:

أن بعض الباحثين الذين توفروا على دراسة ثورة «ابن الزبير»، أو تاريخ «الحجاج» بشكل مستقل التمسوا أسباباً عزوا إليها هزيمته على يدى «الحجاج»، والتى منها: –

(١) ابن الأثير/ الكامل / جـ٤ / ٣٥٥

(٢) خليفة بن خياط ٢٦٩

الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ / ١٨٧

ابن كثير / البداية والنهاية/ جـ ٨/ ٣٢٩

ابن قتيبة / المعارف / ٣٥٦

١ ـ وفرة موارد «الحجاج»، وقلة موارد «ابن الزبير» منذ أن خضعت العراق «لعبد الملك»، و«ابن الزبير» محصور «بمكة»، لا يصله من «العراق» المادة والذخيرة والرجال؛ فارتفعت أثمان الحاجيات حتى بيعَ مُدّ[1] الذرة بعشرين درهماً، بينما كان «الحجاج» في رغد من العيش؛ فكانت تأتيه العير من «دمشق» تحمل الكعك والسويق والدقيق بكثرة.

٢ـ كرم «الحجاج»، وبخل «ابن الزبير»، كان «الحجاج» يَغْمُرُ الناس بعطاياه، ويشجعهم بذلك علي القتال، فنراه يقول لهم [قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين]

٣ ـ استمساك «ابن الزبير» بالبقاء في «الحرم»، وكان من المُحَتَّمْ عليه من الوجهة الحربية أن يخرج عن مكة، ليهاجم «الحجاج» بعد طول السفر في «الطائف».

٤ ـ أخطاء «ابن الزبير» السياسية.

على أثر مقتل «الحسين بن علي» قام «ابن الزبير» في «مكة» خطيباً، مُبيِّناً للناس جور بني أمية، وقتلهم «الحسين» بن بنت رسول الله - ﷺ-، فبايعه المسلمون على أن يكون الأمر شورى بعد الفتح؛ فلما نجحت حركته، استبد بالأمر، ولم يقتصر على تجاهل بني هاشم بل اضطهدهم، وبلغ به العناد أن ترك الصلاة على النبي في خطبته قائلاً: إن له لأهل سوء يشْرَئِبُّون لذكره إذا سمعوا به[2].

---

(١) بالضم كلمة لاتينية ، وهو مكيال استخدمه اليونانيون للسوائل، والجوامد على حد سواء وهو وزن رطلان، وقيل : رطل وثلث أو ملئ كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما وكان يستعمل في المدينة ثم انتقل منها إلى بقية الأقاليم الإسلامية.
سامح عبد الرحمن فهمي / المكاييل في صدر الإسلام / ٣٠ ، ٣١

(٢) محمود زياد / الحجاج بن يوسف / المفترى عليه / ٦١ ، ٦٣

ونحن نضيف إلى ما تقدم سبباً آخر، هو هذا التباين فى القوات بين الجانبين ؛ فلم تكن لدى «ابن الزبير» فى «مكة» قوات عسكرية تقارب تلك التى جاء بها «الحجاج» إلى «مكة» ؛مما كان له الأثر العظيم فى جعل الغَلَبَةُ «للحجاج» على «ابن الزبير»، ناهيك عن كون «عبد الملك» استطاع أن يجمع من حوله أكفأ الرجال الذين رمى بهم «ابن الزبير» من أمثال «الحجاج»

أما «عبد الله بن الزبير»؛ فإنه لم يتوفر له ذلك فى هذا الوقت العصيب فضلاً عن أن جند «الحجاج» قاتلوا «الزبيريين» وهم يتمتعون بمعنويات مرتفعة ؛ فإنهم ما جاءوا «مكة» إلا بعد انتصارات أحرزوها هنا وهناك على الزبيريين»، والأمر على النقيض من ذلك فى معسكر «عبد الله».

والذى لا مراء فيه، أن الجندى إذا قاتل وهو فى حالة نفسية مرتفعة، يُبْدِي من ضروب القتال ما يجعل أعداءه يولونه الأدبار فى ميدان الحرب لكل ما تقدم ؛ فإن «عبد الملك» كافأ «الحجاج» على انتصاره الذى أحرزه، بتوليته «مكة» ثم «المدينة»؛ فأصبح والياً للحرمين الشريفين.

غير أنه لم يغادر «مكة» إلى «المدينة» إلا بعد أن دان له أهلُها بالطاعة، وعين عليها نائباً من «خزاعة» يدعى «عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث» وقدم المدينة أوائل عام ٧٤ هـ ؛ فأقام فيها شهراً حيث شرع فى تنظيم شئونها، إلاّ أنه اضطر إلى العودة «لمكة» بناءً على أمر «عبد الملك» له لِيُشْرِف بنفسه على إعادة بناء الكعبة [1] على الهيئة التى كانت

(١) ذكر المؤرخون أن بناء الكعبة الحالى يعود إلى «الحجاج» الذى أعاد بناءه وللوقوف على الوصف الدقيق للبناء وهيأته راجع «الدهلمى» فى كتابه (مكة وعلاقتها الخارجية) صـ١٢٤ ، ١٢٥ .

عليها قديماً قبل أن يتدخل «ابن الزبير» فى بنائها، ثم عاد «الحجاج» إلى «المدينة» مرة ثانية ؛ فأساء إلى أهلها ، واستخف بهم، وقال: أنتم قتلة أمير المؤمنين «عثمان» وختم أيدى جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم، كما يفعل بأهل الذمة منهم، «جابر بن عبد الله» و «أنس بن مالك»، و «سهل ابن سعد» الذى قال له: «ما منعك أن تنصر «عثمان»؟ قال: قد فعلت، قال: كذبت، ثم أمر به فختم فى عنقه برصاص.

على أن الحجاج بالرغم من قصر ولايته على «المدينة» لم يغفل العناية بالمنشآت المعمارية بها؛ فقد بنى مسجداً فى ديار «بنى سلمة» عرف باسمه[1] وظل «الحجاج» مقيماً فى «المدينة» حتى جاءه كتاب من «عبد الله» بولاية «العراقين»؛ فأعطى البشير ثلاثة آلاف دينار فرحاً بالولاية.

ولقد نسب كثير من المؤرخين إلى «الحجاج» أنه قال وهو خارج من «المدينة» فى إثنى عشر غلاماً يريد «العراق» [الحمد لله الذى أخرجنى من أم نتن أهلها، أخبث أهل بلد، وأغشه لأمير المؤمنين، وأحسدهم له على نعمة الله، والله لو لم تكن تأتينى كتب أمير المؤمنين فيها لجعلتها مثل جوف الحمار، أعوادا يعودون بها، ورمة قد بليت، يقولون : منبر رسول الله وقبره؛ فأخذه الله بعد أن أنظره)[2].

(١) النويرى / نهاية الارب / جـ ٢١ / ١٤٦ ، ١٤٧
ابن الجوزى / المنتظم: جـ ٦ / ١٤٢
إحسان صادق / الحجاج بن يوسف / ١٤٩
(٢) ابن الأثير : الكامل :٣٥٨/٤ ، ٣٥٩ .
إحسان صدقى / الحجاج بن يوسف / ١٥٢، ١٥٣

ولقد تشكك بعض الباحثين فى صحة نسبة ذلك القول «للحجاج»، فقال: أغلب الظن أن هذا القول وضعه خصوم «الحجاج» من أهل «المدينة» الذين كان يجمعهم عداء تقليدى مع بنى أمية وعمالهم. وقال: إنه لو صحت نسبته إلى «الحجاج» لكان السبب فيه إنكاره على المدنيين الطواف بمنبر رسول الله وقبره، كما يطوف المسلمون «بالكعبة»؛ فأغفل أعداء «الحجاج» ذكر مقصده من قوله «وعدّوه تهجماً منه على المدنيين، ولم تكن هذه هى التهمة الوحيدة التى اتهم بها «الحجاج» ؛ فإن الرجل كيلت له التهم بشكل أغلب الظن فيها أنها جزافية، الغاية منها إرضاء الخلافة العباسية التى دون فى عهدها التاريخ الأموى.

ولما كان «الحجاج» من أعظم الذين ضبطو الأمور للأمويين؛ فإنه كان أكثرهم استهدافاً للسهام التى رمى بها أعداء الدولة الأموية خلفاءها وقادتها.

وعلى كل حال؛ فإن «الحجاج» عزل عن «المدينة» بعد ما حقق «لعبد الملك» بها آماله المرتجاة؛ فضبطها له وساس أهلها بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، فلما أحس أمير المؤمنين، أن الوضع فى «العراق» أخذ يسوء بعد وفاة «بشر بن مروان» وأن البلد لا تساس إلا برجل من طراز «الحجاج بن يوسف» عزله عن «المدينة» ليرمى به العراقيين

يضاف إلى ما تقدم أن أمير المؤمنين وهو القرشى نسباً، المدنى نشأة، يعلم أن قاطِنى «المدينة»، و«مكة» يأنفون أن يحكمهم غير قرشى، وأن سياسة «الحجاج» فيهم بعد إحراز الانتصار عليهم ربما تجلب القلاقل على الخلافة الأموية.

ومن ثمَّ فإن «عبد الملك» وجد الأوفق له، ولدولته، أن ينحى «الحجاج» عن «الحجاز» بعد ضبطه، وتخصيص شوكة المتمردين فيه؛ ليفعل بالعراقيين ما فيه ضبط لبلادهم، وصلاح لشأنهم(١)

تأثر «عبد الملك» بالقاعدة الأموية التى تجعل «المدينة» لرجل من هذا البيت، حيث كانت ولاية «الحجاج» استثنائية فرضها الواقع السياسى الذى عاشته بلاد الحجاز؛ فعهد «بالمدينة» إلى «يحى بن الحكم بن أبى العاص» فى سنة خمس وسبعين للهجرة(٢).

ولم تكد تمضى سوى أشهر قليلة على ولايته، حتى جاء أمير المؤمنين بلاد الحجاز حاجاً؛ فاهتبل فرصة مروره على «المدينة»، فرقى مراقى المنبر، ليؤكد سياسته فى أهلها، وأنه لا تأخذه لومة لائم فى رجل يريد شق عصا الطاعة، ويخرج عن الجماعة، وأعلمهم كذلك أنه ليس على شاكلة أسلافه من الخلفاء الذين طمع المدنيون فيهم؛ فتألبوا على حكمهم، وشهروا الحسام فى وجوه رجالهم؛ فقال: [... فإنى لست بالخليفة المستضعف يعنى «عثمان»، ولا بالخليفة المداهن يعنى «معاوية» ولا بالخليفة المأفون(٣) يعنى «يزيد»، ألا وإنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم، وإنكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم

---

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ٦ ، ٢٠٢

النويرى: نهاية الأرب / جـ ٢١ ، ٢٠٧

إحسان صدقى / الحجاج بن يوسف / ١٤٩ ، ١٥١

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك / جـ٦ / ص ٢٠٢

(٣) «المأفون» من الرجال الذين لا رأى لهم يُرجع إليه وقيل، المتمدِّح بما ليس عنده ابن منظور: لسان العرب : مادة «أفن»

تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه . ثم نزل[1]

ويبدو لنا أن «يحى بن الحكم» والى «المدينة»، لم يكن على مستوى المسئولية التى ألقى بها على عاتقه «عبد الملك بن مروان»؛ فقد أخذ عليه أمير المؤمنين تركه لمصره، والذهاب إلى حاضرة الخلافة فى «دمشق» دون إذن منه ؛ أو داع يدعوه إلى ذلك؛ فلما وصلها الوالى فى رجب سنة ست وسبعين، سأله أمير المؤمنين، من استخلفت على عملك؟ فسمى له «أبان بن عثمان»؛ فعاقب «عبد الملك» «يحى» بعزله، وأرسل بالعهد لمن استخلفه فى «المدينة»[2] فيكون «يحى» ترك البلد أميراً، وعاد إليها مأموراً.

وتعيش «المدينة» سبع سنوات من تاريخها تحت إمرة «أبان بن عثمان ابن عفان أبو سعيد ، ويقال : أبو عبد الله ابن أمير المؤمنين الأموى المدنى.

وهو من الفقهاء العشرة المعدودين «بالمدينة»، وكان يعلم غيره من العلماء، القضاء بين الناس، له حديث عن رسول الله - ﷺ - وكثيراً ما قام بسفارات «لعبد الملك بن مروان»[3]

فمن الطبعى إذن أن تكون هذه السنوات التى قضاها «أبان» «بالمدينة» سنوات مدارسة للعلم فالناس على دين ملوكهم :كما يقولون : «المرء على دين خليله» .

---

(١) ابن الأثير/ الكامل/ جـ ٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .
ابن سعد/ الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ١١٥ ، ١١٦
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ١١٥ ، ١١٦
ابن الأثير : الكامل جـ٤/٤١٨.
(٣) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٦ / ٢٥٦
الذهبى / سير أعلام النبلاء / جـ ٤ / ٣٥٢ ، ٣٥٣

وقد شجع على ذلك أن حركات المعارضة «بالمدينة» قد انهكت، بعد الحملة التى قام بها «مسلم بن عقبة» ثم «الحجاج»على «المدينة» وما تخللهما من حملات صغيرة أومأنا إليها.

ومن ثمّ ، فإن من يقرأ مصادر التاريخ الإسلامى خلال الحِقْبَة التى حكم فيها «أبان بن عثمان»،«المدينة»، من سنة ست وسبعين إلى سنة ثلاث وثمانين، لا يقف منها على أحداث بارزة وقعت فيها، أثرت على علاقة أهلها بالخليفة الأموى «عبد الملك بن مروان»

وعليه ، فإن مدة حكم الوالى كانت هادئة، نعم فيها المدنيون بالأمن والأمان، ولم يقع فيها ما يُكدّر الصفو، حج خلالها الوالى بالناس مرتين[1].

ولم تكشف لنا المصادر النقاب عن الظروف التى جعلت «عبد الملك» يعزل واليه على «المدينة» «أبان بن عثمان» فى جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين من الهجرة.

ولعل ذلك راجع إلى شكاية بعض الناس فى «المدينة» إلى أمير المؤمنين، من أن واليه يعانى بعض الصَمَم[2] مما يحول بينه وبين الاستماع إلى شكاية الشاكين فى حجج المظلومين، وأن ذلك المرض قد تزايدت آثاره عليه بعد تقدم السن به؛ فرأى «عبد الملك» من الأصلح عزله ؛ والذى جعلنا نقول بذلك هو أن المرء إذا استقرأ ما جاء عن «المدينة» من أخبار خلال حِقْبة حكمه، لا يجد مبرراً معقولاً، يجعل «عبد الملك» يقدم على ما أقدم عليه إلا بسبب ما ذكرناه.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى / جـ ٥ / ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى/ جـ ٥ / ١١٥

الذهبى / سير أعلام النبلاء / جـ ٤ / ٣٥٢ ، ٣٥٣

وعلى كل حال ؛ فإن « أبان بن عثمان» قد غادر الحياة فى سنة خمس ومائة من الهجرة بسبب فالج[1] أصابه ، وكثيراً من الناس فى هذا العام حتى أسموه فى المدينة بعام فالج « أبان بن عثمان»[2]

وكان آخر ولاة «عبد الملك »على «المدينة» «هشام بن إسماعيل المخزومى» الذى عاصر خليفتين، وحيث ان «الوليد بن عبد الملك» هو الذى عزله؛ فإننا نرجئ الحديث عنه إلى عهد أمير المؤمنين «الوليد بن عبد الملك»

وبهذا تنطوى صفحة ولاة « المدينة» فى عهد «عبد الملك»، بعد أن مرت العلاقة بين وُلاتها، وبين الخلافة الأموية بمراحل كثيرة تأثَّر بها أهلها أيما تأثر!! فإن «عبد الملك» لما استَقبلَتْ الأمة خلافته، كان بينه وبين المدنيين مرحلة مُواجَهة ؛

إذ كانت «المدينة» خاضعة «للزبيريين»، ولقد استمرت هذه السياسة إلي أن أحرز «الحجاج» الانتصار على «ابن الزبير» .

ثم بدأت مرحلة أخرى، شابَهَا التَّرقبْ ؛ تلك التى حكم فيها «يحى بن الحكم بن أبى العاص» .

لتأتى مرحلة ثالثة وأخيرة غلبت عليها مدارسة العلم ونَشَرَ فيها الأمن راياته؛ لأن حاكمها « أبان بن عثمان» كان يؤثر السلام ويحب العلم ويدنى العلماء إليه.

---

(١) مرض يصيب الساقين وقيل اليدين وكلاهما يؤدى إلى الموت
ابن منظور : لسان العرب مادة :«فلج» .

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى /جـ ٥ / ١١٦
الذهبى/سير أعلام النبلاء جـ ٤ /٣٥٣

ولا نجد كبير عناء إذا ما أردنا الردود على المآخذ التى أخذها بعض الباحثين على حكم «عبد الملك» للحرمين الشريفين من إباحتهما لجيوشه، تلك الإباحة التى بلغت ذروتها، حين ضربت« الكعبة» بالمنجنيقات وأحرقتا! لأننا نحمل «ابن الزبير» مسئولية ذلك مثلما نحملها« لعبد الملك» وقائده.

إذ أن «عبد الله» لما خلع الطاعة ظلّ لائذاً بالبيت مُحْتمياً بقداسته، ولا ينبغى أن يكون البيت الحرام موضعاً للمتمردين، أو الخارجين، أو المطالبين بالخلافة بحد السيف ،إذ هو أجل وأعظم من هذا كله، ولو أن «عبد الملك» وقف مكتوف الأيدى أمام «عبد الله بن الزبير» بسبب احتمائه بالبيت لَتَسَبَّبَ ذلك فى أمور أدناها، انشطار الأمة إلى قسمين، ما يستتبع ذلك من جعل اللجوء إلى البيت سنّة سنها كل طالب فتنة فيلوذ به كلما أراد النجاة من العقاب.

وهذا فيه ما فيه من الفساد، والإفساد اللذين لا نظير لهما فهما إن انتشرا فى مجتمع عَجّلا بزواله.

وعليه فإن «عبد الملك» لا يلام حين يأمر «الحجاج» بملاحقة «ابن الزبير» أنى كان ؛ ليُضَيِّق عليه ؛ كى لا يدع مجالاً للفرقة.

أما بالنسبة لما نسب إلى قائده «الحجاج بن يوسف الثقفى»، من سفك لدماء الصحابة وإهانتهم ؛ فذلك أمر فى اعتقادنا مبالغ فيه، القصد منه النيل من الأمويين، وإن كنا نُسلم بحدوث بعضه بسبب أن الرجل ما جاء به إلى الحرمين إلا ثورة قامت، والقضاء عليها لا يكون إلا باستخدام الشدة التى لابد لها من ضحايا تختلف أراء الناس فى نظرتهم إلى مآلهم.

فمنهم من ينْحى باللائمة على القائد، ومنهم من ينفى عنه ذلك وينسبه إلى الخارجين، وهيهات أن يجتمع الناس على رأى واحد فى الحكم على الأعمال التى يقوم بها القادة العظام من طراز «عبد الملك» وقائده «الحجاج» .

وإن ننسى فلا ننسى الإشارة إلى أن ما كتب عن «الحجاج»، قد دون فى عهد العباسيين ؛ فلا مانع أن يكون المدوِّنون، والحالة هذه أرادوا من مدوَّناتهم التقرب إلى السلطان القائم، كما أن للرجل وجوه برٍّ ذكرتها هذه المصادر نفسها له، وهى مع قِلّتها بالنسبة لغيرها؛ فإنها لا تؤكد ما ذهبنا إليه من أن ظروف ثورة «ابن الزبير» التى لابست مجئ «الحجاج» إلى «المدينة» قد فرضت عليه سياسته معينه فى «مكة» ثم «المدينة» .

ولاة المدينة فى عهد الوليد بن عبد الملك

آلت الخلافة إلى «الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص» بعهد من أبيه، وقد كان «عبد الملك» يجهد نفسه مع ولده الأكبر حتى يعده لهذا اليوم ؛ فإن المؤرخين ذكروا عن «الوليد» جهله بالنحو، ولحنه فى قراءة القرآن، وهذا عيب عظيم ظلّ ملازماً «للوليد» بعد ما صارت إليه الخلافة، فيذكرون أنه لَحَن على منبر رسول الله -ﷺ- وهو يقرأ القرآن، ومع ذلك ؛ فإن المؤرخين ينعتونه بصلابة الرأى ، والهمة فى الفتوحات، واهتمامه بالأيتام، والعميان، والعِمارة؛ فهو الذى بنى مسجد«دمشق»، وقد استغرق بناءوه مدة خلافته تقريبا[1] ولقد كانت «المدينة» حين استوى الوليد على أريكة الخلافة تحت إمرة «هشام بن

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية/جـ٩/ ١٦٥ـ السيوطى/تاريخ الخلفاء/ ٢٢٣ ، ٢٢٤

إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي» حما «عبد الملك بن مروان»، وكان الرجل على النقيض من سابقه؛ فذكر غير واحد من المؤرخين عنه، أنه كان جباراً يأخذ رعيته بالشدة ؛ وآية ذلك ما فعله بفقيه «المدينة» «سعيد بن المسيب»[1].

ذلك أن «مروان بن الحكم» كان قد بايعه المسلمون بالخلافة ثم «عبد الملك» ثم أخاه «عبد العزيز»؛ فلما أراد «عبد الملك» حرمان أخاه منها، والبيعة لولديه «الوليد» ثم «سليمان»، أرسل الخليفة «عبد الملك» إلى الأمصار حتى يبايع أهلها ولدى «أمير المؤمنين» بالأمر من بعده واحداً بعد آخر، وكانت «المدينة» من بينها ؛ فبايع أهلها جميعهم سوى «سعيد بن المسيب»[2]؛ فإنه كره ذلك، وقال: لم أكن لأبايع بيعتين في الإسلام بعد حديث سمعته عن رسول الله -ﷺ- أنه قال :[إذا كانت بيعتان في الإسلام فاقتلوا الأحدث منها] .

فأتاه «عبد الرحمن بن عبد القاري»[3] قال: إني مشير عليك بثلاث خصال، اختر أيها شئت، قال: وما هي؟ قال له: إنك تقوم حيث يراك «هشام بن إسماعيل»؛ فلو غيرت مقامك؟ قال: ماكنت لأغير مقاماً قمته منذ أربعين سنة «لهشام بن إسماعيل» قال : فثانيه، قال: وما هي؟ قال:

---

(١) ابن سعد/ الطبقات الكبرى/جـ٥/١٨٨ - ابن كثير/ السابق/جـ٩/٧٦ .

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية / جـ ٩/ ٦٠ .

(٣) عرف بنسبه للقارى، وهم ولدالهون بن الخزيمة أخى أسد بن خزيمة ، ولد فى حياة النبى -ﷺ- ، عمل مع «عبد الله بن الأرقم» على بيت المال فى خلافة «عمر بن الخطاب» - رضوان الله عليه- ، ولم نقف له على تاريخ وفاة.
[ابن الأثير/ أسد الغابة/ جـ٣ / ٣٦٥] .

اخرج معتمراً، قال «سعيد»: ما كنت لأجهد نفسى، وأنفق مالى فى شيئ ليس لى فيه نية، قال له: فثالثه،قال: وما هى؟ قال:تبايع «للوليد» ثم «لسليمان»، قال: «سعيد»: أرأيت إن كان الله قد أعمى قلبك كما أعمى بصرك فما على؟! وكان «عبد الرحمن» هذا أعمى؛ فدعا «هشام بن إسماعيل» «سعيداً» إلى البيعة وكان ابن عمه؛ فلما علم بذلك القرشيون أتوا «هشاماً» فقالوا له: لاتعجل على ابن عمك حتى تكلمه، وتخوفه القتل فعسى به أن يبايع وأن يجيب[1]؛ فلما أخفق مسعاهم فى إقناع«سعيد» بالبيعة، أمر «هشام» بضربه ستين سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر، وأركبه جملاً، وطاف به فى «المدينة»، ثم أمر به إلى ثنية ذباب، وهى الثنية التى كانوا يصلون عندها ويقبلون، فلما وصلوا إليها ردوه إلى «المدينة» فأودعوه السجن، فقال لهم: والله لو أعلم أنكم لا تقتلوننى لم ألبس هذه الثياب، ثم كتب «هشام بن إسماعيل المخزومى» إلى «عبد الملك» يعلمه بمخالفة «سعيد» فى ذلك؛ فكتب إليه يعنفه ويأمره بإخراجه، ويقول له: إن «سعيداً» كان أحق منك، بصلة الرحم مما فعلت به، وإنا لنعلم أن «سعيداً» ليس عنده شقاق ولا خلاف .

ويروى أنه قال له : ما ينبغى إلا أن يبايع، فإن لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله[2] .

ويلوح لنا أن «الوليد بن عبد الملك» لما صارت الخلافة إليه أراد أن يخفف عن المدنيين العسف الذى ساسهم به «هشام بن إسماعيل المخزومى»

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة/جـ٢ / ٤٥

(٢) اليعقوبى تاريخه / جـ٢ ، ٢٨٠ - ابن كثير: البداية والنهاية : جـ٩/ ٦٠ .

والذى كان موقفه من «سعيد» مثالاً عليه ليس أكثر؛ فأمر بعزله عنها، وولاها «لعمر بن عبد العزيز».

والذى يدلك على شيوع ظلم «هشام» للمدنيين، أن «النويرى» عدّه من الطاغين المسفكين للدماء فى عهد «عبد الملك»إذ قال بعد أن عَدّد عمال الخليفة الذين ولاهم على الأقاليم ومنها «المدينة»: (وما منهم إلا من هو ظالم غشوم جائر»[1]

أما والى «المدينة» الجديد بعد «هشام»؛ فهو «عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف»، يكنى «أبو حفص القرشى» أم عاصم «ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم- »، ويقال: إنه أشج «بنى مروان»، وكان يقال: الأشَجّ والناقص، أعدلا «بنى مروان» ؛فهذا هو الأشج .

ولد على الراجح سنة إحدى وستين للهجرة، وهو من التابعين، روى عن «أنس بن مالك» وغيره من الصحابة الأعلام، وكانت «المدينة» مسقط رأسه على حد قول من الأقوال؛ فَنَهَل من علم رجالها؛ فنشأ محباً للعلم ومدارسته، ولقد كان مترف العيش، له مشية تعرف بين أهل «المدينة» «بالعمرية»

حظى بإعجاب عمه «عبد الملك» فزوّجه من ابنته «فاطمة»، وولاه الأعمال ؛ فلما كان ما كانٍ من أمر «هشام بن إسماعيل المخزومى» استقر

---

(١) نهاية الأرب : جـ ٢١ / ٢٨
ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ٩ / ١٩٢

رأى «الوليد» على أن يعهد «بالمدينة» إلى «عمربن عبد العزيز» فى سنة سبع وثمانين من الهجرة[1]؛ فوصلها فى سبع ليال خلون من ربيع الأول، فقدمها والياً، وحمله على ثلاثين بعيراً؛ فنزل دار «مروان» وجعل يدخل عليه الناس فيسلمون؛ فلما صلى الظهر دعا عشرة من الفقهاء الذين فى «المدينة»؛ «عروة ابن الزبير» و«أبا بكر بن سليمان»و«أبا خيثمة» و«عبد الله بن عتبة بن مسعود» و«أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث» و«سليمان ابن يسار» و«القاسم بن محمد» و«سالم بن عبد الله بن عمر» و«عبد الله ابن عبد الله بن عمر» و«عبد الله بن عامر بن ربيعة» و«خارجة بن زيد»؛ فدخلوا عليه؛ فقال لهم: إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، وبرأي منكم ؛ فإن رأيتم أحداً تعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا »[2]

ولعل «الوليد بن عبد الملك» أراد إشعار المدنيين أن عهداً جديداً فى حكم بلادهم قد بدأ مع ولاية «عمر بن عبد العزيز» أمورهم؛ فكتب أمير المؤمنين إلى عامله على المدينة «عمر بن عبد العزيز» كتاباً أمره فيه أن يقف «هشام بن إسماعيل» للناس وكان أمير المؤمنين سيئ الرأي به،

---

(1) خليفة بن خياط: تاريخه/ ٣١١ ـ عبد الشافى/تاريخ العالم الإسلامى/ ١٧١ ، ١٧٢

محمد الخضرى: تاريخ الدولة الأموية / ٥٠٩

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى : جـ ٥ / ٢٥٥

النويرى : نهاية الأرب / جـ ٢١ / ٣١٤

أحمد شلبى : موسوعة التاريخ / جـ ٢ / ٨١

وهذا الوالى أساء جوار «عليّ بن الحسين»؛ فخافه «هشام» لما وقف ليَقتصّ الناس منه ؛ فتقدم «على بن الحسين» إلى خاصته ألا يعرض له أحد بكلمة، ومر به «على » وقد وقف للناس، ولم يعرض له ؛ فناداه «هشام» وقال له : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)(١)

أما ولع «الوليد بن عبد الملك» بالمنشآت المعمارية ؛ فإنه نال الأقاليم الإسلامية نصيباً منه، وحظيت «المدينة» بالنصيب الأكبر؛ فإن أمير المؤمنين أدرك بثاقب نظره أن ثالث الحرمين مما يشد إليه الرحال يحتاج إلى توسعة نظراً لكثرة أعداد المسلمين المتزايدة على مرور الأيام والسنين ؛ فأزمع على توسعته؛ فكتب إلى عامله على «المدينة» «عمر بن عبد العزيز» فى ربيع الأول سنة ثمان وثمانين للهجرة بكتاب، [يأمره فيه بإدخال حُجرات أزواج النبى فى مسجد رسول الله -ﷺ-] وأن يشترى ما فى نواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع وقال له : قدم القيمة إن قدرت، وأنت تقدر لمكان أخوالك ،وأنهم لا يخالفونك، فمن أبى منهم ؛ فَقَوِّمُوا ملكه قيمة عدل واهدم عليهم، وادفع الأثمان إليهم ؛ فإن لك فى «عمر» و«عثمان» أسوة.

فأحضرهم «عمر» وأقرأهم الكتاب، فأجابوه إلى الثمن؛ فأعطاهم إياه(٢) وأخذوا فى هدم حجرات أزواج النبى محمد -ﷺ- ، ولم يبق إلا حجرة «عائشة» التى فيها القبور الثلاثة، وكان من رأى بعض أهل

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك / جـ ٦ / ٤٢٨

ابن الأثير: الكامل / جـ ٤ / ٥٢٦ ، ٥٢٧

(٢) المسعودى:مروج الذهب / جـ٣ / ١٦٦

ابن الأثير:الكامل/جـ٤/٥٣٢

عبد الشافى: تاريخ العالم الإسلامى/١٥٨

«المدينة» أن لا تكون فى المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين فى صلاتهم يشبهونها بالكعبة ؛ ففكر فى ذلك «عمر»، وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهى بزاوية لا يمكن استقبالها ؛فصار شكل الحجرة مخمساً.[1]

وكان «سعيد بن المسيب»يرى الإبقاء على الحجرات خارج المسجد، وعلل لذلك بقوله «وددت أنهم تركوها - يعنى حجرات أمهات المؤمنين على حالها؛ ينشأ ناس من أهل «المدينة»، ويقدم قادم من الأفق؛ فيرى ما اكتفى به رسول الله - ﷺ- فى حياته!! فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والفخر !!

وبنى المسجد بشكل جديد أدخل فيه «عمر بن عبد العزيز» المقابر والمحراب والشرفات، ولما كان المدنيون لا يحسنون القيام بالأعمال المعمارية؛ فإن أمير المؤمنين أرسل إلى «بلاد الروم»، يستقدم منها العمال المهرة، الذين يحسنون إقامة العمائر ؛ فجاء أربعون عاملاً قبطياً، ومثلهم من «الروم» وبعث ملك الروم إلى أمير المؤمنين لهذا الغرض أربعين ألف مثقال ذهباً وفسيفساء، وعمروه بالحجارة المنقوشة والفضة، وجعل سواريه بالحجارة المطعمه وحشيت بعمد الحديد والرصاص، وجعل حيطانه كلها من داخلها مزخرفة بالرخام ، وذهب الأساطين وجعلوا لها أكفاً مذهبة ، وكذلك ذهب أعتاب الأبواب[2]

(١) الخضرى: محاضرات فى تاريخ الدولة الأموية ٥٠٧
على حافظ: فصول من تاريخ المدينة المنورة/ ٨٣
(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك / جـ ٦/ ٤٣٥، الدينورى:الأخبار الطوال/٣٢٦
ابن الجوزى: المنتظم /جـ ٦ / ٢٤٢ ،محمد الخضرى :الدولة الأموية / ٥٠٧
على حافظ / فصول من تاريخ المدينة المنورة / ٨٣

وقد اهتم «الوليد» كذلك بجعل واليه على «المدينة» «عمر بن عبد العزيز» يعمل على تعبيد الطرق، والعناية بإعماق الآبار، وتوفير المياه للزائرين؛ فعم الخير فى عهد هذا الخليفة وواليه القاطنين فى «المدينة» والقادمين إليها[1]

ولما أراد أمير المؤمنين الحج، سنة إحدى وتسعين للهجرة، مر على «المدينة»؛ ليتفقد بنفسه ما تم من عمارة مسجد رسول الله -ﷺ- ، فخرج المدنيون، وعلى رأسهم واليهم «عمر بن عبد العزيز» لاستقباله ؛ فلما دخلها، أراد الذهاب إلى المسجد؛ فأمر الوالى بإخلائه له حتى يرى بناءه رؤية المتأمل، إذ كان ينظر العمارة نظرة الفاحص لفنون بنائها ؛ فأخلى له المسجد النبوى؛ فلم يبق به سوى «سعيد بن المسيب»؛ فلم يتجاسر أحد على إخراجه، وكان عليه ثياب لا تساوى خمسة دراهم؛ فقيل له: تنح عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادم؛ فقال: والله لا أخرج منه؛ فدخل «الوليد» المسجد؛ فجعل يدور فيه، ويصلى هاهنا وهاهنا ويدعو الله -عز وجل-، قال «عمر بن عبد العزيز»: وجعلت أعدل به عن موضع «سعيد» خشية أن يراه، فكانت منه التفاتة؛ فقال: من هذا ؟ أهو «سعيد بن المسيب»؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، و لوعلم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك. فقال: قد علمت ببغضه، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه وإنه، وشرعت أثنى عليه، وشرع «الوليد» يثنى عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر. وإنما قلت ذلك لأعتذر له، فقال: نحن أحق بالسعى إليه؛ فجاء فوقف عليه، فسلم عليه، فلم يقم له «سعيد»، ثم قال

---

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ٦/٤٣٦

«الوليد»: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال «الوليد»: بخير والحمد لله وحده، ثم انصرف، وهو يقول «لعمر بن عبد العزيز»: هذا فقيه الناس، فقال: أجل يا أمير المؤمنين! »[1]

وحرص الخليفة على أن يصلي الجمعة مع المدنيين، فأدى الصلاة [في دراعة وقلنسوة في غير رداء، وخطب قاعداً، وتوعد أهل «المدينة»، فقال: إنكم أهل الخلاف والمعصية؛ فقام إليه قوم فكلموه، وكلمه «أبو بكر بن عبد الرحمن» ؛ فقال: ما نجهل ما تقولون، ولكن في النفوس ما فيها] .

وقبل أن يغادر« الوليد» «المدينة» إلى «مكة»، فرق في أهلها الدقيق والمال وآنية الذهب[2]

والذي لا مراء فيه، أن المدنيين تفيؤا ظلال الأمن والأمان، وعاشوا في رخاء في ولاية «عمر بن عبد العزيز» الذي ما كان يألوا جهداً في سبيل إقامة العدل بين الرعية، فحرص على أن يحج بهم مرة، وكان إذا ما ألم بالرعية في ولايته ضائقة، تضرع إلى الله ليفرجها؛ فيذكرون أنه حيث حج بالناس؛ فبينما هو في الطريق من «المدينة» إلى «مكة» جاء بعض المكيين، يقولون له: إن الماء شحيح في «مكة»، ونخشى على الحجيج الهلاك بسبب ذلك فاستسقى ومن معه؛ فاستجاب الله له، فما وصلوا إلى

---

(۱) ابن الجوزي: المنتظم / جـ ٦/ ٣٠٠ ، النويري: نهاية الأرب ج ٢١ : ٣٢٠
محمود شاكر: التاريخ الإسلامي/ جـ ٤ /٢١٤ ، ٢١٥

(٢) اليعقوبي : تاريخه / ٢٨٤، ٢٨٥ ،الطبري:تاريخ الرسل والملوك/٤٦٥
ابن الأثير: الكامل/ جـ٤/ ٥٥٤
محمد الخضري: تاريخ الدولة الأموية /٥٠٨/ ٥٠٩

البيت إلا مع المطر، فجاء سيلٌ خاف منه أهل «مكة»، فكثر الخصب فى تلك السنة[1].

بيد أن هذه السياسة لم تكن تروق بعض رجال الدولة الأموية ؛ فوشوا به لدى أمير المؤمنين «الوليد بن عبد الملك».

فهذا هو «الحجاج بن يوسف» يذكر فى كتاب بعث به إلى «الوليد بن عبد الملك»، أن «المدينة» غدت فى عهد «عمر بن عبد العزيز» ملاذاً آمناً، يأوى إليه العراقيون الخارجون على الدولة، وأن الخليفة إذا وقف من هذه الظاهرة موقف اللامبالاة؛ فإن عواقب ذلك ستكون وخيمة، على الخلافة الأموية.

ولما كان «الحجاج» فى هذا الوقت يتولى نصف العالم الإسلامى تقريباً؛ فإن كلمته وجدت سبلاً ممهدةً إلى فؤاد أمير المؤمنين؛ فأخذ بها، وأرسل إلى «الحجاج» كتابا يستشيره فى من [يوليه «المدينة» و«مكة»؛ فأشار عليه «بخالد بن عبد الله القسرى»[2]، و«عثمان بن حيان»، فولى «خالدا» «مكة»، و«عثمان» «المدينة»، وعزل «عمر» عنها][3] ؛ فلما

---

(١) ابن الأثير: الكامل/ جـ ٤ / ٥٣٤ ـ ابن الجوزى: المنتظم جـ ٦/ صـ ٢٨٨

(٢) ابن يزيد بن أسد: أحد خطباء العرب وأجودهم عرف بشدته حتى قارنه بعض المؤرخين «بالحجاج» ،توفى بعد التعذيب والحبس فى سجن «يوسف بن عمر» الصفدى: الوافى بالوافيات / جـ٣ / ٢٥٧ ، ابن حجر: تهذيب التهذيب/ جـ ١٠/ ١٠١، ١٠٢ ، الزركلى: الاعلام / جـ ٤ / ١٧٦

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك/ جـ ٦ / ٤٨١ ، ٤٨٢ ،ابن كثير: البداية والنهاية/جـ ٩/ ١٨٤ . ١٨٥ .عبد الشافى: تاريخ العالم الإسلامى/ ١٧٢

خرج منها التفت إليها، وبكى وقال لمولاه: يا «مزاحم»[1] ، نخشى أن نكون ممن نفته «المدينة»، أى أنها تنفى خبثها، كما ينفى الكير خبث الحديد. وينصع[2] طيبها، وخرج «عمر» من «المدينة»، وهو يعانى من أثر الخروج منها، فقال: خرجت من المدينة، وما من رجل أعلم منى، فلما قدمت «الشام» نسيت[3].

وبخروج «عمر» من «المدينة» تطوى صفحة من أنصع صفحات تاريخ ولاتها، فقد ازدهرت الحركة العمرانية على أرضها للمنشآت الهامة والمرافق العامة، وإن كان لنا من مأخذ نأخذه على سياسة الوالى، خلال مدة ولايته على «المدينة»؛ فهو موقفه من «خبيب بن عبد الله بن الزبير».

فقد أوقفه الوالى، وضربه مائة سوط، وصبَّ عليه الماء البارد ؛ فمات!! وكان اليوم بارداً، لا لشئ سوى أنه لما أراد الوالى هدم حجرات أزواج النبى - ﷺ - ، قام «خبيب بن عبد الله بن الزبير» إلى «عمر» والحجرات تهدم؛ فقال: نشدتك الله يا «عمر»، أن تذهب بآية من كتاب الله، تقول:«إن الذين يناودنك من وراء الحجرات»]؛ فلما تولى «عمر» الخلافة صار إلى ما صار إليه من الزهد فما فتىء، يقول:من لى «بخبيب»[4].فكان الأحرى

---

(١) ابن مزاحم المكى روى عن سيده وعن «عبد العزيز بن عبد الله» ذكره «ابن حبان» فى الثقات ولم نقف له على تاريخ لميلاده أو لوفاته .
ابن حجر: تهذيب التهذيب / جـ ١٠ / ١٠١

(٢) الناصع: الخالص من كل شئ ، ابن منظور : لسان العرب :مادة :«نصع»

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية /جـ ٩/ ١٩٥

(٤) اليعقوبى / تاريخ اليعقوبى / جـ ٢ / ٢٨٤

«بعمر» وهو الفقيه الذى يعرف للولاية خصائصها، وواجباتها، ألا يفعل هذا «بخباب»، وأن يستبدل الحوار بتعذيبه، وهى وإن كانت سيئة ارتكبها «عمر بن عبد العزيز»، وهو «بالمدينة»؛ فإنها تعد هينة، إذا ما قارناها بالحسنات العظيمة التى أجمع المؤرخون على قيامه بها، وهو والٍ على «المدينة»، بأمر من خليفته «الوليد بن عبد الملك».

أما والى «المدينة» الجديد هو «عثمان بن حيان بن معبد بن شداد بن نعمان بن عوف المرى»؛ فإنه كان على النقيض من سلفه؛ فساس أهل «المدينة» بالعسف، وأنزل بهم البطش، ولاحق «العراقيين» «بالمدينة»، أنىّ كانوا؛ فأمر مناديه، أن ينادى فى طرقاتها، أن الذمة بريئة من كل «مدنى»، يأوى «عراقياً» ،وكان إذا أمسك جماعة منهم قتلهم، أو بعث بهم إلى «الحجاج بن يوسف الثقفى» فى «العراق»[1].

وقد كشف النقاب عن سياسته فى «المدنيين»، وموقفه من «العراقيين» بها، حين ألقى خطبة، قال فيها: بعد حمد الله، والصلاة والسلام على رسوله الذى اصطفاه: «أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين، فى قديم الدهر وحديثه ، وقد ضوى[2] إليكم من يزيدكم خبالاً. أهل «العراق»؛ هم أهل الشقاق والنفاق، هم والله عش النفاق وبيضته التى تفلقت عنه، والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه، الذى يقول فى آل أبى طالب ما يقول، وما هم لهم بشيعة، وإنهم

---

(١) ابن الجوزى/المنتظم / جـ٦ / ٣١٧

ابن حجر: تهذيب التهذيب/ جـ٧ / ١١٣

(٢) أتى إليكم [ابن منظور : لسان العرب : مادة«ضوا»] .

لأعداء لهم ولغيرهم، ولكن لما يريد الله من سفك دمائهم؛ فإني والله لا أوتى بأحد آوى أحداً منهم أو أكراه منزلاً، ولا أنزله، إلا هدمت منزله، وأنزلت به ما هو أهله»](١) .

وهكذا ترى الوالى«المرى» يذكر «المدنيين» بسيرة رجل مرّى آخر وهو «مسلم بن عقبة» ذلك الذى فعل بالمدنيين ما فعل بعد موقعة الحرة، وأن سياسته فى أهلها تعد امتداداً لسياسة الحجاج، التى كان ساسهم بها، لما آل إليه أمرها فى عهد «عبد الملك بن مروان»، كما سلفناه فى حديثنا.

وعلى كل حال ، فإن «عثمان المرى» ظل يدبر أمر «المدينة»، إلى أن توفى «الوليد بن عبد الملك»، وجاء إلى الخلافة أخوه «سليمان».

ولاة المدينة فى عهد سليمان بن عبد الملك

لما شغر منصب الخلافة بوفاة «الوليد» فى جمادى الأول سنة ست وتسعين للهجرة آل أمر المنصب إلى أخيه «سليمان بن عبد الملك، أبو أيوب»، وكان على النقيض من أخيه فى فصاحته، وسياسته لرعيته فالمؤرخون يذكرون عنه أنه نهى الناس عن استماع الغناء، وكان يحسن إلى «العلويين» فى «المدينة» وغيرها، ويتخذ «عمر بن عبد العزيز» مستشاراً له؛ فكان «سليمان» لا يمضى أمراً إلا بمشورة «عمر» فحين جلس «سليمان» على أريكة الحكم، استدنى «عمر» إليه وقال له: [يا أبا حفص، إنا قد ولينا ما ترى، ولم يكن لنا بتدبيره علم ؛ فما رأيت من مصلحة العامة فمُرْ به يكتب](٢).

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٦ / ٤٨٥

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك : جـ ٦ / ٥٠٥، السيوطى: تاريخ الخلفاء/ ١٩٠
حسين عطوان : الأمويون والخلافة / ١٥٩

فمن الطبعى إذاً أن نجد «المدينة»، تتأثر بهذا الاتجاه السياسى الجديد لأمير المؤمنين؛ «فعمر» الذى كان بالأمس القريب واليا عليها، يعين الخليفة على تدبير أموره.

ومستشاره هنا، ينشر السماح والمروءة والعدل أنى كان، ومن ثم كان أول عمل يقوم به «سليمان»، عزل عمال أخيه عن أعمالهم، واستبدال غيرهم بهم، وإذا كان«عمر» أشار على «سليمان»بذلك، ليخلص رعايا الدولة من ظلم هؤلاء العمال، مثل «الحجاج» «بالعراق»، «وقرة بن شريك» «بمصر»، و«عثمان بن حيان» فى «المدينة» -موضوع كتابنا-، فإن ذلك الأمر، وافق هوى فى نفس «سليمان»؛ فهؤلاء العمال كانوا شاطروا أخاه «الوليد» فى عزمه على حرمان «سليمان» من ولاية عهده، بناءً على وصيته «عبد الملك» وجعل ذلك «لعبد العزيز بن الوليد».

فلما لم ينجح «الوليد» فى تحقيق مأربه هذا، وآلت الخلافة إلى «سليمان»، عمد إلى عزل هؤلاء العمال، الذين ضحوا ببيعتهم له بولاية العهد، إرضاءً لأميرهم «الوليد بن عبد الملك»[1].

وكان «عثمان المرى» والى «المدينة» من المعزولين.

فيذكر المؤرخون أن الوالى جاءه خبر العزل فى رمضان سنة ست وتسعين للهجرة فاستراح المدنيون والعراقيون المقيمون بها من ملاحقته لهم، لتستقبل «المدينة» عهداً جديداً تحت حكم واليها «أبو بكر محمد بن

(١) ابن الأثير: الكامل/جـ ٢/ ١٠، ١١
ابن كثير : البداية والنهاية/جـ ٩/ ١٦٦، ١٦٧
السيوطى: تاريخ الخلفاء/٢٢٥، ٢٢٦

حزم»[1] الأنصارى المدنى وقد كان إليه قضاء «المدينة»، قبل أن يصبح والياً عليها، وكان «عثمان المرى» يتربص به ويود الانتقام منه؛ لأن الرجل كان على النقيض منه فى سياسة الرعية ؛ فيذكر «الطبرى» أن «أبا بكر بن حزم» :[قد استأذن «عثمان»، (وهو فى ولايته) أن ينام فى غد، ولا يجلس للناس، ليقوم ليلة إحدى وعشرين من رمضان ؛ فأذن له، وكان «أيوب بن سلمة المخزومى» عنده، وكان الذى بين «أيوب بن سلمه »وبين «أبى بكر بن عمرو بن حزم» سيئاً، فقال «أيوب» «لعثمان»: ألم تر إلى ما يقول هذا؟ إنما هذا منه رئاء ؛ فقال «عثمان» : قد رأيت ذلك، ولست لأبى إن أرسلت إليه غدوة، ولم أجده جالساً، لأجلدته مائة، ولحلقت رأسه ولحيته، قال «أيوب» :فجاءنى أمر أحبه ؛ فعجلت من السحر؛ فإذا شمعة فى الدار، نقلت: عجل المرى، فإذا رسول «سليمان» قد قدم على «أبى بكر» بتأميره، وعزل «عثمان» وحده .

قال «أيوب»: قد خلت دار الإمارة فإذا«ابن حيان» جالس، وإذا «بأبى بكر» على كرسى يقول للحداد: اضرب فى رجل هذا الحديد، وننظر إلى «عثمان» فقال :

أبوا على أدبارهم كشفا .·. والأمر يحدث بعده الأمر][2]

فأنت ترى كيف أن الله يرد كيد الوالى السابق «عثمان بن حيان» إلى نحره، حين جاء خبر «سليمان»، بتوليه غيره على «المدينة» عوضاً عنه.

---

(١) ابن الأثير / الكامل/جـ ٥/ ١١

ابن كثير: سبق ذكره / جـ ٦ / صـ ١٦٦

يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية / ٢٤٩

(٢) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك : جـ ٦ ، ٥٠٥

ومن الطبعى أن تكون سياسة الوالى الجديد مختلفةً عن سابقه؛ فإن «عمر بن عبد العزيز» هو الذى أشار على «سليمان»، بتولية «المدينة» «لأبى بكر بن حزم»، حيث كان «عمر» قد خبره، فى فترة ولايته على «المدينة»؛ فرأى ما رأي فيه من الصلاح !!

ولذلك أشار به؛ فيذكر عن «أبى بكر بن حزم» أنه كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، قيل: إنه كان كثير العبادة والتهجد ما اضطجع على فراشه سوى اليسير من الليل طيلة أربعين سنة(١)

ولأن «سليمان بن عبد الملك» كان يريد الاستقرار للمدينة ؛ فإنه لم يلجأ إلى استبدال «ابن حزم» بغيره ، لما رآه من صلاحه ؛ فى مصره، فظل«ابن حزم» على ولايته حتى وافت المنية «سليمان بن عبد الملك» يوم الجمعة عاشر صفر سنة تسع وتسعين للهجرة ، (٢) لتؤول الخلافة إلى «عمر ابن عبد العزيز» .

ولاة المدينة فى عهد « عمر بن عبد العزيز »

لقد ذكرنا أن «سليمان بن عبد الملك» كان محبّاً «لعمر بن عبد العزيز»، ويفعل كل صالح للأمة مسترشداً فى ذلك برأيه.

فلما أحس «سليمان» بدنو أجله استدعى إليه «رجاء بن حيوة»، وكان من الصالحين ؛ ليستشيره فيمن يوليه الأمة من بعده؛ فلما عرض عليه «سليمان» أن يستخلف على الأمة أحد ولديه، فقال له: إن «داود» صغير،

(١) الصفدى / الوافى بالوفيات / جـ ١٠ / ٢٤٧
(٢) السيوطى / تاريخ الخلفاء / ٢٢٦

و«أيوب» غائب يجاهد الأعداء، ولا ندرى أهو حى؟ أم لا؟؛ فلما استقر رأى «سليمان» على استخلاف «عمر بن عبد العزيز» على الأمة بعده، أملى على «رجاء» كتاب الاستخلاف، وفيه: [بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من «عبد الله سليمان» أمير المؤمنين «لعمر بن عبد العزيز»، إنى قد وليتك الخلافة من بعدى، ومن بعدك «يزيد بن عبد الملك»؛ فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله، ولا تختلفوا؛ فيطمع فيكم عدوكم] وختم الكتاب، وأمر بجمع أهل بيته ؛ فلما اجتمعوا، قال «لرجاء»: إذهب بكتابى هذا إليهم؛ فأخبرهم أن هذا كتابى، ومرهم ؛ فليبايعوا من وليت؛ فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه][1]

فلما وافت «سليمان» المنية فى يوم الجمعة عاشر صفر سنة تسع وتسعين للهجرة [2] رقى «عمر» مراقى المنبر، وخطب خطبة، وقال: [أيها الناس ؛ إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وأنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون؛ فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا، ورضينا كلنا بك ؛ فلما هدأت أصواتهم، حمد الله وأثنى عليه وقال: أوصيكم بتقوى الله؛ فإن تقوى الله خلف من كل شئ، وليس من تقوى الله خلف، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله، وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها، ولا فى كتابها، ولا فى نبيها، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم، وإنى لا أعطى

---

(١) ابن الأثير: الكامل :جـ ٥ / ٣٩ ، ٤٠ ، السيوطى: تاريخ الخلفاء /٢٢٧
محمد الخضرى : تاريخ الدولة العربية / ٥٢٢

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء / ٢٢٦ .

أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً، أطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . ثم نزل، فدخل، فأمر بالستور فهتكت، والثياب التى كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت، وأدخل أثمانها فى بيت المال](١)

فنحن نرى من خلال خطبته أن الرجل يريد أن يسوس الأمة سياسة على غرار سياسة الخليفتين «أبى بكر» ثم «عمر».

والأمة قد طال عهدها بمثل هذه السياسة التى طبقها «عمر» على نفسه قبل غيره، وهو يأبى أن يُسير صاحب الشرطة بين يديه كما كان يسير بين يدى أسلافه من الخلفاء، ويكتب لعامله على «المدينة» «أبى بكر بن حزم» -لما طلب منه أوراقاً ليكتب عليها المراسلات الرسمية -كتابا يقول فيه : (دقق قلمك، وقارب بين أسطرك، فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به)(٢)

كذلك كانت توجيهاته لسائر العمال، وكل من يكتب بين يديه أن يقتصد فى استخدام أموال الدولة ما استطاع لذلك سبيلاً.

وهذه الخلافة الراشدة لم تنعم الأمة بها سوى عامين وخمسة أشهر وبضعة أيام!! فقد وافى «عمر بن عبد العزيز» أجله فى رجب سنة أحدى ومائة، وقد أبرأ ذمته من ظلم تعمد إيقاعه خلال مدة ولايته ثم خلافته بفرد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية/ جـ ٩ / ٢١٣

(٢) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٦ / ٥٧١ ـ الذهبى / سير أعلام النبلاء / جـ ٥ / ١٣٢

ـ محمد الخضرى / تاريخ الدولة الأموية / ٥٢٣

ـ عبد الشافى / تاريخ العالم الإسلامى/ ١٨٢

من أفراد أمه «محمد» دون أن يلوم نفسه عليه، بعد وقوعه طالباً الصفح والتوبة من الله !

وبوفاته تُطوى صفحةٌ من صفحات الخلافة الأموية ؛لتبدأ أخرى حاملة معها الجديد بالنسبة للأمة عامة وللمدنيين خاصة.

ولاة المدينة فى عهد يزيد بن عبد الملك

سارت الخلافة «ليزيد بن عبد الملك» بعهد من «سليمان بن عبد الملك» إذ كان ذكر فى كتابه، أن الخلافة «ليزيد» بعد أن يوافى «عمر بن عبد العزيز» الأجل ! وقد جلس الخليفة فى دست الحكم، وهو يبلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً؛ فغير كل ما كان فعله «عمر»! فعين عمالاً على الأقاليم، يختلفون فى سياستهم، وسيرتهم عن أولئك الذين استعان بهم «سليمان» ثم «عمر»[1]، ومن بينهم «عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهرى» الذى كان والياً للأمويين على «الطائف» قبل «المدينة»؛ فلما قدم الوالى إليها، أخذ أهلها بالظنة وحاول إذكاء العصبية العشائرية فيهم حاسباً أن ذلك سَيُديمُ عليه سلطانه ويحفظ له الأمن فى البلاد.

ويذكر المؤرخون له عدة مواقف، منها الذى يؤكد ما ذكرناه، ومنها ما يدل على أنه منعوت بالظلم، والبحث عن شهواته أنى كانت؛ فلا يهمه أى طريق يسلك فى سبيل تحصيلها؛ ليحقق بها أطماعه وطموحاته فى إكساب نفسه صفات العظمة والأصالة، وهو أبعدُ من أن ينعت بمثل تلك الصفات.

---

(١) اليعقوبى : تاريخه جـ ٢/ ٣١٢ ، ٣١٣ . ابن كثير/البداية والنهاية:جـ٩/ ٢١٩ السيوطى / تاريخ الخلفاء / ٢٤٦

وذكر أصحاب المصادر أن «عبد الرحمن» حين قدم «المدينة»، تربص بسابقه فى الولايه -ابن حزم-؛ فاتهمه بالخيانة، وأرسل إليه من يخبره برأى الأمير فيه؛ فأنكر «ابن حزم» أن تكون للخيانة إليه من سبيل.

ولما كان «ابن حزم» قد ألقى القبض على «عثمان بن حيان» والى «المدينة» بعد ما آلت البلاد إليه، سار «ابن حيان» إلى «يزيد بن عبد الملك» يطلب منه القصاص له من «ابن حزم» الوالى المعزول عن «المدينة»؛ فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى واليه على المدينة «عبد الرحمن الفهرى».

قال فيه : [أما بعد، فانظر فيما ضرب «ابن حزم» «ابن حيان»؛ فإن كان ضربه فى أمر بيّن فلا تلتفت إليه، وإن كان ضربه فى أمر يختلف فيه فلا تلتفت إليه، فإن كان ضربه فى أمر غير ذلك فأقده منه]

فقدم «عثمان» بالكتاب على «عبد الرحمن بن الضحاك»؛ فقال «عبد الرحمن»: ما جئت بشئ، أترى «ابن حزم» ضربك فى أمر لا يختلف فيه؟ فقال «عثمان» «لعبد الرحمن» : إن أردت أن تحسن أحسنت، قال: الآن أصبت المطلب، فأرسل «عبد الرحمن» إلى «ابن حزم» ؛ فضربه حدّين فى مقام واحد، ولم يسأله عن شئ](١)

مما تقدم ترى أن الوالى لم ينفذ ما جاء فى كتاب الخليفة على الوجه الذى أراده منه أمير المؤمنين، وفضل مجاملة «عثمان المري» على تنفيذ شرع الله فى حد من الحدود؛ فغض الطرف عن تحرى البينة، قبل إقامة الحد؛ فهذا يدلنا على أن الوالى لم يكن على مستوى المسئولية التى ألقاها «يزيد» على كاهله .

---

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٦ / ٥٧٥

وأسوء من ذلك ، موقفه من «فاطمة بنت الحسين»[١]؛ فقد أرسل ليخطبها فقالت: والله ما أريد النكاح، ولقد قعدت على بنيّ هؤلاء، وجعلتْ تحاجزه، وتكره أن تُنابذَه ؛ لما تخاف منه ؛ فألح عليها وقال، والله لئن لم تفعلي لأجلدن أكبر بنيك في الخمر، يعني «عبد الله بن الحسن»[٢] ، فبينما هو كذلك، -؛ وكان على ديوان المدينة «ابن هرمز» - رجل من أهل الشام- فكتب إليه «يزيد» أن يرفع حسابه، ويرفع الديوان، فدخل على «فاطمة بنت الحسين» يودعها ، فقال: هل من حاجة؟ فقالت: تخبر أمير المؤمنين بما ألقى من «ابن الضحاك» وما يتعرض مني [٣] .

ثم بعثت رسولاً بكتاب إلى «يزيد» تخبره، وتذكر قرابتها ورحمها، وتذكر ما ينال «ابن الضحاك» منها، وما يتوعدها به.

فقدم «ابن هرمز» والرسول معا؛ فدخل «ابن هرمز» على «يزيد»

---

(١) ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، تزوجت من ابن عمها «حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب» ثم مات عنها ؛ فخلف عليها «عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان» ، كانت زاهدة عابدة. وروى عنها أكثر من حديث.
- ابن سعد / الطبقات الكبرى / جـ ٨ / ٣٤٥ / ٣٤٦
(٢) ابن حسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني روى عن أبيه وأمه وجده وعمه وشهد له العلماء بالثقة والصدق في الرواية ،توفي في حبس أبي جعفر المنصور هو ابن سبعين سنة .
- ابن حجر : تهذيب التهذيب / جـ ٥ / ١٨٦ ، ١٨٧
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى / جـ ٨ / ٣٤٦ - اليعقوبي / تاريخ جـ ٢ / ٣١٢، ٣١٣ - نهاية الأرب /جـ ٢١ / ٣٩٥ ، ٢٣٩٦

فاستخبره عن «المدينة»، وقال: هل كان من مُغرِبَةٍ[1] خبر؟ فلم يذكر «ابن هرمز» من شأن «ابنة الحسين» أمراً!

ولعل «ابن هرمز» خاف «الفهري» والى «المدينة» إن هو بلغ أمير المؤمنين رسالة «فاطمة بنت الحسين»؛ لما فيها من الإساءة إليه عند الخليفة.

فلما جاء فلما جاء رسولها إلى بلاط أمير المؤمنين، استأذن حاجب الخليفة فى إدخاله عليه، فلما علم ابن «هرمز» أنه مبعوث من عند «فاطمة»، بلغ «أمير المؤمنين» بما كانت حملته إياه؛ ففزع «يزيد» فزعاً شديداً، ونزل من على سريره، [وقال: لا أم لك! ألم أسألك هل من مُغْرِبَةٍ خبر، وهذا عندك لا تخبرنيه! قال: فاعتذر بالنسيان؛ فأذن الخليفة للرسول فأدخله، فأخذ الكتاب، فاستقرأه فجعل «أمير المؤمنين» يضرب بخيزران فى يديه وهو يقول: لقد اجترأ «ابن الضحاك»! هل من رجل يسمعنى صوته فى العذاب وأنا على فراشى؟ قيل له: «عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضرى»] [2]

فكتب الخليفة إليه وهو «بالطائف» [سلام عليك، أما بعد؛ فإنى قد وليتك «المدينة»؛ فإذا جاءك كتابى هذا؛ فاهبط واعزل عنها «ابن الضحاك»، وأغرمه أربعين ألف دينار وعذبه حتى أسمع صوته وأنا على فراشى] [3] .

(1) أغرب الرجل إغراباً إذا جاء بأمر غريب ـ [ابن منظور: لسان: العرب :مادة : (غرب)] .
ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى؛ جـ ٨ / ٣١٦ .
(2) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٧ / ١٣ .
(3) ابن سعد / الطبقات الكبرى؛ جـ ٨ / ٣٤٦. الطبرى جـ ٧ / ١٣

أحس «عبد الرحمن بن الضحاك» بعدم ارتياح حين جاء البريد إلى «المدينة»، ولم يؤم داره كما جرت به العادة؛ فاحتال على عامل البريد، حتى وقف منه على أمر عزله عن «المدينة»، والسبب فى ذلك؛ فاستمهل صاحب البريد أياماً ثلاثة حتى يتسنى له الخروج من «المدينة» والالتجاء إلى «مسلمة بن عبد الملك»[1]، ليستشفع به لدى «يزيد»[2]، بيد أن أمير المؤمنين لم يقبل شفاعة «مسلمة» فى الوالى المعزول عن «المدينة» «عبد الرحمن الفهرى» وهو فى هذا يُكْبِر مكانة «فاطمة» ويرعى قرابتها بالرسول - ﷺ - ، ويتودد إلى العلويين المقيمين فى «المدينة» .

ولا نرى أن «يزيدا» حين بعث واليه إلى «المدينة» أطلق له العنان فى ظلم الرعية، واستكراه بعضهم على فعل أمور لا يقبلونها، إلا أن واليه قد أساء القيام بوظائف ولايته؛ فإن كان من لوم يمكن للمؤرخ توجيهه «ليزيد»؛ فهو أنه لم يحسن اختيار الوالى الذى يبعثه على «المدينة»، وهى من الأهمية السياسية والدينية فى الدولة الإسلامية بمكان !! فمهما كان الخلاف فى السياسات بينه وبين أسلافه، إلا أنه من الواجب عليه أن يراعى فى اختيار ولاته حرمة «المدينة»، وأنه من أراد أهلها بسوء عذبه الله وأرى الناس العبر فيه وهو فى دنياه[3] .

---

(١) ابن مروان بن الحكم الأموى / من التابعين «ببلاد الشام»، ولاه «يزيد» «العراقين» ثم «أرمنيه» :، ثم مات سنة مائة وعشرين .
- ابن حجر / تهذيب التهذيب / جـ ١٠ / ١٤٤

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى: جـ ٨ / ٣٤٦

(٣) ذكر الرسول - ﷺ - أحاديث تؤكد ما ذكرناه منها : (روى الجندى أن رسول الله - ﷺ - قال «أيما جبار أراد «المدينة» بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء»). ومنها ما رواه «محمد بن الحسين المخزومى عن سعيد بن المسيب» مرسلاً أن رسوله الله - ﷺ - قال: (اللهم من أرادنى وأهل بلدى بسوء فعجل بهلاكه).
[محمد الصالحى/سبل الهدى والرشاد / جـ ٣ /٣١٢] .

وهذا ما كان؛ فإن المؤرخين يذكرون عن «عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى» أنه لم يمت حتى سأل الناس المال الذى يقتات به، وقد لبس رث الثياب، بعد ما كان يلبس أغلاها سعراً وأنعمها ملمساً[1].

وهكذا دفع الوالى منصبه ثمناً لأطماع، سولت له نفسه إمكان تحصيلها، وهو فى ذلك لا يعتمد على شئ سوى سلطات منصبه.

وتستقبل «المدينة» والياً آخر ،كان على النقيض من سلفه فى السياسة؛ فقد نشر العدل، وأمّن الرعية على أنفسهم وأموالهم وهو «عبد الواحد بن عبد الله النضرى» - السابق ذكره -

فإن هذا الوالى لما قدم «المدينة» فى شوال سنة أربع ومائة سلك نهج «عمر بن عبد العزيز» فيها؛ فقرب إليه العلماء والفقهاء وجعل منهم مستشارين له يستلهم منهم الرأى فى الأمور التى يمضيها ومن هؤلاء العلماء «القاسم بن محمد» و«سالم بن عبد الله بن عمر»[2]

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٧ / ١٤ ، ١٥
النويرى ، نهاية الأرب / جـ ٢١ / ٣٩٧

(٢) الطبرى /التاريخ الرسل والملوك :جـ ٧ / ١٤ ـ النويرى / نهاية الأرب / جـ ٢١ / ٣٩٧ ـ ابن كثير/ البداية والنهاية/ جـ ٩ / ٢٢٩

* والقاسم : هو ابن محمد بن أبى بكر الصديق أحد فقهاء المدينة المعدودين ، تربى يتيماً فى حجر عائشة، روى عن كثير من الصحابة والتابعين/ توفى سنة ست ومائة على أرجح الأقوال الواردة فى وفاته .
ـ ابن حجر / تهذيب التهذيب/ جـ ٧ / ٣٣٣، ٣٣٥

* وسالم : هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى أبو عمر ، أمه فارسية استولده أبوه «عبد الله سليمان» فكان من الفقهاء المعدودين فى «المدينة» وهو من التابعين الثقات، توفى سنة ست ومائة على قول من الأقوال الواردة فى - -

ولم تشهد «المدينة» فى عهده مواقف ذات بال من الناحية السياسية أو الاجتماعية تجعل الخلافة الأموية تتدخل فى أمور ولايته التى استمر فيها حتى خلافة «هشام بن عبد الملك».

ولاة المدينة فى عهد هشام بن عبد الملك

لما مات «يزيد بن عبد الملك» فى شعبان سنة خمس ومائة للهجرة ، كان أخوه «هشام» غائباً عن حضرة الخلافة؛ فجاءه البريد، وهو «بحمص»[1] بشعارها؛ فجاء «دمشق»، وجلس فى دست الخلافة، وقد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة، وهو عاشر «الأمويين»، وسابع المراونيين، ولم تكشف لنا المصادر شيئاً من أخبار «هشام» وطموحاته قبل أيلولة المنصب إليه سوى تردده فى مبايعته «عمر بن عبد العزيز» بالخلافة، حتى علم أن الأمر إلى «يزيد بن عبد الملك» بعد «عمر»؛ فأقبل وبايع[2]، وكدأب أسلافه من

- - وفاته وما ذكرناه، أرجحها كما قال بن حجر:أبت عليه نفسه طلب الحاجة من الخلفاء. قال له هشام بن عبد الملك حين دخل «المدينة» فى خلافته سلنى حاجه. فقال / إنى لأستحى من الله أن أسأل فى بيته غيره، فلما خرج «سالم » خرج «هشام» فى فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فسلنى حاجة. فقال «سالم» أهى من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال حوائج الدنيا. فقال «سالم»: ما سألت الدنيا ممن يملكها؛ فكيف أسألها ممن لا يملكها ؟

ـ ابن كثير: البداية والنهاية/ جـ ٩/ ٢٣٥ ـ ابن حجر/تهذيب التهذيب/ جـ٣ / ٤٣٦، ٤٣٧

(١) مدينة سورية تقع فى وادى «نهر العاص» فى موضع متوسط بين «دمشق» و«حلب» وتبعد عن الأولى بنحو ١٦٣ كـم، وتقع فى شمالها وعلى مسافة ٤٠ كـم مدينة «حماة» ـ أحمد عطية الله/ القاموس الإسلامى/ جـ٢ / ١٥٨

(٢) خليفة بن خياط /تاريخه / ٣٥٧

ـ عبد الشافى / العالم الإسلامى فى العصر الأموى/١٨٨

الخلفاء الأمويين، عمد إلى عزل عمال «يزيد بن عبد الملك» على الأقاليم، واستبدل بهم غيرهم، وكانت «المدينة» من نصيب خاله «إبراهيم بن هشام المخزومي» الذى استمر يُدَبّر أمرها ثماني سنوات؛ فقد قدمها والياً في سنة ست ومائه، وعزل عنها سنة أربع عشرة ومائة[1].

ونلحظ على ولايته أن الخليفة قدمه على غيره من الرجال، فولاه «المدينة»؛ نظراً لقرابته دون كفاءته، ومع ذلك جمع له الحرمين، فحج بالناس وهو لا يدرى عن أمر الفتوى شيئاً، وبالرغم من ذلك، قال للحجيج في يوم عرفة سنة تسع ومائة للهجرة: [سلوني، فإنكم لا تسألون أحداً أعلم مني؛ فسأله رجل من أهل «العراق» عن الأضحية، أواجبة هي؟ فما درى ما يقول: فنزل][2]!

وهذا الذى ذكرناه من تولية الأعمال لرجل يجهل أوليّات الأمور الدينية التى شرطها الفقهاء فيمن يتولى الإمارة التى أومأنا إلى بعضها حين تحدثنا عن مفهوم لفظ الولاية في اللغة والاصطلاح، ليس بمستغرب؛ فقد وجدنا الخليفة نفسه حين أرادَ الحج سنة ست ومائة، يطلب من أحد علماء «المدينة» أن يكتب له سنة الحج[3]

فخليفة هذا شأنه وتلك حالته ليجعلنا نتعجب إذا رأيناه يقدم واليه «إبراهيم بن هشام» على غيره من الرجال الأكفاء في «المدينة» أو «الشام»؛ لتكون إليه إمرة الحرمين.

---

(1) السيوطي /تاريخ الخلفاء/ ٢٤٧ ، ٢٤٩

- الخضري / الدولة الأموية / ٥٣٥

(2) الطبري / تاريخ الرسل والملوك/ جـ ٧ / ٥٣ ، ٦٦

- النويري / نهاية الأرب / جـ ٢١ / ٤٣٦

(3) الطبري / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٧ / ٣٦

على كل حال، فإن «هشام بن عبد الملك» عزل واليه عن «المدينة» وولاها «خالد بن عبد الملك»، ولم تكشف لنا المصادر عن الدوافع التى جعلت «هشام بن عبد الملك» يقدم على عزل «خالد» عن «مكة» و«المدينة».

ثم آل أمرها إلى«محمد بن هشام» الذى ظلّ والياً عليها إلى أن وافى «هشام بن عبد الملك» أجله فى يوم الأربعاء لست ليالٍ خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة[1].

ولاة المدينة فى عهد المروانيين المتأخرين

وتتأثر «المدينة» بفترة الإضطراب التى حلت بالدولة الأموية حين آل أمرها إلى المروانيين المتأخرين. والذى يدلنا على هذا الاضطراب أن أربعة من الخلفاء تعاقبوا حكم العالم الإسلامى إذ ذاك، فى مدة تقل عن سبع سنوات، حدث فيها من التقاتل والفتن بين أفراد البيت الأموى ما أطمع فيهم «العباسيين»، وعجّل بزوال دولتهم، وشغلهم عن العناية بولايتها؛ فهذا «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» الذى آلت الخلافة إليه بوصية من أبيه «يزيد»، بعد وفاة «عمه» «هشام»، يعرف عنه أنه شديد الولع بمعاقرة الشراب، يستخف بأمور الدين، ولاهَمّ له إلا تصفية حساباته مع السابقين بعد أن صارت الخلافة :إليه يأمر وينهى فى الدولة الإسلامية! من ذلك:

(١) الطبرى /السابق /جـ٧ / ٢٠٠
- ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ١٠ / ٢
- ابن دقماق / الجوهر الثمين / جـ ١ / ٩٨
- السيوطى / تاريخ الخلفاء / ٢٥٠

ما فعله «إبراهيم بن هشام» و«محمد بن هشام» المخزومهان ؛ فقد عزلهم عن أعمالهما فى «مكة» و«المدينة»، وبعث بهما الوالى الجديد إلى «يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى» ؛ فأنزل بهما العذاب، وأودعهما غياب السجن حتى ماتا!!

والسبب الذى جعله يقف منهما هذا الموقف، أنهما وافقا «هشاماً» على تنْحِيَتِهِ «الوليد الثانى» عن ولاية العهد وجعلها إلى ولده «مسلمة»؛ لأن «هشاما» كان يرى «الوليد» غير كفء للخلافة ؛ لما عرف عنه من المجون ومخالطته ذوى الشراب من الشعراء، وغيرهم ، ولم يمكث «الوليد الثانى» فى خلافته كثيراً؛ فقد غادر الحياة فى جمادى الآخره سنة ست وعشرين ومائة، عن خلافة استمرت سنة وشهر[1].

ولم يكن «يزيد الناقص» أسعد حالاً منه؛ فإنه مات بعد ستة أشهر مضت على خلافته ؛ لتزداد حالة الدولة سوءاً على سوء، ويدخل «مروان بن محمد» فى صراع مع «إبراهيم بن الوليد» من أجل الخلافة إلى أن استطاع تخليصها من أيدى الأمويين المناوئين له فى سنة ست وعشرين ومائة، ويصبح آخر خليفة أموى يحكم الدولة حتى دالت على أيدى العباسيين[2]

ولقد كان الرجل كفؤاً للمنصب، لولا أنه جاء فى ظروف بلغ فيها

---

(١)الكامل/ جـ ٥ / ٢٦٤ : ٢٦٧

- ابن كثير : البداية والنهاية / جـ ١٠ / ٤٠٢

- ابن دقماق : الجوهر الثمين / جـ ١ / ص ١٠٢

- السيوطى : تاريخ الخلفاء / ٢٥٠

(٢) ابن الأثير : الكامل / جـ ٥ / ٤٠٨ .

الانقسام فى البيت الأموى مداه فماكاد يجلس على أريكة الخلافة إلا وأخذ يحمل عصا الترحال من «مدينة» إلى أخرى؛ ليكبح جماح المعارضين لخلافته.

ولست هنا بصدد تتبع ما كان من أمر هذه الحركات، وكيف أن الخليفة استطاع القضاء عليها ؛لأن ما يعنينا هنا ولاة «المدينة»، وعلاقتهم بالخلافة الأموية، ومن ثم ؛ فإننا نقول: إنّ علاقات ولاة «المدينة» خلال فترة الاضطراب التى يتحدث عنها بالخلافة الأموية، لم تكن ذات أثر واضح لأن دور «المدينة» قد انعدم من الناحية السياسية كليةً فى عهد المروانيين المتأخرين.

ولا نجد ما يستحق الوقوف أمامه فى «المدينة» من سنة ست وعشرين ومائه إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية سوى هذه الحركة التى قام بها «أبو حمزة الخارجى» فى وجه الدولة الأموية، وجعل من الحرمين الشريفين أرضاً لأحداثهما ؛ليزيد من مشاكل «مروان بن محمد» ويحمله أثقالاً على أثقاله(١)

حركة « أبو حمزة الخارجى » فى المدينة

اعتاد أولوا الأمر فى الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى، وماتلاه من العصور، إطلاق اسم الخوارج علي كل من نبذ طاعة الخلافة بغض النظر عن الغاية المتوخاه من ثوارتهم، وهذاالذى ذكرناه لا ينطبق على ذلك الرجل

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك: جـ ٧/ ٣٩٥ ، ٣٩٨

ـ ابن الأثير / الكامل / جـ ٥ / ٣٢٣ ، ٣٢٤

ـ السيوطى / تاريخ الخلفاء / ٢٥٤ : ٢٥٥

الذى خرج «بالمدينة»؛ «فالمختار بن عوف الأزدى»، المعروف «بأبى حمزة» وهو من الرجال الذين قادوا الثورات فى وجه الدولة الأموية، إذ هو من الخوارج المعروفين بهذا الاسم فى اصطلاح المؤرخين(١).

وإذا كان الخوارج بعد نشأتهم فى عهد الإمام «عليّ» بسبب اعتراضهم على التحكيم فرقة واحدة؛ فإنهم انقسموا إلى عدة فرق بعد ذلك، راحت تجاهد الدولة الأموية، وبين هذه الفرق اختلاف فى بعض المبادئ التى نادت بها، وإن اجتمعت على مبدأ واحد، وهو مناهضة الدولة الأموية؛ فكان منهم، «النجدات»، و«الأزارقة»، و«الصفارية»، و«الأباضية».

والفرقة الأخيرة هى التى تعنينا فى هذا المقام، إذ أن «عبد الله بن يحى» طالب الحق و«أبا حمزة الخارجى» ممن عملوا على نشر مبادئها، وإعلاء سلطانها.

وتنسب هذه الفرقة إلى مؤسسها «عبد الله بن إباض» الذى أسس مبادئها فى لحظة كان يجلس فيها وَحْدَهُ؛ فإذا بأصوات المؤذنين تدق باب أذنيه، فسكن فى فؤاده أنّ هؤلاء موحدون مؤمنون.

ومن ثم فارق زملاءه الآخرين فى فرقة الخوارج بالنسبة لموقفهم من أصحاب السلطان ورعيته فى الدولة الإسلامية؛ فنادى «عبد الله» ومن معه بأنهم [كفار نعمة، فهم موحدون، وليسوا بمشركين، وعلى هذا تحل الإقامة بينهم، ومناكحتهم، وموارثتهم، وأكل ذبائحهم أما أموالهم،

---

(١) محمود إسماعيل / جدل حول الخوارج/ وقصة التحكيم / مقال منشور بالمجلة التاريخية (م/٢٠) سنة ١٩٧٣ / صـ ٤٧، ٤٩

فحرام، وكذلك لا يحل قتلهم وسلبهم فى السر غيلة ، إلا بعد نصب القتال، وإقامة الحجة](1)

وعلى هذا أجازوا الإقامة بين ظهرانى الجماعة، والتعامل معها، كما أنهم أجازوا التقية مثل «الصفرية» حتى تكتمل لهم قوة يخرجون بها على الجماعة .

بالإضافة إلى ذلك فقد سارت الإباضية فى اتجاهين يكمل أحدهما الآخر.

أما الإتجاه الأول: فهو اتجاه علمى سياسى، يرمى إلى توضيح مبادئهم ودستورهم، ويتمثل ذلك فى تبادل الرسائل بين «عبد الله بن إباض» الذى تنسب فرقة الإباضية إليه، «وعبد الملك بن مروان» وفيها بين «إباض» موقف الخوارج من المخالفين لهم، وفلسفته، وعقيدتهم السياسية التى خالفوا المجتمع من أجلها.

[أما الاتجاه الثاني: فهو الاتجاه العملى، الذى يتمثل فى الخروج على الخلافة ومحاولة إيجاد سلطان فعلى للخوارج، يملون به مبادئهم، ويحملون المجتمع عليها، وكان هذا الاتجاه تحت رعاية الاتجاه الأول؛ فعندما أراد «عبد الله بن يحيى» طالب الحق أن يخرج فى «حضرموت» أرسل إلى الزعماء العلميين يستشيرهم فى هذا الخروج ويطلب رأيهم فيه ، ولم يخرج إلا بعد إشارتهم له بالخروج قائلين له : إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولست تدرى متى يأتى عليك أجلك(2)]

(1) رفعت فوزى / الخلافة والخوارج فى المغرب العربى / ١٩، ٢٢ .

(2) رفعت فوزى: الخلافة والخوارج فى المغرب العربى/ ٢٢، ٢٣

والجدير ذكره هنا أن «عبد الله بن يحيى» لم يبعث بتلك الرسالة إلى علماء فرقته من الخوارج إلا بعد أن مكّن لنفسه الأمر باتفاقه مع «المختار ابن عوف «الأزدى»، فإن الرجل كان يَؤُم «مكة» فى الموسم منذ تولى «مروان بن محمد» لينادى فى الحجيج بنبذ طاعة الخليفة، وظل كذلك حتى وافى «مكة»«عبد الله بن يحيى» المعروف «بطالب الحق» فى آخر سنة ثمان وعشرين ومائة، فقال له: يارجل أسمع كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى حق، فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومه، فخرج حتى ورد «حضرموت»[1]؛ فبايعه «أبو حمزة» على الخلافة، ودعا إلى خلاف «مروان»، و«آل مروان»[2] ؛ فأعلن طالب الحق فى أتباعه، الخروج عن طاعة الأمويين وصار ومن معه إلي عامل «المدينة» من قبل الأمويين «إبراهيم بن جبل»؛ فأخرجه منها من غير قتال واجتمعت «الإباضية» إليه فبايعوه، وعامة أصحابه أهل «البصرة»، ثم خرج طالب الحق إلى «صنعاء» وعليها «القاسم بن عمر الثقفى» وهو فى ألفى رجل من الشراة، وخرج «القاسم بن عمر»، وهو فى نحو من ثلاثين ألفاً، فالتقوا «بالجالع» قرية من قرى «أبْيَن» ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم «القاسم» وأكثر القتلى فى أصحابه حتى أتى «صنعاء» وسار «عبد الله بن يحيى» وقد خندق

---

(١) بالفتح ثم السكون، وفتح الراء والميم، إقليم يقع فى جنوب الجزيرة العربية، ويطل على بحر العرب، تحده من الشرق إمارة عمان، ومن الغرب عدن.
- ابن عبدالحق مراصد الاطلاع/ جـ١/٤٠٩/أحمدعطيه اللهالقاموس الإسلامى جـ٢/١١٠ .

(٢) الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك /جـ ٧/ ٣٤٨ . ابن الأثير/الكامل/جـ٥/٣٥١
- محمد الخضرى / الدولة الأموية/ ٥٥٢ .

«القاسم» خنادقاً، فبيته في وجه الصبح ؛ فهرب «القاسم» وقتل «الصلت بن يوسف بن عمر» في المعركة وهو من قادة الأمويين في «اليمن» وقتل ناس كثيرين، ودخل «صنعاء» فأخذ الخزائن والأموال فتقوي بها[1]

ويلوح لنا أن فترة الاضطراب التى تمر بها الدولة الأموية فى خلافة «مروان» هى التى شجعت «أبا حمزة» على الخروج، ومبايعة طالب الحق بالخلافة، وأن النجاح الذى أحرزوه فى «حضرموت» و«صنعاء» قد شجع هؤلاء الثوار على إرسال الحملات إلى «مكة» و«المدينة» وكانتا تحت إمارة «عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك»

وأمر طالب الحق «أبا حمزة»و «بلج بن المثنى» أن يتوجه على رأس جيش إلى «مكة»، والحجيج يقضون نسكهم بين جنباتها،

ولقد اختلف المؤرخون فى عدد هذا الجيش؛ فمنهم من قال عشرة آلاف ومنهم من قال: دون ذلك،

ومهما يكن من أمر اختلافهم هذا، فإن المسلمين المحتشدين «بعرفه» سنة تسع وعشرين ومائة هجرية، فوجئوا بجيوش «أبى حمزة» الذى لم يجد مقاومةً تُذكر، تحول بينه وبين اقتحام البلد الحرام على الحجيج، وأظهر والى «مكة» و«المدينة» من الضعف ما زاد فى طمع «الخوارج» فيه ؛ فراسل «أبا حمزة» وهَادَنَهُ بعد ما سعى بينهما «عبد الله بن الحسن بن أبى الحسن ابن على».

ومما زاد الطين بلة ، أن «عبد الواحد» والى «الحرمين» من قبل

(١) خليفة بن خياط / التاريخ /٣٨٤ ، ٣٨٥

«مروان» فرّ إلى «المدينة»؛ ليجهز رجالها لقتال «الخوارج» الإباضية تاركاً «مكة» لهم، فحازوها، واستتبوا عليها(١)

وارتقى «أبو حمزة» مراقى منبر مسجدها، فخطب فى «المكيين» خطبة ردّ فيها على مارمى به المسلمون رجاله من صغر سنهم ؛ فذكّى أصحابه، وأعلى من شأنهم فمما قاله:

[يا أهل «مكة»، تعيّرونى بأصحابى، تزعمون أنّهم شباب؟! وهل كان أصحاب رسول الله - ﷺ - إلا شباباً؟! نعم الشباب مكتهلين(٢)، عمية عن الشرّ أعينهم، بطيئةٌ عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم آناء الليل منثنية أصلابهم بمثانى القرآن،إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية فيها ذكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم فى أذنيه، قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، أنضاء عبادة. قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون لذلك فى جنب الله موفون بعهد الله](٣)

على كل حال فإن «عبد الواحد» والى الحرمين. لما علم أن «أبا حمزة»

---

(١) خليفة بن خياط / ٣٨٥ - الطبرى: تاريخ الرسل: جـ٧ / ٣٧٤ ، ٣٧٥

- ابن كثير / البداية والنهاية : جـ١٠ / ٣٤

(٢) الكهل من الشباب ، المتزوج ، ومن الرجال ، من جاوز الثلاثين

- [ابن منظور] : لسان العرب: مادة : «كهل»

(٣) ابن عبد ربه / العقد الفريد / جـ ٤ / ١٤٤.

- وردت روايات أخرى لهذه الخطبة بالمصادر التاريخية بها عبارات تشبه تلك التى ذكرناها، غير أن أصحابها قالوا: أن «أبا حمزة» ألقاها فى «المدينة» .

- ابن الأثير/ الكامل / جـ ٥/ ٣٩٠.

سار بمجموعة من رجاله من «مكة» إلى «المدينة» بعد ما ترك بها نائباً يدير أمر «أم القرى» باسم الحرورية» الإباضية[1] سير «عبد العزيز بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان» على رأس قوات من المدنيين ؛ ليمنع دخول «أبي حمزة» «المدينة»؛ فلما علم قائد الخوارج بخروجهم إليه، أرسل إلى المدنيين معذراً ومحذراً، فقال لهم: مالنا بقتالكم حاجة، دعونا نمضي إلى عدونا؛ فأبى أهل «المدينة» فلقيهم الخوارج «بقديد»[2] في التاسع من صفر سنة ثلاثين ومائة للهجرة فقتل منهم خلقاً كثيراً، ودخلها في الثالث، أو التاسع عشر من الشهر المذكور[3]

وقد لف الحزن أرجاءها؛ فما من بيت من بيوتها إلا عوت فيه العاوية من مرأة ترملت، أو من أطفال تيتموا، أو من أم ثُكْلَى تبكي وحيدها، الكل يبكي مصابه الذي فقده !! فكانت المرأة تقيم النوائح على حميمها، ومعها النساء حتى تأتيهن الأخبار عن رجالهن، فيخرجن امرأة امرأة كل واحدة منهن تذهب لقتل رَجُلها؛ فلا تبقى عندها امرأة لكثرة من قتل[4].

وبينما يتجرع المدنيون كؤوس الحزن، والهوان، والأسى يعتلج صدورهم يرقى «أبو حمزة» مراقي منبرهم ليلقي فيهم خطبة ؛ فيها ما فيها من توبيخهم. والحط من شأن حكامهم الأمويين، [يا أهل «المدينة»، مررت بكم

(١) خليفة بن خياط / التاريخ / ٣٩١ ، ٣٩٢

(٢) تصغير «قد» اسم موضع قرب «مكة» ـ [ابن عبد الحق مراصد الاطلاع : جـ٣/١٠٧٠]

(٣) خليفة بن خياط : سبق ذكره / ٣٩٢

ـ ابن الأثير: الكامل / جـ ٥ / ٣٨٩

(٤) النويري: نهاية الأرب / جـ ٢١ / ٥٣٢

في زمن الأحول يعني «هشام ابن عبد الملك» وقد أصابتكم عاهة في ثماركم ، فكتبتم إليه تسألونه أن يضع عنكم خراجكم، ففعل، فزاد الغنيّ غنىً والفقير فقراً ؛ فقلتم له : جزاك الله خيراً، فلا جزاكم الله خيراً، ولا جزاه خيراً، واعلموا يا أهل «المدينة»: إنا لم نخرج من ديارنا أشراً، ولا بطراً، ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعى الله «ومَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعجزٍ فى الأرضَ»[1] إلى آخر ما جاء فى خطبته.

ولنا أن نتساءل عن العوامل التى جعلت المدنيين ينهزمون فى موقعة «قديد».

والجـواب:

أن الدائرة دارت على المدنيين فى هذه المعركة نظراً لأسباب نجملها فيما يلي:

١ ـ هذه العجالة التى أعدَّ بها «عبد الواحد» والى الحرمين قواته للدفاع عن «المدينة»، جعلت المدنيين يفتقرون إلى حسن النظام، والوقت المناسبين ليستكملوا استعدادهم، وعَتادهم قبل لقاء عدوهم فى حين كان الخوارج على النقيض منهم فى ذلك الأمر.

٢ ـ إن المدنيين قاتلوا فى «قديد» وهم يعانون من هبوط فى

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ ٧ / ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
ـ ابن الأثير: الكامل/ جـ ٥ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

معنوياتهم ، بينما كان جند الخوارج يتمتعون بمعنويات مرتفعة ؛ نظراً للانتصارات المتلاحقة التى أحرزوها ، منذ أعلنوا خروجهم فى «حضرموت» إلي أن فرّ أمامهم من «مكة» والى الحرمين «عبد الواحد بن سليمان» الذى قال الشعراء فى فراره .

زار الحجيج عصابة قد خالفوا ∴ دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والإمارة هاربـــاً ∴ ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصلّ عرقـــه ∴ لصفت موارده بعرق الوارد (١)

٣ - إن المدنيين ليسوا من ذوى الشكيمة فى الحروب، وأنهم ما دخلوا حرباً،منذ أن فتحت الفتن أبوابها فى الدولة الإسلامية ومشي النصر فى ركابهم ،لأنهم كما يقول «ابن الأثير» عنهم: «مترفين ليسوا بأصحاب حرب»(٢)

فكانت واقعة «قديد» إحدى الهزائم التى تضاف إلى سجل هزائمهم فى العهد الأموى.

ولا عار يلحق المدنيين بسبب ذلك ؛ فإنهم قوم فرّغوا أنفسهم لطلب العلم، والكدح فى سبيل لقمة العيش ونبذوا الجرى وراء سلطة تطلب أو منصب يتبوأ !!.

وسواء أصح ما ذهبنا إليه أم لم يصح؛ فإن «أبا حمزة المختار بن عوف

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : جـ ١ /٣٤/

(٢)ابن الأثير/ الكامل/ جـ ٥ / ٣٨٨

الأزدى» مكث فى «المدينة» ثلاثة أشهر[1] بعد واقعة «قديد» يدبر أمرها، ويحسن السيرة فى أهلها، يعمل فى جدٍ على إشاعة مبادئ فرقة الإباضية فيهم مثل قولهم: -

«من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شكَّ فى كفرهما فهو كافر»[2].

وحاول «أبو حمزة» محاورة المدنيين ومجادلتهم بالحسنى، كما قضت بذلك مبادئ فرقته التى أومأنا إليها فى عُجالة فيما سلفناه من حديثنا، فقال لهم وهو يجهد نفسه فى سبيل الحصول على تأييدهم ومؤازرتهم فى مواجهته لأعدائه الأمويين:

[سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فقلتم فيهم : والله الذى نعرفه، قلتم: أخذوا المال من غير حله، فوضعوه فى غير حقّه، وجاروا فى الحكم، واستأثروا بحقوقنا وفيئنا فجعلوه دُولة بين أغنيائهم، وذوى شرف الدنيا منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا فى مهور النساء، وفروج الإماء، فقلنا لكم: تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا فى الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله، فقلتم: لا نقوى على ذلك، ووددنا أنا أصبنا من يكفينا. فقلنا: نحن نكفيكم ثم الله راع علينا إن ظفرنا لنُعطين كل ذى حق حقه فجئنا فاتقينا الرماح بوجوهنا والسيوف بصدورنا، وجعلنا الله علينا راعياً كفيلاً

(١) الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٧ / ٣٩٧
- ابن الأثير : الكامل جـ ٥ / ٣٩٠
- ابن كثير / البداية والنهاية / جـ ١٠ / ٣٦
(٢) محمود شاكر / التاريخ الإسلامى جـ ٤ / ٣٠٣
- ابن الأثير / الكامل / جـ ٥ / ٣٩٠

لئن ظفرنا لنعطينّ كل ذى حق حقّه، فعرضتم دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله، فوالله لو قلتم: لا نعرف الذى تقولون ولا نعلمه، كان أعذر مع أنه لا عذر للجاهل، ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحقّ على ألسنتكم، ويأخذكم به فى الآخرة](1).

وبالرغم من هذه المحاورة وتلك المجادلة، إلا أن جهود أبى «حمزة الخارجى» ذهبت أدراج الرياح ولم تأت ثمرة فى المدنيين، ولعل ذلك راجعاً فى رأينا إلى قصر المدة التى قضاها «أبو حمزة» بين ظهرانيهم، فهى تعد بالأشهر ومثل هذه المبادئ تحتاج إلى أعوام لتأصلها فى أنفس أفراد المجتمع.

يضاف إلى ما تقدم أن هذه المبادئ لم تلق أذناً مصغية من قاطنى «المدينة»، لأنهم وجدوا بعضها لا يتفق وما تعلموه، وعلموه من مدارستهم للقرآن الكريم، وأحاديث سيد المرسلين مدارسة بنيت على الفهم الحقيقى لمعانى المقروء منها على أيدى صحابة علموا التابعين، فحملوا ذلك على كواهلهم ليعلموه المجتمع المدنى، فكان بمثابة تحصين لهم ضد أى فكر هدام وافد على بلد ثالث الحرمين.

ومهما يكن من أمر؛ فإن والى «المدينة» «عبد الواحد بن سليمان» فرّ منها إلى «بلاد الشام» مستجيراً «بمروان بن محمد» الذى ما إن سمع بها حلّ «بالمدينة» و«مكة»، حتى أمر بتجهيز جيش جرار يقوده «عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى» ضم أربعة آلاف فارس.

فغادر «الشام» يريد «المدينة» ليخلصها من سيطرة الأباضية عليها،

---

(1) خليفة بن خياط / التاريخ / ٣٨٦، ٣٨٧.

وكان من الطبيعى أن يخرج «أبو حمزة» منها للقاء الشاميين قبل أن يدخلوها؛ لأنه إن ظل بها حتى يقدم عليه الأمويون ؛ فلا يأمن والحالة هذه أن يبادر أهلها لنصرة الجيوش الأموية القادمة لاستخلاصها من أيدى الخوارج فيقع ورجاله بين شقّى رحى.

ومن ثم فق رأى الخروج برجاله للقاء جيش «ابن عطية» ؛ فترك «المدينة» بعدما قال لأهلها:

[يا أهل «المدينة» : إنا خارجون إلى «مروان»؛ فإن نظفر، نعدل فى إخوانكم، ونحملكم على سُنّة نبيكم، وإن يكن ما تتمنوه «سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»[1].

فهذه العبارة تؤكد لنا أن «أبا حمزة» كان على يقين من عدم موالاة المدنيين له.

ومن ثَمّ قرر الخروج منها إلى الشاميين كما سلفنا.

وعلى كل حال فقد التقى «عطية السعدى» «بأبى حمزة» عند «وادى القرى»، الذى قال لأصحابه: [لا تقاتلوهم حتى تختبروهم ؛ فصاحوا بهم: ما تقولون فى القرآن الكريم والعمل به؟!

فقاله «ابن عطية» نضعه فى جوف الجوالق: ما تقولون فى مال اليتيم؟!

قال «ابن عطية» نأكل ماله، ونَفْجر بأمه.

فلما سمعوا كلامه قاتلوه حتى أمسوا وصاحوا :ويحك «يا بن عطية» إن الله قد جعل الليل سكناً، فاسكن، فأبى، وقاتلهم حتى قتلهم][2]

(١) ابن الأثير /الكامل/ جـ ٥ / ٣٩١

(٢) ابن الأثير : الكامل : ٥/٣٩١.

والنفس لا تسكن للأخذ بمثل هذه الرواية التى نسب الرواة فيها للقائد الأموى ذلك القول الذى يتنافى وتعاليم الأسلام، لأن الرجل ما غادر «الشام» إلا ليخلص «المدينة» من الأباضية الذين انحرفوا فى كثير من مبادئهم عن جماعة السنّة ، تلك التى تحرص على حمايتها الدولة الأموية. فلا يعقل والحالة هذه أن يقول قائدهم: «ابن عطية» هذا القول الذى لو سمعه أهل «المدينة»، لحالوا بين الأمويين، وبين دخولهم لها بعد هزيمتهم للإباضية.

ومن ثم فإننا نرى فى هذه الرواية، وأشباهها تَشَيّعاً ظاهراً، ولعل «ابن الأثير» نقلها عن «المسعودى»، دون أن يمعن النظر فيها، تاركاً ذلك لمن يقرأ تاريخه. وانهزم أصحاب «أبى حمزة»، أما من هرب منهم إلى «المدينة» ولم يشارك فى القتال، فقد لقيهم «ابن عطية» فقتلهم، وسار «ابن عطية» إلى «المدينة» فأقام شهراً)(١)

ثم سار بعده إلى «مكة»؛ فلقى «أبا حمزة» بالأبطح، ومعه جيش جرار، فدارت الدائرة على «أبى حمزة» ومات قتيلاً فى هذه المعركة، ومضى «ابن عطية» واستباح العسكر(٢)، وكان «مروان» قد وصى قائده «ابن عطية السعدى» بأن يمضى إلى بلاد «اليمن» بعد أن يخلص «المدينة» من أيدى الإضية ؛ ليستأصل منها شأفة طالب الحق وأتباعه(٣)

---

(١) المسعودى / مروج الذهب / جـ ٣ / ٢٥٨

ـ ابن الأثير / الكامل / جـ ٥ / ٣٩١

(٢) خليفة بن خياط /التاريخ/ ٣٩٤

(٣) النويرى/ نهاية الأرب / جـ ٢١ / ٥٣٥

فتوجه «ابن عطية» إلى بلاد «اليمن»؛ فوجد «عبد الله بن يحيى» «طالب الحق» قد استعد للقاء، فلما التقى الفريقان عند «صنعاء» فى معركة حامية أسفرت عن مقتل «طالب الحق»؛ فتفرق جمعه وأرسل «ابن عطية» رأسه إلى «مروان» «ببلاد الشام»؛ ومضى «ابن عطية» إلى «صنعاء»؛ فدخلها، وأقام بها فكتب إليه «مروان» يأمره أن يسرع السير ليحج بالناس، فسار فى اثنى عشر رجلاً ومعه أربعون ألف دينار، وخلّف عسكره وخيله «بصنعاء»، فبينما هو يسير ، أتاه «ابن جمانة المرديان» فى جمع كثير؛ فقالوا له ولأصحابه: أنتم لصوص؛ فأخرج «ابن عطية» كتابه وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين وعهده على الحج وأنا «ابن عطية»

فقالوا : هذا باطل، وأنتم لصوص؛ فقاتلهم «ابن عطية» حتى قتل فى سنة ١٣٠هـ (١)

فلما بلغ «عبد الرحمن بن يزيد» قتله، أرسل رجلاً من الوضاحية يقال له «شعيب البارقى» فى الخيل، وأمره أن يقتل كل من وجد من الناس الذين شاركوا فى قتل «ابن عطية»

فقتل «شعيب» الرجال، وبقر بطون النساء، وقتل الصبيان، وأخذ الأموال، وعقر الخيل، وحرق القرى، ثم انصرف حتى أتى «عبد الرحمن»(٢)

(١) خليفة بن خياط / التاريخ / ٣٩٥ ـ الطبرى/تاريخ الرسل والملوك/جـ٧/ ٤٠٠ ـ المسعودى : مروج الذهب / جـ ٣ / ٢٥٨

(٢) خليفة بن خياط / التاريخ / ٣٩٤ / ٣٩٥

وهكذا تطوى صفحة ثورة «الخوارج» «بالمدينة» دون أن يظفروا بطائل بعد ما كلفوا المسلمين بالحرمين الشريفين ، بل بالدولة الأموية. الأموال الباهظة وقتلوا مئات الرجال.

ولم يهنأ «مروان بن محمد» بهذا الانتصار؛ فإ ن الرجل كما ذكرنا ظل طيلة أيامه يجاهد من أجل جعل الدولة الأموية تنعم بالاستقرار(١)، وهيهات أن يتحقق له ذلك بعدما استطاع العباسيون أن يجدوا لأنفسهم مكاناً على مسرح الأحداث فى العالم الإسلامى.

وما ذلك إلا بسبب الانقسام والحقد بين أفراد البيت الواحد !! فإن هذا إن حدث فى دولة من الدول ، عَجّل بزوالها، وغروب شمسها ، لتدخل «المدينة» فى حكم العباسيين مَوَدّعَة عهد الأمويين بما فيه من آمال وآلام.

وسبحان من له الدوام

(١) حسين عطوان / الأمويون والخلافة ٢٢٣ ، ٢٢٤

- الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / جـ ٧ / ٤٠٠ .

الخاتمة

إنى أحمد الله جلّ علاه ، الذى هدانا لاختيار هذا الموضوع، الذى قرأنا صفحات فصوله، تلك التى عنيت بتاريخ ولاة بقعة طاهرة من بقاع العالم الإسلامى، شرفها الله بإن جعلها دار هجرة لخاتم المرسلين، منها بدأت الخطوات الأولى فى سبيل إنشاء دولة إسلامية أدالت قوتين عظيمتين فى هذا الوقت «الفرس» و «الروم» .

ولقد رأينا ونحن نطالع الصفحات السابقة، أن «المدينة» كانت محط أنظار «معاوية بن أبى سفيان»، وهو فى صراعه مع «على بن أبى طالب» من أجل السيطرة عليها، حتى يكسب نفسه قوة عظيمة، وهو يواجه خليفة المسلمين، فشغل «علياً» بها وجعله يسير الجيوش إليها من «العراق»، حتى يدفع عنها الرجال الذين بعث بهم «معاوية» للإغارة على «المدينة»، مما أدى بلا ريب إلى إضعاف «عليّ»، وهو فى صراعه للشاميين، فلحق «عليّ» بربه دون أن يحقق «معاوية» غرضه، ببسط السيطرة على «المدينة»، بالرغم من تحقيقه النجاح فى مناطق أخرى انتزعها من «عليّ» مثل «مصر».

فهذا يدلنا على مدى الجهد الذى بذله أمير المؤمنين وعامله على «المدينة» من أجل الدفاع عنها.

وما كان ذلك ليتم إلا بتضحيات كبيرة، كلفت الخليفة والمدنيين المال والرجال.

ومن النتائج التى أبرزتها دراستنا لتاريخ ولاة «المدينة»، وعلاقتهم بالخلافة الأموية، أن خلفاء هذه الدولة كانوا على دراية بعظم مكانتها

الدينية والسياسية والاجتماعية ؛ فإليها تفد جماعات المسلمين من أرجاء العالم الإسلامى، لزيارة سيد المرسلين ، ومنها كان معظم الخلفاء الأمويين سواء الذين ولدوا على أرضها أو أولئك الذين عاشوا بين جنباتها شطراً كبيراً من حياتهم قبل أيلولة المنصب إليهم ؛ «فالمدينة» اذن المكان الذى جاء منه معظم خلفاء الدولة الأموية ويعيش فيها صحابة النبى محمد - ﷺ- وأزواجه .

وهؤلاء لا مراء يملكون التأثير على الأحداث فى الدولة. ومن ثم أولى الأمويين المدينة جُلّ عنايتهم ؛ فجعلوا عليها ولاة من بيتهم أو تربطهم بهم أواصر قوية ولم يشذوا عن هذه القاعدة إلا لفترة وجيزة اقتضتها الظروف السياسية حينئذ .

ومن النتائج التى توصلنا إليها من خلال صفحاتنا:

أن «مكة» و«المدينة» شاء الله لهما أن يرتبط تاريخهما السياسى ارتباطاً وثيقاً نظراً لتجاورهما ووفود المسلمين إليهما فى أوقات كثيرة من العام.

ومن ثم فإن الخلفاء الأمويين كانوا يعهدون بهما إلى وال واحد فى كثير من الأحايين، باستثناء بعض الفترات القليلة التى كان يبعث فيها الخلفاء والياً على «مكة»، يدبّر أمرها بشكل مستقل بعيداً عن «المدينة».

ويضاف إلى النتائج السابقة أن المدنيين لم يكونوا على غرار غيرهم من قاطنى أمصار الدولة الإسلامية فى المهارة الحربية. فإن الدائرة دارت عليهم خلال مراحل الصراع، بينهم وبين الخلافة الأموية بسبب موقف المدنيين من خلافة «يزيد» الذى قتل «الحسين»، وعيشته التى يعيشها فى قصره .هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى خضوع بلادهم «لابن الزبير» فترة ليست بالقصيرة ؛ فسيرت الخلافة الأموية الجيوش إليه لاخضاعه ؛ فكان المدنيون بطبيعة موقعهم وحكم ولاتهم «لابن الزبير» إذ ذاك طرفاً فى هذا الصراع يصطلون بناره، ويعانون منه أشد المعاناة.

فأحرقت دورهم، ورملت نساءهم، ويتمت أطفالهم، ونهبت أموالهم !! وهناك نتيجة أخرى لا سبيل إلى إغفالها، وهى أن دور «المدينة» المؤثر بشكل بارز على مجريات الأمور بالدولة الإسلامية من الناحية السياسية أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً، بعدمانجح «عبد الملك بن مروان» فى القضاء على «ابن الزبير» فى «مكة» ؛ فلم تشهد أرضها بعد ذلك صراعات عسكرية أو سياسية حتى كانت خلافة «مروان بن محمد» .

ومع هذا التضاؤل فى الدور؛ فإن الأمويين ظلوا يهتمون بأمر تعيين الولاة عليها فاختارهم من أكفأ الأقارب ؛ خشيةً من القوى المناوئة لهم والمتربصة بحكمهم، والممثلة فى العلويين، حتى لا ينقضوا عليهم إن رأوا والياً ضعيفاً، يدبر شئون «المدينة المنورة»، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومن النتائج التى نود الإشارة إليها، أن غير واحد من ولاة الأمويين على «المدينة» نشروا الرخاء على أرضها، وجعلوا أهلها ينعمون بالأمان خلال مدة ولايتهم، مثلما هو الحال فى ولاية «أبان بن عثمان» و «عمر بن عبد العزيز» وأن منهم من سامهم سوء العذاب، ونال من العلويين ما نال مثل «عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهرى» وغيره من الولاة الذى أبرزنا، ونحن نتناول موقفهم من العلويين خاصة ، وأهل «المدينة» عامة .

وعلى الجملة ؛ فإن المدنيين ما كادوا ينعمون بالراحة والرخاء فى ظل وال أو أكثر إلا وترميهم الخلافة الأموية بآخرين يبدلون رخاءهم ضيقاً وأمنهم خوفاً.

مما يجعلنا نجزم بأن هذه كانت سياسة أموية، شاطر فيهااللاحق السابق من خلفاء هذه الدولة.

وعلاوة على ما تقدم من النتائج فإن الدارس لتاريخ «ولاة المدينة» وعلاقتهم بالخلافة الأموية، يدرك أن عهد «الوليد بن عبد الملك» كان من أزهى عهود خلفاء الأمويين على المدنيين بشكل عام، وأن عهد «يزيد بن معاوية» و«مروان بن محمد» كانا من أقسى عهود الخلفاء على المدنيين فإنهم عاشوا أهوالاً، فى خلافة الأول بدءً من البيعة له بولاية العهد ، وانتهاءً بوقعة الحرة !!

وكانت أرضهم فى عهد الثانى مسرحاً لمعارك حامية بين قوات «أبى حمزة» ، والقوات الأموية بقيادة «ابن عطية» !!

مما أرهق المدنيين من أمرهم عسراً فى عهد الخليفتين «يزيد بن معاوية» و«مروان بن محمد»!!

وعلى كل حال فإن الدراسة التى أتت عليها الصفحات السابقة أبرزت جديداً فى شأن الحكم على بعض الرجال المشهورين فى التاريخ الإسلامى مثل «بسربن أرطاة» والحجاج بن يوسف الثقفى» وتحديد التاريخ الصحيح لزيارة «المغيرة» «لدمشق» ومجاهرة «معاوية» للمدنيين برغبته فى البيعة بولاية العهد لولده، وغيرهما ؛ فجاء الجديد بناءً على مناقشة الروايات واستقراء دقيق لواقع هؤلاء الرجال من خلال المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى .

وبعـــد

فإن ما سطرناه من عبارات تناولت تاريخ «ولاة المدينة»، وعلاقتهم بالخلافة الأموية كان القصد منه الاسهام فى الدراسات التى قام بها غير واحد من القدامى والمحدثين فى «تاريخ المدينة».

حتى يقف اللاحقون بشكل دقيق على تاريخ هذه البقعة الطاهرة لنجعل الحكام السالفين الذين قاموا على أرضها وسطروا تاريخها قدوة لنا فى خير قدموه، وتحذيراً لأنفسنا من أخطاء وقعوا فيها، وهذه هى غاية المرام التى يبتغى المؤرخون أن يفيدوا بها قراء التاريخ.

وصدق الله العظيم القائل فى كتابه الكريم « فاعتبروا يا أولى الأبصار» والله أسأل أن يجعل هذه الدراسة شافعة نافعة لنا يوم الدين إنه نعم المولى ونعم المجيب .

د محسن سعد عبد الله
أستاذ التاريخ الإسلامي
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم والأحاديث النبوية

إبراهيم الإبياري :

١ - معاوية الرجل الذي أنشأ دولة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن سعد محمد ابن أبي الكرم بن محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت - ٦٣٠هـ) .

٢ - أسد الغابة : في معرفة الصحابة ، عدد الأجزاء (ستة أجزاء) طبعة مجددة بإشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر (١٤١٥هـ / ١٩٩٥)م - بيروت لبنان .

٣ - الكامل في التاريخ ، وعدد الأجزاء اثني عشرا جزءاً - بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م .

الناشر - دار المعارف ، القاهرة .

أحمد عطية الله :

٤ - القاموس الإسلامي - خمسة أجزاء

الناشر - مكتبة النهضة المصرية - ط ١ - ١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م .

الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ -٩٧٦م)

٥ - كتاب الأغاني

مصور عن طبعة دار الكتاب (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م) دار إحياء التراث العربي .

ابن أعثم : أبو محمد أحمد الكوفي (ت / ٣١٤هـ)

٦ - كتاب الفتوح - عدد الأجزاء تسعة أجزاء ط١ - ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

تحت إشراف : د. محمد عبد المعيد خان / مدير دائرة المعارف العثمانية .

البلخي : أبو زيد أحمد بن سهل وهو المطهر بن طاهر المقدس (ت / ٥٠٧هـ)

٧ - البدء والتاريخ - عدد الأجزاء - ستة أجزاء .

الناشر : مكتبة الثقافة الدينية .

ابن جرير الطبري :أبي جعفر محمد (ت / ٣١٠هـ)

٨ - تاريخ الرسل والملوك - عدد الأجزاء اثني عشر جزءاً

- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

الطبعة الرابعة - الناشر / دار المعارف / القاهرة .

ابن الجوزي :أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي (ت ٥٩٧هـ)

٩ - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك .

تحقيق : محمد عبد القادر عطا - مصطفي عبد القادر عطا

الطبعة الأولي / ١٤١٤هـ - ١٩٩٢م

الناشر : بيروت لبنان .

ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين بن أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢هـ)

١٠ - الإصابة في تمييز الصحابة - الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ
الناشر : دار احياء التراث .

١١- تهذيب التهذيب : عدد الأجزاء اثني عشر جزءاً .
الناشر : دار الكتاب الإسلامي لاحياء النشر الإسلامي/ القاهرة - بدون تاريخ للطبع .

الحموي : ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله

١٢ - معجم البلدان - خمسة مجلدات ط بيروت ١٩٥٥م .

ابن خياط :خليفة (ت / ٢٤٠هـ)

١٣- تاريخه
تحقيق : أكرم ضياء العمري
الناشر : دار طيبة الرباط / ط ٢ / ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م .

ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩هـ)

١٤- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين - جزءان
تحقيق : محمد كمال الدين عز الدين علي
بيروت ط ١ - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

الدينوري : أبو حنفية أحمد بن داود (ت / ٢٨٢هـ)

١٥ - الاخبار الطوال - (ليدن سنة ١٨٨٨ - السعادة بمصر - ١٣٣٠هـ)

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان (ت / ٧٤٨هـ)

١٦ - سير أعلام النبلاء - عدد الأجزاء ثلاثة وعشرون جزءاً

تحقيق : إبراهيم الزيبق

أشرف علي التحقيق : شعيب الأرنؤط ط ٢ / ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

١٧ - السيرة النبوية : ط ٢ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بيروت - لبنان .

تحقيق : حسام الدين القدس .

مجاز من جامعة دمشق ١٩٧٢م

الناشر : دار الكتب العلمية .

١٨ - العبر في خبر من غبر : ثلاثة أجزاء

تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني

الناشر : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

رفعت فوزي عبد المطلب

١٩ - الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، الصراع بينهما حتي قيام دولة الأغالبة

ط١ - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

رياض عيسى :

٢٠ - النزاع بين أفراد البيت الأموي ودوره في سقوط الخلافة الأموية ط١ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥ م .

الناشر : دار إحسان للطباعة والنشر .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهري كاتب الواقدي (ت / ٢٣٠هـ)

٢١ - كتاب الطبقات الكبري - ثمانية أجزاء - ط ١ -(١٤١٠هـ - ١٩٩٠)م

تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

السمهودي : نور الدين علي بن أحمد (ت / ٩١١هـ)

٢٢ - وفاء الوفا بأخبار دور المصطفي - عدد الأجزاء أربعة أجزاء

حققه : محمد محي الدين عبد الحميد

الناشر : بيروت لبنان - بدون تاريخ للنشر .

سامح عبد الرحمن فهمي

٢٣ - المكاييل

الناشر : مكتبة الفيصلية - مكة المكرمة .

ابن شاكر :محمد بن شاكر بن أحمد الكتني (ت / ٧٦٤هـ)

٢٤ - فوات الوفيات - جزءان

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد

الناشو : مكتبة النهضة المصرية - بدون تاريخ للنشو .

صفي الدين عبد المؤمن : ابن عبد الحق البغدادي /ت / ٧٣٩ هـ

٢٥ - مراصد الاطلاع علي أسماء الأمكنة والبقاع - وهو

مختصر معجم البلدان لياقوت - ثلاثة أجزاء .

تحقيق : علي محمد البجاوي .

الناشر : دار احياء الكتب العربية - ط١ - ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

ابن عبد البر : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي

٢٦ - العقد الفريد - عدد الأجزاء سبعة - ط ١ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

بيروت - لبنان .

تحقيق ونشر : أحمد أمين ، وأحمد الزيني - إبراهيم الابياري .

عبد الشافي : الدكتور / عبد الشافي محمد عبد اللطيف

٢٧ - العالم الإسلامي في العصر الأموي - دراسة سياسية - ط١ - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

عبد العزيز : الدكتور/ عبد العزيز غنيم :

٢٨ - الثورات العلوية في العصر الأموي - ط١ - ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

عبد المنعم : الدكتور/ عبد المنعم حامد المرسي الصاوي

٢٩ - رؤية جديدة حول الأحداث في عهد معاوية ويزيد - الطبعة الأولى - ١٤١١هـ - ١٩٩١م ..

عطوان : الدكتور/ حسين عطوان

٣٠ - الأمويون والخلافة

الناشر - دار الجيل ط ١ - ١٩٨٦م .

علي حافظ :
٣١ - فصول من تاريخ المدينة المنورة .
الطبعة الثانية / ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
الناشر : شركة المدينة المنورة - السعودية .
العمري : أكرم ضياء
٣٢- السيرة النبوية الصحيحة - جزءان - ط٤ - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
الناشر : مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة .
أبو الفلاح : عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت / ١٠٨٩)
٣٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ستة أجزاء .
تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي
الناشر : دار الآفاق الجديدة - بيروت .
فاطمة مصطفي عامر :
٣٥ - تاريخ الأسرة الطالبية في المدينة المنورة في العصر الأموي - ط ١٩٨٠م .
ابن قتيبه :أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت / ٢٧٦هـ)
٣٦ - الإمامه والسياسة المنسوب له - جزءان .
تحقيق : طه محمد الزيني - مطبعة الحلبي / القاهرة - دار المعارف .
تحقيق : د. ثروت عكاشة

الناشر : دار المعارف - القاهرة .

ابن كثير :أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت/ ٧٧٤هـ)

٣٧ - البداية والنهاية - عدد الأجزاء أربعة عشر جزءاً- ط١ - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - بيروت

المباركفوري : صفي الرحمن .

٣٨ - الرحيق المختوم - الطبعة الأولى / ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م ط ١ - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م - دار الوفاء - المنصورة / بمصر

محسن : الدكتور / محسن سعد عبد الله

٣٩ - نور اليقين في تاريخ الراشدين (الخلافة والبيعة) - الجزء الأول ط ١ - ١٩٨٨م

الناشر : الحسيني - القاهرة .

محمد أمين بدوي :

٤٠ - الشيعة ونشاطهم السياسي في العصر الأموي - ط١ - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

محمد بن الحسين: أبو يعلي الفراء الحنبلي / ت / ٤٥٨ هـ

٤١ - الأحكام السلطانية

صححه : محمد حامد الفقي - بدون -

محمد حلمي محمد :

٤٢ - الخلافة والدولة الأموية في العصر الأموي

محمد حميد الله :

٤٣ - الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة

ط ٦ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

الناشر : دار النفائس .

محمد الخضري بك :

٤٤ - محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية

الدولة الأموية

تحقيق : الشيخ محمد العثماني

الناشر : دار القلم - بيروت - لبنان ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

محمد : الدكتور/ محمد ضياء الدين الريس :

٤٥ - النظريات السياسية الإسلامية - ط٧ - ١٩٧٩م .

الناشر : مكتبة دار التراث الجمهورية .

محمد بن يوسف : الصالحي الشامي (ت / ٩٤٢هـ)

٤٦ - سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد - اثني عشر جزءاً

تحقيق : الشيخ عادل الموجود - الشيخ علي محمد عوض

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط ١ - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

محمود زياد :

٤٧ - الحجاج بن يوسف الثقفي المفتري عليه .

الطبعة الأولي / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

الناشر : دار السلام

محمود شاكر :

٤٨ - التاريخ الإسلامي / عدد الأجزاء تسعة أجزاء - الطبعة السابعة - ١٤١١هـ - ١٩٩١م - بيروت .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت / ٣٤٦هـ)

٤٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر - أربعة أجزاء .

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

الناشر : المكتبة الإسلامية - بيروت .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت / ٧١١هـ)

٥٠ - لسان العرب - أربعة أجزاء

تحقيق : عبد الله علي الكبير - محمد أحمد حسب الله - هاشم محمد الشاذلي

الناشر : دار المعارف - القاهرة .

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي / ت / ٤٥٠هـ

٥١ - الأحكام السلطانية في الولايات الدينية .
علق عليه : خالد عبد اللطيف السبع العليمي
الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت .
اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي (ت / ٢٨٤)
٥٢ - تاريخ اليعقوبي .
الناشر : دار صعب - بيروت .
يوسف : الدكتور / يوسف علي يوسف :
٥٣ - الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدون .
ط١ - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
الناشر : دار الطباعة المحمدية .
يوليوس فلهوزن : مستشرق .
٥٤ - تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلي نهاية الدولة الأموية .
نقله عن الألمانية وعلق عليه : د. محمد عبد الهادي أبو ريدة
راجع ترجمته : د. حسين مؤنس .
ط ٩ - ١٩٦٨ م

ثبت المحتوى



رقـــم الايـــداع

١٦٧١٢ / ٩٩

للطباعة والكمبيوتر
٣ ش طلعت حرب - توريل
المنصورة
أحمد فتحي عبد الكريم